

محمود سبلي

حياة
سلطان العلماء
العزيم عجد السلف

دار الجليل
بيروت - لبنان

حياة
سلطان العلماء
العزّ بن عبد الله

حياة
سلطان العلماء
العزّيز عَجْر السَّلام

تأليف
محمود سَليبي

دار الجيّد
بيروت

جَمْعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِدارِ الْجِيلِ

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ...
وأصلي وأسلم ... على خير البرية ...
صلاة وسلاما ... عدد ما كان وما سيكون ...
وبعد ...
هل كان ذلك الرجل عبقريا؟!
اعني ... هل كان العزّ بن عبد السلام عبقريا؟!
اقول: نعم ... وولياً ... وصديقاً
... وشهيداً وإن لم يستشهد!!!
أمّا العبقرية ... فدليلها ما كان منه من فتاوى ... ومؤلفات ...
طبقت الآفاق!!!
وأمّا الولاية ... فدليلها ما روي عنه من أقاصيص تناقلتها
الأجيال!!!
وأمّا الصّدّيقية ... فدليلها أنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً ...
تزول الجبال ولا يزول!!!
وأمّا الشهادة ... فدليلها حين جاء اليه نائب السلطنة ... ليقتله ...
فخرج إليه العزّ ... فبيست يد النائب ولم يستطع حراكا!!!

ها هنا نَمَتْ شهادة العِزِّ ... فإنه خَرَجَ لِيُقْتَلَ ...
وَمَنْ خَرَجَ لِيُقْتَلَ في الله ... ولم يُقْتَلَ ... نال مقام الشهادة ...
بصدقه ... وإخلاصه !!!
لقد كان العِزُّ ... بطل القرن السابع الهجري ...
إذا تكلَّمَ ... اهتزَّتْ له قلوب الناس ... وفزعَتْ منه الملوك
والسلاطين !!!
لأنَّ سُلْطانه ... كان أوسع من سلطانهم !!!

محمود شلبي

الخطوط العريضة..

من حياة...

سلطان العلماء...؟!!

قال في كتابه «عصر سلاطين الماليك» ... المجلد الثالث^(١) :

عز الدين بن عبد السلام ٥٧٧ هـ - ٦٦٠ هـ

« هو الإمام المجتهد القدوة، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسين بن محمد بن مذهب السلمي. سباه تلميذه، تقي الدين بن دقيق العيد القشيري، بسلطان العلماء، لعلمه الغزير، واطلاعه الواسع، وإيمانه القوي، وحنقه البالغة، وزهده وحبّه للحق. وكان شافعي المذهب.

مولده ووفاته:

ولد سنة ٥٧٧ هـ، وقيل سنة ٥٧٨ هـ. ببلاد الشام - وتوفي في ٩ جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ. وقد عاش نحواً من ٨٣ سنة.

وقد حكى ابن حجة الحموي في كتابه «ثمرات الأوراق»: أن شخصاً جاء إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعي، سلطان العلماء، فقال: رأيتك في المنام تنشد:

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
فسكت الشيخ عز الدين، ثم قال: أعيش ثلاثاً وثمانين سنة... فإن هذا الشعر، لكثير عزة، وقد نظرت، فلم أجد بيني وبينه نسبة، فإني سني، وهو شيعي. وأنا طويل وهو قصير. وهو شاعر، ولست بشاعر وأنا سلمي، وهو

(١) هو الاستاذ محمود رزق سليم.

لخزاعي. وأنا شامي وهو حجازي، فلم يبق إلا السن، فأعيش مثله، قال:
فكان كذلك.

بعض شيوخه:

وقد أفرم بالعلم منذ صغره، ويفهم من سيرته أنه ولد ببلاد الشام،
وتتلمذ لكثير من أفذاذها، ومن شيوخه: فخر الدين بن عساكر. وسيف
الدين الأمدى والحافظ أبو محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم بن
عساكر. وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن اسماعيل بن أبي سعد البغدادي،
وعمر بن محمد بن طبرزد، وحنبل بن عبدالله الرصافي والقاضي عبد الصمد بن
محمد الحرستاني، وبركات بن ابراهيم الخشوعي.

طرف من حياته:

عاش الشيخ عز الدين، زمنا طويلا. وفي أيام حكم الأيوبيين. وطلب العلم
حيث كان منشؤه. وقيل إنه سمع هاتفا يقول له: «يا ابن عبد السلام، أتريد
العلم أم العمل؟» فقال: «العلم، لأنه يهدي إلى العمل».

وقد فتح الله عليه، وهداه إلى العلم، وعبد له طريقه، وذل سبله. فحفظ
منه الشيء الكثير، في زمن وجيز. وقد أقبل على عبادة الله، حتى صار أعبد
أهل زمانه، وأحد متصوفيه، الذين يعبدون الله على علم وهدى وبصيرة
وحسن معرفة، وأصبح علما يشار إليه بالبنان.

ولقد برع في الفقه والأصول، والحديث والتفسير والتوحيد. وتولى كثيرا
من المناصب الهامة، خدمة للعلم، ورغبة في النفع العام. ومن المناصب:
التدريس في الزاوية الغزالية وغيرها بدمشق والخطابة بالجامع الأموي، والإمامة
به كذلك. قال عنه شهاب الدين أبو شامة، وهو أحد تلاميذه: «وكان أحق
الناس بالخطابة والإمامة».

ولما خرج من الشام إلى مصر، هام ٦٣٩ هـ تقريباً، ولاء سلطان مصر، الصالح نجم الدين الأيوبي الخطابة بجامع عمرو بن العاص، والقضاء بمصر والوجه القبلي. فلبث في دست القضاء زمناً. ثم ولاء هذا السلطان تدريس فقه الشافعية بمدرسته الصالحية، التي بناها بين القصرين بالقاهرة. وفوض إليه كذلك، عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة.

ومما يذكر أنه عزل نفسه مرارا من القضاء، والسلطان الصالح يعمل على إعادته إليه. وهو بين هذا وذاك، لا يني ينشر العلم، ويستكثر من تلاميذه. واتصل الشيخ عز الدين بعدد من سلاطين عصره، وعظمت مهابته في نفوسهم ولم يرتفعوا في نظره إلا بمقدار حرصهم على مصالح المسلمين ومحافظتهم على الدين مع شدة منه في معاملتهم، وقسوة في إسداء النصيحة إليهم.

حادثة خروجه من دمشق إلى مصر:

ومن اتصل بهم، سلطان دمشق، الملك الصالح اسماعيل، المعروف بأبي الحبيش وهو من سلائل الأيوبيين. وكان هذا السلطان قد استعان بالفرنجية من الصليبيين، على منازعته في الملك من بني أيوب. كما كان يتوجس خيفة من ملك مصر، الصالح نجم الدين الأيوبي فاتفق معهم على أن يعاونوه على عدوه. ويسلم إليهم لقاء هذا، مدينتي صيدا والشقيف، وغيرها من حصون المسلمين. وسهل لهم دخول دمشق لا بتياع السلاح.

شق هذا الاتفاق والتسلم والتفريط، على الشيخ عز الدين، وحز في نفسه أن يتعاون سلطان دمشق المسلم، مع أعداء الدين، على إخوانه المسلمين، مهما يكن سبب الخلاف بينهم.

فما يصنع عز الدين؟ لقد أهمل الدعاء لهذا السلطان، على المنبر. وجهد معه في هذا الأمر رأس مالكية زمانه، أبو عمر بن الحاجب. فكان هذا منها

إيذانا بالعصيان، وتحريضاً للناس. فغضب السلطان عليها واعتقل الشيخ
زمنًا، ثم أطلق سراحه، خوفًا من استشراف الفتنة.
عول الشيخ عز الدين على الرحيل من دمشق إلى القاهرة. وكان ذلك في
عام ٦٣٩ هـ تقريبًا. وخرجت معه دمشق تودعه.
وقد قيل إن ملك دمشق أرسل رسولاً خلف الشيخ، يراوده على العودة.
فأدركه وهو ببيت المقدس فقال له الرسول: «بينك وبين أن تعود إلى
مناصبك، وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير».
فقال له الشيخ: «والله مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلًا عن أن أقبل
يده. يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد. والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم».
قيل، فاعتقله الرسول. وكانت هناك حرب بين جيوش مصر ودمشق،
فانهزمت جيوش دمشق، فأطلق سراح الشيخ وسار إلى مصر في عودة
جنودها. وهناك تلقاه صديقه سلطان مصر الصالح نجم الدين الأيوبي. وولاه
التدريس والقضاء، وعاش بهذه البلاد مرموق المكانة مهيب المنزلة، معترفًا له
بالفضل.

النزاع بينه وبين مبتدعة الحنابلة:

ومن اتصل بهم، الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب، ملك
دمشق، قبل الصالح اسماعيل. وكان هذا الملك - موسى - يحل الشيخ ويعظمه
ويضمّر له في نفسه مكانة سامية. غير أنه كان ميالًا إلى جماعة من مبتدعة
الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى، حرفًا وصوتًا، ويعتقد
معتقدهم. وهذا المذهب غير مذهب الأشاعرة. مع أن المبتدعين أفهموه أن
مذهبهم هو مذهب السلف الصالح، وأنه رأي ابن حنبل.

وقد هال جماعة المبتدعين من الحنابلة، ما للشيخ عز الدين، من منزلة
لدى السلطان الأشرف. فحقّدوا عليه، وخشوا على منزلتهم منه. فسعوا لديه

بالوشاية، وقالوا للسلطان الأشرف: إن الشيخ أشعري العقيدة، يخطئ من يعتقد الحرف والصوت، ويعدّه مبتدعا. وإنه يقول كما يقول الأشعري: إن الخبز لا يشبع، والماء لا يروي، والنار لا تحرق.

وانتهى الأمر بهذه الوشاية، أن كتبت فتيا في هذه المسائل، ودفعت إلى الشيخ ليبيدي فيها رأيه. فكتب الشيخ رأيه في هذه المسألة، ببيان واضح، وأسلوب جميل، مقررًا مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة، وبين أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة. وقد حل في بيانه هذا، حلة شعواء على المبتدعين.

وقد أثبت تاج الدين السبكي في طبقاته، نص هذا البيان. فلما اطلع عليه السلطان، هاله الأمر. ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات، أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا، وعدم الاجتماع بالناس، وأن يلزم بيته.

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر، وقال لرسول السلطان: «إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، الموجبة للشكر لله تعالى، على الدوام. أما الفتيا فإني كنت والله متبرما منها، وأكرهها. وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ولولا أنني أعتقد أن الله أوجبها عليّ، لتعيتها عليّ في هذا الزمان، لما كنت تلوثت بها. والآن، فقد عذرتني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلصت ذمتي، والله الحمد والمنة.

وأما ترك اجتماعي بالناس، ولزومي لبيتي، فما أنا في بيتي الآن، وإنما أنا في بستان».

وكان الشيخ في تلك السنة، قد استأجر بستانا متطرفا عن البساتين.. ثم قال الشيخ:

«من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي. والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليّة من الحق، وهديّة

إيذاً بالعصيان، وتحريضاً للناس. فغضب السلطان عليها واعتقل الشيخ
زمنًا، ثم أطلق سراحه، خوفاً من استشراف الفتنة.
عول الشيخ عز الدين على الرحيل من دمشق إلى القاهرة. وكان ذلك في
عام ٦٣٩ هـ تقريباً. وخرجت معه دمشق تودعه.

وقد قيل إن ملك دمشق أرسل رسولا خلف الشيخ، يراوده على العودة.
فأدركه وهو بيت المقدس فقال له الرسول: «بينك وبين أن تعود إلى
مناصبك، وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير».
فقال له الشيخ: «والله مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلا عن أن أقبل
يده. يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد. والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم».
قيل، فاعتقله الرسول. وكانت هناك حرب بين جيوش مصر ودمشق،
فانهزمت جيوش دمشق، فأطلق سراح الشيخ وسار إلى مصر في عودة
جنودها. وهناك تلقاه صديقه سلطان مصر الصالح نجم الدين الأيوبي. وولاه
التدريس والقضاء، وعاش بهذه البلاد مرموق المكانة مهيب المنزلة، معترفا له
بالفضل.

النزاع بينه وبين مبتدعة الخنابلة:

ومن اتصل بهم، الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب، ملك
دمشق، قبل الصالح اسماعيل. وكان هذا الملك - موسى - يحل الشيخ ويعظمه
ويضمّر له في نفسه مكانة سامية. غير أنه كان ميالا إلى جماعة من مبتدعة
الخنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى، حرقاً وصوتاً، ويعتقد
معتقدهم. وهذا المذهب غير مذهب الأشاعرة. مع أن المبتدعين أفهموه أن
مذهبهم هو مذهب السلف الصالح، وأنه رأي ابن حنبل.

وقد هال جماعة المبتدعين من الخنابلة، ما للشيخ عز الدين، من منزلة
لدى السلطان الأشرف. فحقّدوا عليه، وخشوا على منزلتهم منه. فسعوا لديه

بالوشاية، وقالوا للسلطان الأشرف: إن الشيخ أشعري العقيدة، يخطئ من يعتقد الحرف والصوت، ويعده مبتدعا. وإنه يقول كما يقول الأشعري: إن الخبز لا يشبع، والماء لا يروي، والنار لا تحرق.

وانتهى الأمر بهذه الوشاية، أن كتبت فتيا في هذه المسائل، ودفعت إلى الشيخ ليدي فيها رأيه. فكتب الشيخ رأيه في هذه المسألة، ببيان واضح، وأسلوب جميل، مقررًا مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة، وبين أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة. وقد حل في بيانه هذا، حملة شعواء على المبتدعين.

وقد أثبت تاج الدين السبكي في طبقاته، نص هذا البيان. فلما اطلع عليه السلطان، هاله الأمر. ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات، أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا، وعدم الاجتماع بالناس، وأن يلزم بيته.

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر، وقال لرسول السلطان: «إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، الموجهة للشكر لله تعالى، على الدوام. أما الفتيا فإني كنت والله متبرما منها، وأكرهها. وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ولولا أنني أعتقد أن الله أوجبها عليّ، لتعيتها عليّ في هذا الزمان، لما كنت تلوّث بها. والآن، فقد عذرتني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلصت ذمتي، والله الحمد والمنة.

وأما ترك اجتماعي بالناس، ولزومي لبيتي، فما أنا في بيتي الآن، وإنما أنا في بستان».

وكان الشيخ في تلك السنة، قد استأجر بستانا متطرفا عن البساتين..

ثم قال الشيخ:

«من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي. والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليّة من الحق، وهديّة

من الله تعالى، إلى أجراها، على يد السلطان، وهو غضبان، وأنا بها فرحان». ثم قال للرسول: «والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة، لخلعت عليك، ونحن على الفتح خذ هذه السجادة صل عليها».

وما زال أمر الشيخ أو السلطان على هذه الحال، حتى أصلح بينهما العلامة جمال الدين الخضيري شيخ الحنفية في زمانه. وأفهم السلطان أن عقيدة الشيخ، هي عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة. ومن ذلك الحين عادت صلة الشيخ بالسلطان إلى ما كانت عليه. وأخذ السلطان في استرضائه، تكفيراً عما اقترف في حقه فيما سبق وأخذ نفسه بقراءة مؤلف للشيخ اسمه «مقاصد الصلاة».

ولما مرض السلطان مرض الموت، استقدم الشيخ إليه ليسدي إليه النصيح الأخير. فكان مما نصحه به أن يصلح ما بينه وبين أخيه الكامل ملك مصر، حينذاك، وأن يبطل المفاسد المنتشرة في عهده من زنى وشرب خمر، فرسم بإبطال ذلك.

وبعودة المياه إلى مجاريها بين الشيخ والسلطان، انخزل المبتدعة وأهل الضلال ممن يدعون الحنبلية.

موقفه من السلطان الظاهر بيبرس:

ومن اتصل بهم الشيخ، السلطان الظاهر بيبرس، ملك مصر. وكان بيبرس يهاب الشيخ، ويجله ويخشاه، ويستشيريه في أموره. ولم يبايع خليفة من الخليفين اللذين بايعهما من بني العباس، قبل أن يبايعه الشيخ عز الدين. ومن مواقفه الرائعة مع بيبرس أنه حينما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة، جمع الناس من الأمراء والقضاة والعلية، وكادت البيعة تنعقد له، لولا أن امتنع الشيخ عز الدين عن مبايعته. لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحرية. وقال له: «يا ركن الدين! أنا أعرفك مملوك البندقدار...».

فاستحضر ببيرس شهودًا شهدوا بخروجه من ملك البندقدار، وأنه صار حرًا فبايعه الشيخ... قيل: إن الشيخ لما توفي، ومرت جنازته تحت القلعة، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق فيها، قال لبعض خواصه: «اليوم استقر أمري في الملك، لأن هذا الشيخ، لو كان يقول للناس، اخرجوا عليه. لانتزع الملك مني».

أمثلة من قسوته في الحق:

في سيرة الشيخ حوادث، تنبئ بما كان عليه من قسوة في التمسك بالحق، وحرص على تنفيذ رأيه ما دام صوابا وعدلا، فمنها:

بيع الأمراء:

لعل هذه القصة من أبدع قصصه وأروعها. وبخاصة لأنها وقعت في ذلك العصر الذي طغى فيه الأمراء الحاكمون، فتصدى الشيخ عز الدين، وهو الهرم الأعزل إلا من قوة إيمانه، وأشهر بعض كبار هؤلاء الأمراء في مزاد علني...

لقد ثبت له أن هؤلاء الأمراء، لم يعتقوا، وأنهم بذلك من حق بيت مال المسلمين.. وجهر بذلك بين الأمراء وأعلن أن حكم الرق لا يزال مصاحبا لهم، وينبغي - إذا أرادوا العتق - أن يشهر بيعهم ويحصل ثمنهم ويضم إلى بيت المال!

ثم أفتى أن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود نكاح، ونحو ذلك، لا تنعقد. فافسدت هذه الفتوى على الأمراء حياتهم، فقد توقف الناس عن التعامل معهم فعملت مصالحهم. وكان في جللتهم نائب السلطنة فاستشاط النائب غضبا، وملأ الحنق نفسه، وعجب من جرأة هذا الشيخ على الحاكمين بأمرهم. وأقسم ليشجن رأسه، وليقطن هامته بحد حسامه وليلقين عليه درسا في معاملة

الأمراء.. وقال: «كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض. والله لأضربنه بسيفي هذا».

أسرع الأمير إلى دار الشيخ، ممتطياً صهوة فرسه، قابضاً على قائم سيفه، وشرر الغضب يتطاير من عينيه. وطرق الباب...

نزل الشيخ للقاء الأمير، وابنه يرتعد فرقاً على أبيه. وأبوه يقول له: «يا ولدي! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله».

بهذا الإيمان الراسخ، وبذلك العزيمة الثابتة، لقي الشيخ هذا الأمير الثائر. هنا، وقعت المعجزة، وظهرت كرامة الشيخ! فقد يبست يد الأمير، وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله... فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له... واستطلعه رأيه في مسألتهم...

فطلب الشيخ أن يباعوا ويضم ثمنهم إلى بيت المال، فكان له ما أراد، وأشهروا في مزاد علني، وقف الشيخ فيه، وغالى في ثمنهم، وأضاف الثمن إلى بيت المال.

وسواء أكانت يد الأمير قد يبست رهبة من الشيخ وهيبة، أم هي كرامة من كراماته أيبستها، فإنما يعنينا تخاذل الأمير وجبنه عن أن يلحق أي أذى بالشيخ، كما يعنينا ثبات الشيخ وقوة نفسه التي أذلت له هؤلاء الطغاة.

يروى السبكي في طبقاته هذه القصة رواية الواثق بما يروي، الحريص على تفاصيلها، بما لا يدع لإنسان مجالاً للشك في صحتها.

وقد قيل بصدها إن الشيخ سمع أن السلطان أنكر عليه تدخله فيما لا يعنيه. فعول الشيخ على الرحيل من مصر، عائداً إلى بلاد الشام، فلحق به كثير من المسلمين، حتى خشي السلطان مغبة الأمر، وأسرع باسترضائه فعاد.

إسقاط الأستاذار فخر الدين^(١) عثمان:

وهذا الأستاذار، كان ذا حول وطول في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وكان الشيخ حينذاك، قاضيا بمصر والوجه القبلي. فعلم أن فخر الدين هذا، قد بنى «طبلخاناه» - مكانا للموسيقا - فوق سطح أحد المساجد بمصر. فحكم بهدم هذا البناء، ومضى بنفسه ومعه أولاده، وهدمه. وعزل نفسه من القضاء، بعد أن أفتى بإسقاط فخر الدين الأستاذار، - أي أنه أصبح غير عدل.

وقد قيل إن السلطان الصالح أرسل بعد ذلك، رسولا إلى خليفة بغداد، في أمر ما، فسئل الرسول عمن شافهه في هذا الأمر، فقال: إنه الأستاذار فخر الدين عثمان. «ف قيل له: إن رسالته لا تقبل، لأن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فلا تقبل روايته...»

عظته للسلطان:

وكان ذلك في يوم عيد وأبهة. قيل: دخل الشيخ على السلطان الصالح أيوب، في يوم عيد بالقلعة، فشاهد العسكر مصطفىين بين يديه ومجلس المملكة حافل، والسلطان قد خرج على القوم في زينته، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يديه.

والتفت الشيخ إليه وناداه: «يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر؟ ثم تبيع الخمر؟» فقال: «هل جرى هذا، فقال: نعم! الحانة الفلانية، يباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنت تنقلب في نعمة هذه المملكة...» وكان الشيخ يناديه بهذا بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

(١) في السلوك ج ١ ص ٣١٢، أن اسمه «معين الدين» وأنه كان وزيرا للصالح نجم الدين.

فقال السلطان: «يا سيدي، هذا ما أنا عمله. هذا من زمان أبي». فقال الشيخ: «أنت من الذين يقولون «إنا وجدنا آباءنا على أمة»؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

قبل إن أحد تلاميذ الشيخ سأل عن هذه الحادثة وقال: كيف الحال؟ فقال له الشيخ: يا بني رأيت في تلك العظمة، فأردت أن أهينه، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقال: «يا سيدي أما خفته» فقال: والله يا بني، استحضرت هبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي كالقط.

آثاره وأقوال المؤرخين فيه:

للشيخ مواقف عدة على غرار ما سبق. وتنسب إليه كرامات كثيرة. ويقال إنه لبس خلعة التصوف. وكان يستثيره الوجد في مجلس أبي العباس المرسى الصوفي المشهور.

واشتغل بالتدريس زمناً طويلاً وتلمذ له جماعة بيضوا من الزمان صفحته، وجددوا للعلم برده، وكانوا من بعده أمناء على الدين. وعلى رأسهم: تقي الدين بن دقيق العيد القشيري.

ولما يم شطر مصر، هاجراً بلاد الشام، أكرمه حافظها الكبير، وزاهاها، الشيخ عبد العظيم المنذري، وامتنع عن الفتيا، تعظيماً له. قائلًا: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره، فمنصب الفتيا متعين فيه». وقال عنه السبكي في طبقاته: «شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر المعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها، لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه، مثله علمًا وورعًا، وقيامًا في الحق، وشجاعة، وقوة جنان وسلطة لسان».

وقال فيه الذهبي في كتابه: العبر: «انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد

والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة،
ناشرًا للعلم، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

وقال فيه ابن كثير في تاريخه: «انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد
بالفتوى من سائر الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع
نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده».

وقال تلميذه ابن دقيق: «كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء» وابن
دقيق هو الذي أطلق عليه: سلطان العلماء.

وقال عنه جمال الدين بن الحاجب: «ابن عبد السلام أفقه من الغزالي».
هذا وللشيخ عز الدين جملة من الفتاوى والمؤلفات ومن محاسنه أنه كان
إذا أفتى برأي مرة، ثم تبين له فساد، نادى على نفسه في مصر والقاهرة ألا
يعمل أحد بفتواه.

من مؤلفاته ورسائله:

- ١ - الفتاوى الموصلية. ٢ - مختصر النهاية واسمه «الغاية». ٣ - شجرة
المعارف. ٤ - القواعد الكبرى في الشريعة. ٥ - القواعد الصغرى وهي مختصر
الكبرى. ٦ - كتاب مجاز القرآن، في الشريعة. ٧ - الدلائل المتعلقة بالملائكة
والنبيين. ٨ - تفسير القرآن في مجلد مختصر. ٩ - مختصر صحيح مسلم. ١٠ -
مختصر الرعاية «والرعاية للمحاسبي». ١١ - بداية السؤل في تفضيل الرسول.
١٢ - الفرق بين الإيمان والإسلام. ١٣ - فوائد البلوى والمحن. ١٤ - الجمع
بين الحاوي والنهاية. يبدو أنه لم يتمه. ١٥ - الإمام في أدلة الأحكام. ١٦ -
بيان أحوال الناس يوم القيامة. ١٧ - الفتاوى المصرية. ١٨ - مقالة في الرد
على الحشوية والمبتدعة من مدعي الحنبلية. ١٩ - مقاصد الصلاة. ٢٠ - مسائل
الطريقة في علم الحقيقة ويعرف «بالستين». ٢١ - حل الرموز ومفاتيح
الكنوز.

بعض هذه الرسائل موجود بدار الكتب . منه مخطوط : كالفتاوى الموصلية .
والغاية والقواعد الكبرى . ومطبوع : مثل حل الرموز ومسائل الطريقة ، ومجاز
القرآن واسم الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .

التعريف ببغض هذه الرسائل :

١ - مقالته في الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة :

قد بينا فيما سبق ، ملخص النزاع بينه وبين الحنابلة المبتدعة ، وردة عليهم ،
مما أدى إلى وقوع النفرة بينه وبين الملك الأشرف موسى . ونلخص هنا ما قال
في رده .

تقول الحشوية ومبتدعة الحنابلة أن كلام الله سبحانه وتعالى ، بحرف
وصوت ، وأن الأشياء لها فعل مؤثر في غيرها بنفسها ، كالنار فهي محرقة ،
وكالماء فهو مزيل للعطش ، وكالخبز فهو مزيل للجوع . وهكذا . وينكرون أن
الإحراق والري والشبع ، وما مائلها ، من الله سبحانه وتعالى .

وقد فند الشيخ عز الدين في هذا المقال مزاعم هذه الفئة ، وقرر مذهب
الأشاعرة .

بدأ في مقاله ، بحمد الله وتنزيهه عن الولد ، وعن مماثلة الحوادث ، وتعالیه
عن الزمان والمكان ، وعن الاستواء الحسي على العرش ، وبين أنه مطلع على
هواجس الضمائر ، محيط بكل شيء علماً ، قديم متكلم ، لا بصوت ولا بحرف .

وبين أن أسماء مندرجة في أربع كلمات هن الباقيات الصالحات ، وهن :
« سبحان الله » . أندرج تحتها نحو القدوس والسلام ، وهي تتضمن تنزيهه
سبحانه عن كل نقص وعيب .

« والحمد لله » : ويندريج تحتها نحو العليم والقدير والسميع والبصير ، وتتضمن
إثبات كل كمال له وكل جلال .

«الله أكبر»: بمعنى أنه أجل مما نُفي عنه، ومما أثبت له. ويندرج تحتها نحو الأعلى والمتعالى.

«لا إله إلا الله». وهي تدل على أن من كان في الوجود هذا شأنه، فلا يوجد من يشاكله أو يناظره، فهو مستحق للعبودية. ويندرج تحتها نحو الواحد والأحد وذو الجلال والإكرام.

ثم قال: «فسبحان من عظم شأنه وعز سلطانه، يسأله من في السموات والأرض لافتقارهم إليه. كل يوم هو في شأن، لا اقتداره عليه، له الخلق والأمر، والسلطان والقهر. فالخلائق مقهورون في قبضته، والسموات مطويات بيمينه. يعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، وإليه تқلبون. فسبحان أزلي الذات والصفات، ومحبي الأموات، وجامع الرفات، العالم بما كان وما هو آت».

وبين بعد ذلك، ما يجب على العلماء عمله، وأن السلف لم يقصروا في الدعوة، والنهي عن المنكر. ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه.

وتطرق إلى التفرقة بين كلام الله القديم، والكلام المدون في المصاحف بالمداد وقال إن كل شيء مصدره الله سبحانه وتعالى، وهو الخالق المسبب، وما الماء والنار وأمثالها إلا أسباب. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١). وقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾^(٢).

هذا وقد كتبت المقالة بأسلوب سهل لطيف واضح كثير الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية المناسبة. وقد استغرقت نحو ثلاث ورقات متوسطة الحجم.

(١) سورة الأنفال، آية ١٧.

(٢) سورة النجم، الآيتان ٤٣ - ٤٤.

مسائل الطريقة في علم الحقيقة المشهور بالستين:

تصفحت مجموعة محتوية على ما يأتي:

١ - تحفة الاخوان في آداب الطريق: تأليف العارف بالله أحمد بن محمد الدردير.

٢ - مسائل الطريقة في علم الحقيقة، وهو المشهور بالستين. تأليف عز الدين ابن عبد السلام.

٣ - منظومة في آداب الطريق للعارف بالله أبي يزيد البسطامي.
ويهمنا هنا الكلام عن «مسائل الطريقة» لعز الدين بن عبد السلام فنقول:

مسائل الطريقة أو الستون، عبارة عن ستين مسألة أو سؤال في أمور تصوفية خلقية، مع جواب كل منها. والأسئلة والأجوبة كلاهما مختصر موجز. والأجوبة طريفة كاستلثتها. ومنها سؤال في الإيمان. وسؤال في تأويل «لا حول ولا قوة إلا بالله» وسؤال في الفرق بين الإسلام والإيمان. وهكذا. ولم يزد هذا الكتيب عن ثلاث ورقات.
ومن أمثلة ذلك قوله:

١ - «مسألة»: إذا قيل لك: «ما الإيمان». وما رأس الإيمان. وما وسط الإيمان. وما شجرة الإيمان، وما ماء الإيمان. وما نهر الإيمان». «فالجواب»: أن تقول: «الإيمان هو الصدق. ورأسه التقوى. ووسطه الطاعة واليقين. وعروقه الصلاة والإخلاص. وشجرته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وغصنه التوحيد. وثمرته الزكاة. وأرضه المؤمنون. وماؤه كلام الله. ونهره العلم».

٢ - «مسألة»: إن قيل لك: «لكل شيء جوهرة، وجوهرة الإنسان العقل. وما جوهرة العقل». فقل: «جوهرة العقل الصبر، والعمل بحركات

أحوالها، فيتفوهون بعبارات غريبة المجاز خفية الكناية بعيدة التأويل، أو يظهرون بمظهر مضطرب يأباه الذوق وترفضه الكياسة، أو قد يناقض الشريعة وظاهرها. - فأحب أن يبين هؤلاء المعارضين سبب هذا التجوز أو الاضطراب أو التناقض وأن يفصح لهم عن كنه هذه الرموز ويحلّي لهم حلها حتى لا يتورطوا في شيء لا يعلمون حقيقته، وينزلقوا إلى حكم جائر على مظهر لا يدركون سره، ولا يسبرون غوره، ولم يطلعوا على باطنه.

وقد قال في المقدمة في معرض الاستدلال، الحكاية التالية:

« وقد بلغني عن « قضيب البان » بالموصل، وكان عظيم الشأن، وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة لا يأوي إلا المزابل، ولا يتوقى النجاسة. والناس متحIRON في حاله مختلفون في أمره. فقوم يقولون: زنديق. وقوم يقولون صديق. فبينما يوم من الأيام، كان قاضي المدينة ماراً إذ رآه على مزبلة، وقد بال على ساقيه. فقال القاضي في نفسه. « تبا لمن جعلك صديقاً، وما أنت إلا زنديق » فما استم الخاطر، حتى قال قضيب البان: « يا قاضي! قد أحطت بجميع علم الله؟ » قال له: « لا والله » قال « فأنا من ذلك العلم الذي لا تعلمه، وما عليك إن كنت صديقاً أو زنديقاً ».

فهذه الحالة وأشباهها، وما يكتنفها عادة من غموض وما يلابسها من عبارات مبهمة على أهل الظاهر ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا. وقد قال بعد أن سرد القصة السالفة:

« فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال، وقد أشكل على الأفهام تعليلها، وعزب عن الأوهام تأويلها، أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدري، وسنح به فكري، وبلغ إليه قدري. وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة، وقدمت ذكر هذه الأحاديث وما معها من الألفاظ الماثورة عن الرجال، وجعلتها أساساً للكلام وبينت لثبوت الأحكام لتكون منوالاً أنسج عليها ما كان حالاً لا محالاً، وسميتها « حل الرموز

ومفاتيح الكنوز، وإنما سميتها بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه «كنت كنزاً لا أعرف».

ويشتمل الكتاب على عدة فصول مكتوبة بأسلوب جذاب واضح وضوحاً نسبياً، على الرغم من خطورة موضوعاته وصعوبتها على أهل الظاهر أمثالنا... وهو يسجع أحياناً إذا صفا له السجع، ويترسل إذا طاوعه اللفظ، وسهل به توضيح المعنى. ويستشهد بآي القرآن أو كلام النبي عليه السلام، ويفسر ويشرح أحياناً، ويستنبط أحياناً أخرى، كما يستشهد ببعض العبارات والأشعار المأثورة وقد يسوقه وجد ما هو بصدد شرحه من معاني فيأدب ويخف ويظرف، ويسوق لنفسه الأبيات الشعرية الطريفة من باب الاستشهاد والتدليل. وهو - مع ذلك - بعض الأحيان تغلبه العبارات المنطقية.

وأهم ما تناول الكلام عنه في الفصل الأول: بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان. وشرح معنى التوبة وأقسامها.

وتكلم في فصل عن العقبات الستة التي لا بد من قطعها حتى يصل المرء إلى منازل القربات. وبين ما يترتب على تخطي كل عقبة من فتوح.. وهي على التوالي: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية، وفطم النفس عن المألوفات العادية، وفطم القلب عن الرعونات البشرية، وفطم السر عن الكدورات الطبيعية، وفطم الروح عن التجارات الحسية، وفطم العقل عن الخيالات الوهمية..

وتكلم في فصل عن فناء المحب في المحبوب وطريقة ذلك وعما تبعه من فيض، مفسراً قول النبي عليه السلام مخبراً عن الله سبحانه «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت له سمعاً وبصراً وفؤاداً».

وقد سار في بقية الفصول موضحاً ضروباً من عقائد الصوفية. وكلها تدور على تحليل الصلة بين العبد وربّه وبيان حقيقتها وكيفيتها - ولا يمكننا تفصيل كل ذلك في هذا المقام.

مختارات مما قاله في هذا الكتاب :

١ - في بيان الفرق بين العلم والعمل والحال :

اعلم أن العلم مقدمة، نتيجتها العمل. والعمل مقدمة نتيجتها الحال.. فالعلم والعمل كسبي، والحال وهبي. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١) فالمجاهدات بالعلم والعمل. والهداية مواهب الله تعالى في الأحوال. وهذا معنى قوله عليه السلام: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم». فالذي أورثه الله لعبده لم يكن من كسبه، بل بفضل الله وبرحمته. وبذلك من الله على نبيه عليه السلام، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٢).

٢ - في بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان.

«ثم اعلم أن مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان. فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين. ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين. ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين».

وقد أورد بعد هذه العبارة، تدليلاً عليها، حديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، لما أتاه جبريل على هيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر... وجلس إليه يسأل عن الإسلام فقال له النبي عليه السلام: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً..» ثم سأله عن الإيمان فقال النبي عليه السلام: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». ثم سأله عن الإحسان فقال له عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثم قال في موضع آخر: «فبين رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن أدب

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٢) سورة النساء آية ١١٣.

السلوك في خدم الملوك ثلاثة ، فالإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام والإيمان قيام القلب بوظائف الاستسلام . والإحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام .

٣ - وقال من فصل يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :

« هنالك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية . فإذا أرادك لخصوصية الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ، وبالذوق شوقاً وبالقرب طلباً وبالسكون قلقاً . - وبعد أن روى أبياتاً شعرية مناسبة قال - وعباراته هنا تحتاج إلى روية في فهمها - « فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت ههنا مُريد . فإذا أدام لك تحريك أخذك منك وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوباً مجذوباً ، فأنت حينئذ مُراد . إذ أنت معه بلا أنت وعنده بلا أين . تشاهدُه بلا كيف . فإذا فنيث ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك ، وبيقائه عن فنائك . وخلع عليك خلعة « في يسمع وي يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فإن نطقك فبأذكاره ، وإن نظرت فبأنواره ، وإن تحركت فبأقداره . فهنالك ذهبت الاثنينية ، واستحالت البينية . فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك ، وحار سكرك قلت : « هو » . وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت : « أنا » . فأنت في الأول متمكن وفي الثاني متلون . ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام : فقائل يقول : « زنديق فيقتل » . وقائل يقول : « صديق فيحمل » . وقائل يقول : « مغلوب عليه فيهمل » . فهو من حيث تحقيق حاله محقق في علمه . والذي حكم في قتله مصيب في حكمه . إذ الشريعة لها حدود ، من تعداها أقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ ^(١) والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود إلى آخره .. - وفي هذا ما يكفي .

(١) سورة البقرة، آية ٢٢٩ .

قبل أن نترك الكلام عن هذا العالم الجليل نذكر أن الروح الأدبية تبدو من خلال عباراته، وإن كان ذلك بمقدار يسير. غير أن له نفس الأديب وطرب الأديب. ألا ترى أنه كان يسجع ويطلق ويجانس في كلامه ويستشهد بالأشعار.. ثم ألا تسمع ما قاله فيه القطب البوني:

« وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص فيه ».

هذا مع أنه صوفي ومؤلف في التصوف وكان يحضر مجالس علماء الصوفية ويستمتع من أبي العباس المرسى وأبي الحسن الشاذلي. ثم لعل الصوفي الخالص هو الأديب في أسمى مراتبه..

ولقد قال فيه ابن كثير أيضاً: « كان لطيفاً ظريفاً يستشهد بالأشعار ». هذا، وقد ذكر السبكي في طبقاته في سياق ترجمة هذا الرجل أنه أنشد لنفسه بيتاً على تلاميذه وطلب إليهم أن يجيزوه. وهو:

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفوني في هواه ولا مواء
فأجازه شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني قاضي أسوان
فقال أبياتاً منها.

لكنهم جهلوا لذادة حسنه وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجنب وهاموا
إلى آخرها..

وقد قال السبكي بصدد البيت المذكور « ولم يكن له من النظم غيره » ولا أدري هل نفهم من هذه العبارة أن ليس له شعر غيره مطلقاً، أو إلى ذلك الحين فقط أي حين إنشاد البيت لتلاميذه... نقول ذلك لأن للشيخ عز الدين شعراً كثيراً في كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز ». ومنه قوله في ص ١٦ بعد أن شرح كيفية اتصال النار بالماء فيصبح حاراً مع بقاء حقيقته السائلة. قال « ولقد أشرت إلى ذلك فقلت »:

نار المحبة أحرقت أحشائي ومدامعي تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعي وأنا الغد ريق بأدمعي يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرقي تزداد وقدًا عند فرط بكائي
فالنار والماء القراح تآلفا هذا لعمري أعجب الأشياء
وله في الكتاب المذكور أشعار كثيرة على هذا النمط وهي متوسطة الجودة
وكلها في التصوف، ولذلك تراها كثيرة المجازات خفية الكنايات كثيرة
الرموز والاشارات».

عَالِمٌ ..
خَيْرٌ مِنْ ..
مليون عَالِمٍ ..!؟

العلماء كثير...
يولد منهم أُلوف... وَيَتَعَلَّمُونَ... وَيُعَلِّمُونَ... وَيُتْلَعُونَ... ولا
ذِكْرَ لهم... ولا وَزْنَ لهم!!! إلا آحاد... يبقى ذِكْرُهُم... جيلا بعد
جيل... الى ما شاء الله!!!
لماذا هذا؟!
السِر في هذا:
« الناس هلكى إلا العالمون...
« والعالمون هلكى الا العاملون...
« والعالمون هلكى الا المخلصون...
« والمخلصون على خطر عظيم...
« خطر الرياء والعُجب»!!!
ولا يخلد ذِكْرُ إلا مَنْ اجتاز تلك المهالك كلها... واستوى على قمة
المخلصين لله...

فقد تعلّم... فخرج من تهلكة الجهل...
وعمل بعلمه... فخرج من تهلكة قول ما لم يفعل...
وأخلص في علمه... فخرج من تهلكة العمل لغير الله...

وكاد يهلك رغم هذا كله... لولا ان اجتاز مفازة الرياء...
والعُجب!!!

لقد استوفى المختار لخلود الذِكر عناصر الخلود...
وهي: العلم... والعمل... والإخلاص... وتجنب الرياء والعُجب!!!
فإذا ما استوفى البطل هذه الركائز...
كان عليه أن يكون ذا استعداد للإمداد الإلهي...
أن يكون بفطرته عبقرياً...
لأن أفذاذ العلماء... من الحتم أن يكونوا بفطرتهم عباقرة...
هنالك يكون الإمداد على قدر الاستعداد!!!
ويهتز العبقرى الموهوب... بعلوم باهرة... وحُجج قاهرة!!!
فالأمر ليس محض صدفة...
وإنما اختيار... وشائد ومحن... وتحديات... ثم نصر بعد ذلك...
فخلود!!!

مُنذ أن وُلِدَ العزّ بن عبد السلام... الى يومنا هذا... وُلِدَ أُلوف
من العلماء... وذهبوا ولم يُذكروا...
وبقي العزّ بن عبد السلام... منشوراً!!! لماذا؟!
لأنه عبقرى... أخلص عِلْمه لله...
فآتاه الله... وآتاه!!!

لماذا ...

لقبوه ...

سلطان العلماء ...؟!!

سهلّ... يسير...
على أيّ عالمٍ أوتي فصاحة وعِلماً... أن يصرف إليه وجوه
الناس...
وأن يُثني عليه أغبياء الجماهير... ويشيرون إليه بالأصابع...
ويقف المذكور على المنابر... أو يتحدث من الإذاعة... أو يظهر
على شاشات التليفزيون... أو الفيديو...
يبهر السامعين جمال أسلوبه... وعذوبة عباراته... ورشاقة
ألفاظه... وغرابة معلوماته...
إلا أن هذا الشهير... المثير لإعجاب السامعين...
لا يساوي عند الله شيئاً... حتى يستوفي صفة عليا... هي مقياس
التقويم لشخصية العالم عند الله تعالى...
هذه الصفة هي... الأمر بالمعروف... والنهي عن المنكر... مها
كان من تضحيات من العالم... ولو كلفه ذلك بذل حياته...
ها هنا يتفاضل العلماء...
فليست العظمة أن يثرثر العالم ببذائع العلوم في التوحيد... وعظمة
الله... وقدرة الله... وآيات الله في خلقه...

أو أن يُبدئ ويعيد في إعجاز القرآن ... وبدائع البيان ...
فإنَّ أحدًا من الناس ... لا يُنكر عظمة الله في كل شيء ...
ولا أحدٌ يُنكر إعجاز القرآن ... وروائع البيان ...
فهذه كلها أقوال معادة ... وثرثرة لا تعود على الناس بجديد ...
وهذه المساحة من العلم ... يُنمّيها الحاكم ... ويشجع على تردادها ...
واستهلاك عقول الناس فيها ... ليصرفهم عن الالتفات إليه ...
يحاسبونه على الأخطاء ...

وإنما العظمة من العالم ... أن ينهى عن المنكر ... ويأمر
بالمعروف ... ويقذف بالحق المرّ في وجه المنحرفين ... بدءًا من أعلى
سلطة ... إلى عامة الناس ...

هذه هي العظمة ... وهذا هو العالم العظيم ... الخالد الذكر ...
وهذا هو سر خلود ذكر العزّين عبد السلام ...
إنه لم يخلد لأنه عالم عظيم ... فقد كان عصره يموج بعظماء
العلماء !!!

ولم يخلد لأنه كان مجتهدًا لم يتقيد بمذهبه ... مذهب الشافعي ...
وإنما ما رآه حسنًا به أفتى ... فقد كان زمانه يموج بمن هو أجراً منه في
الفتيا ... كابن تيمية ... وابن القيم !!!

إذا لماذا ذهب العزّ ... بهذا اللقب الخالد «سلطان العلماء» ...
دون هؤلاء جميعًا !!!

لأنه تحدّى أباطرة الملوك ... ودهاة السلاطين ... وعتاة الأمراء !!!
وصكّ وجوههم ... وهم على عروشهم ... وسيوفهم مشهورة ...
بكلمة الحق !!!

لا يبالي أغضبتهم ... أم أفزعتهم ... أم دفعتهم إلى قتله ؟ !!!

هذه هي الصفة العليا... التي انفرد بها العزّ... من دون كثير من العلماء...

صفة الجهر بالحقّ... والاستعداد لأقصى التضحيات في سبيل اظهار الحقّ!!!

وليُسحق المنصب... في سبيل ارضاء الله!!!
وليُسحق شعور الملوك والسلاطين... اذا كان في ذلك ظهورًا للحقّ!!!

لقد كان العزّ يعيش في اشاعات هذا الحديث:
«سيدُ الشهداء حمزةُ بنُ عبدِ المطلب...»
«ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ... فأمره ونهاه... فَقَتَلَهُ»!!!
ومن هنا تسلطن على العلماء...
وحُقّ له أن يتسلطن!!!

عَصْرٌ يَمُوجُ...

بأفذاذ العلماء...

مَوْجًا...!؟

لم يكن العِزّ بذعًا من العلماء ...
بل كان أحد أفذاذ العلماء في عصره ...
ذلك أنه نشأ في النصف الأخير من القرن السادس ... - ٥٧٧ هـ -
ومات في منتصف القرن السابع - ٦٦٠ هـ ...
عاش نحوًا من ٨٣ سنة ... في عصر يموج بالعلم موجًا ...

محيي الدين النووي

كان معاصرًا لقطب من أقطاب العلم ... محيي الدين النووي ٦٣١ هـ -
٦٧٦ هـ ...
وللنوّوي جملة من المؤلفات ... تعتبر في طبعة المؤلفات الدينية في
الفقه والحديث ... وهي أسس ودعائم في فقه الشافعية ...

ابن دقيق العيد

وكان العزّ معاصراً لأحد رجال العصر البارزين الممتازين في نواحي
علمية وأدبية ويعتبر أحد الأئمة المجتهدين ...
وهو قاضي القضاة ... العالم العامل الراوية الخطيب الأديب ...
الكاتب الشاعر المؤلف الفقيه ... الورع الزاهد العفّ ...
أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي
الطاعة ... القشيري ... المعروف بابن دقيق العيد ...
وُلد ٢٥ شعبان عام ٦٢٥ هـ ... وتوفي ١١ صفر عام ٧٠٢ هـ .

ابن دقيق العيد ... كان تلميذا للعزّ بن عبد السلام !!!

وفي مقدمة شيوخه : عز الدين بن عبد السلام ... الفقيه المجتهد ...
ونشعر أن ابن دقيق ... كان أئبه تلاميذ الشيخ ... ووارث علمه
 واجتهاده وتقواه ... ويعتبره بعضهم « العالم المبعوث على رأس
السبعائة ... » وينسبون إليه كرامات كثيرة ...
قالوا عنه : كان للعلوم جامعاً ... وفي فنونها بارعاً !!!

ابن تيمية

ومن معاصريه ... أي العزّ بن عبد السلام ...
تقي الدين بن تيمية الحراي - ٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ ...

الذي شغل الناس في عصره... وانقسموا فيه إلى فريقين: متعصب
له... ومتعصب عليه...
وأوقد بوجوده حركة فكرية جلية... كان له فيها الأنصار
الأخيار... والأعداء الألداء...
وهو لا يبالي وسط ذلك كله إلا بالحق الذي يعتقده...
غير عابئ بالكائدين يكيدون له... ولا بالسجن يقذف فيه...
وُلد ابن تيمية ١٠ ربيع الأول عام ٦٦١ هـ...
أي بعد موت العزّ بن عبد السلام بأيام...
وعاش نحوًا من سبع وستين سنة...
وتوفي في سجنه بدمشق ٢٠ ذي القعدة عام ٧٢٨ هـ...
وكان العالم الإسلامي حينئذٍ يموج موجًا بما فيه من طوائف تختلف في
عقائدها اختلافًا أدى بها إلى التحاقد والتابذ والتفرق...
فمن شيعة ذات شعب وفرق...
وجهمية... ومعتلة... ومن أشاعرة... وصفاتية...
ومن مبتدعة حنابلة... وصوفية...
إلى غير هؤلاء وهؤلاء... وكل حزب بما لديهم فرحون!!!
وأمام هؤلاء عدوان لدودان... يكيدان للدين... ويتربصان
بالمسلمين...
هما التتار الوثنيون بالشرق...
والفرجة المسيحيون المتعصبون بالمغرب...
وكان للعقائد المذهبية والاختلافات الدينية في تلك العصور
الوسطى... أثرها الهام في صلب الأفكار والعقول... والأخذ بناصية
النفوس وتوجيهها وجهات خاصة...
ومن ثم أصبح لهذه العقائد والمذاهب أثرها الأول البارز في سياسة

الشعوب ... وعلاقات بعضها ببعض ... وعلاقة كل طائفة في الشعب
الواحد بغيرها من الطوائف ...
رأى ابن تيمية ما رأى من حال قومه ... فاقسم أن يبذل قصاره في
نشر الحق ... لا يهمه من دنياه إلا كلمة يرضى عنها ربه ومولاه!!!

ابن قيم الجوزية

ومن معاصري العزّ بن عبد السلام ... شمس الدين بن قيم الجوزية -
٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ ...
أحد العلماء الأعلام ... الذين كشف الله عن بصيرتهم ... وآتاهم من
العلم حظا عظيما ...
وليس في علماء ذلك العصر من هو أقرب شبهاً بابن تيمية ... من
تلميذه ابن القيم ...
تناول كأس العلم من يده ... ولازمه زمنا طويلا ... وابتلي مثله
بكثير من الأعداء كما ابتلي ...
وسجن مرارا كما سجن ...
ومن بينها مرة سجن فيها بسببه ... وهي آخر مرة سجن فيها ابن
تيمية ... بقلعة دمشق ...
فسجن كذلك ابن القيم في ناحية بعيدة عن أستاذه ...
ولم يطلق سراحه الا بعد وفاة ابن تيمية!!!
قال ابن حجر عنه: «اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة ...
بعد أن أهين ...
«وطيف به على جل ... مضروبا بالدرة»!!!

وتعتبر حركة ابن القيم تنمة لحركة شيخه... في تحرير الفكر
والرأي... وفي الدعوة إلى عقيدة السلف!!!

تقي الدين السبكي

ومن معاصري العزّ بن عبد السلام...
تقي الدين السبكي - ٦٨٣ هـ - ٧٥٦ هـ .
علم من أعلام مصر... وأحد أئمة العصر... جهيد فقيه... اجتمع
فيه الذكاء والزهادة... والورع والعبادة!!!
الناس يقولون فيه: ما جاء بعد الغزالي مثله!!!

★ ★ ★

ماذا أريد أن أقول؟!
أريد أن أثبت أن العزّ بن عبد السلام... كان فارسا من
فرسان... وعالما من علماء... ذلك الزمان!!!
لم يكن عصره عقيما... بل كان ولودا للعلماء...
وكان العزّ بن عبد السلام... فارسا من هؤلاء الفرسان...
وكان المجتمع للدين تأثير عليه كبير...
وكان لعلماء الدين تبعاً لذلك على الناس تأثير خطير...
فإذا سمعت عجيبة من عجائب العزّ... فاعلم أنها ترجع إلى سبيل:
الأول... عبقرية العزّ بن عبد السلام... وإخلاصه لله...
الثاني... تعظيم الدولة والأمة لدينها... ولكل ما يتصل بالدين من
قريب أو بعيد!!!

نحن اليوم...
في أشد الحاجة...
إلى العزّ بن عبد السلام...؟!!

ضجيج وعجيج!!!
صُراخ مستمر... في الصحافة... في الإذاعة... في التلفزيون...
في أشرطة التسجيل... في الفيديو... على المنابر... في الاذاعات
العربية... والعالمية...
قرآن يُتلى في كل مكان... وكل زمان... وكل آن...
أحاديث نبوية تُقرأ... وتُسمع...
أبحاث اسلامية لكبار العلماء والمفكرين... على صفحات الصحف
اليومية والأسبوعية والشهرية...
مسابقات في تحفيظ القرآن... وحفلات وجوائز...
ملايين تتزاحم على المساجد في صلاة الجمعة... لا تكاد تجد موقعا
لقَدَم...
ملايين من الذاكرين والذاكرات... والمتدينين والمتدينات...
ملايين من المحجبات والمنقبات والخائعات...
وملايين من الشباب يُرسل لُحاه في وقار...
كل أولئك هل هو ظاهرة اسلامية صحية...
أم ظاهرة مرضية؟؟!

وأجيب عن هذا السؤال الخطير في صراحة لا حياء فيها ... حيث
لا حياء في الدين ...

فأقول: لو كانت هذه الظواهر الاسلامية ظواهر صحيحة ...
لأثمرت مجتمعا فاضلا منتظما على الحق والعدل والمساواة ...
ولكن الواقع أن هذه الظواهر لا ثمرة لها في الواقع ...
فمجتمعاتنا مجتمعات متخلفة في كل شيء ...
متدهورة في واقعها تدهورا رهيبا ...
إذا هذا الضجيج والعجيج الاسلامي ... لا يدل على حقيقة
اسلامية ...

إذا هو ظاهرة مرضية ... وليس ظاهرة صحية !!!
ما جدوى ملايين الصلوات اذا لم تنه عن الفحشاء والمنكر !!؟
ما جدوى ملايين المحجبات اذا لم تثمر ملايين الأسر الإسلامية
المنتظمة على الاسلام !!؟
ما جدوى الاهتزاز بحفظ القرآن اذا لم يثمر تطبيقا للقرآن في واقع
الحياة !!؟

ما جدوى ثروة الخطباء في عظمة الاسلام اذا لم يكن هؤلاء
الخطباء نماذج لتطبيق ما فيه يثرثرون !!؟
اذا نظرت ثم نظرت الى ما نحن فيه من ضجيج وعجيج عبادي
ظننت أن مجتمعاتنا مثال فريد للإسلام ... فإذا نظرت الى الواقع
صدفت واكتأبت وتيسنت !!!
إن ما نحن فيه من افتعال مظاهر اسلامية ... هو دليل على ما نحن
فيه من كذب وبهتان !!!

ما كان أسلافنا الأخيار ثرثارين ولا متفقيهن ولا متنطعين ...
ولكن كانوا فعّالين ... وقّافين عند حدود الله ...

ولكن حالنا كلام في كلام في كلام!!!
علماء اليوم... أبرع مَنْ يتكلم في فنون الدين... وبدائع
الشريعة...

فإذا ما نظرتَ الى واقعهم... هل ناضلوا لتطبيق ما يقولون في
واقع الحياة؟!!!

تكاد لا تجد منهم أحداً!!!
ومن هنا تمس الحاجة اليوم... الى مثل العزّ بن عبد السلام...
تمس الحاجة الى علماء أبطال مناضلين...
شعارهم المقدس:

« لو وضعوا الشمس في يميني...
« والقمر في يساري...
« على أن أترك هذا الأمر...
« حتى يظهره الله...
« أو أهلك فيه... ما تركته...!!!»
فإن قالوا: وأنتى لنا شجاعة رسول الله... ﷺ؟!
قلنا لهم:

كونوا.. العزّ بن عبد السلام؟!!! شعاره إمّا أن ينزل الإسلام...
الى واقع حياتنا... في كل صغيرة وكبيرة... من شئوننا...
وإمّا هلكنا جميعاً دفاعاً عنه... حتى يظهره الله... أو نهلك
دونه!!!

ها هنا عظمة العزّ بن عبد السلام الحقيقية...
ليست في علمه... فما أكثر العلم... وقد تستطيع القواعد من
النساء...

وليست في فقهه... فالفقه مسائل تُدرس وتُلقى... وتُلقن...

ولكن في كلمة الحق... في اعلاء كلمة الله...
والاستعداد للموت في سبيل اعلانها...
« مَنْ قَاتِلٌ لَتَكُونَ...
« كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا...
« فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...!!!

عبقرية...
الفقر...؟!!

مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :
﴿ ... رَبِّ ... إِنِّي لِمَا أُنزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾^(١) ...
يتشعشع ناموس إلهي ... على الغاية من الخطورة ... وعلى الغاية من
الجمال ...
أَنَّ الْفَقْرَ مَنَاجِزُ الْعِبَادَةِ ...
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ الْفَقْرَ ... مِنَ الصَّعْبِ جَدًّا أَنْ يَكُونَ عِبْقَرِيًّا ...
اسْتَمِعْ فِي هَذَا إِلَى قَوْلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٢) .
جَمِيعُ النَّاسِ فُقَرَاءٌ ... أَيُّ مَحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يُعِينُهُمْ ...
هُمْ مَخْلُوقُونَ فُقَرَاءٌ ... وَتِلْكَ هِيَ حَقِيقَتُهُمْ ...
وَيَكْفِي فِي هَذَا أَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ عَارِيًّا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا
وَلَا يَسْتَطِيعُ شَيْئًا ...
ثُمَّ تَأْتِي غَاشِيَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَتُحْجَبُ عَنِ الْإِنْسَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ ...

(١) سورة القصص، آية ٢٤ .

(٢) سورة فاطر، آية ١٥ .

فيتوهم من غبائه ... وما أكثر الأغبياء ... أنه استغنى !!!
وها هنا يأتي دور المطارق ... فيضرب بمطارق البلايا والمحن ...
ليتنبه الى حقيقته التي غاب عنها ...
أنه ولد فقيرا ... ويعيش فقيرا ... ويموت فقيرا ...
تلك هي حقيقة كل انسان ...
والناس في فهم هذه الحقيقة درجات ...
الأنبياء في الذروة ... يعلمون ويوقنون أنهم دائما فقراء الى الله ...
مهما أوتوا ... لأنهم لا يملكون مما أوتوا شيئا في الحقيقة !!!
ثم الأمل فالأمل !!!
والافتقار الى الله ... هو أعلى انواع الفقر على الإطلاق ...
تأمل في هذا قول الكليم عليه السلام: ﴿ربِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ
خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .
إنه هنا يشعر تمام الشعور أنه فقير الى الله تمام الفقر ... وأنه في
حاجة الى الله تمام الحاجة !!!
ولما كانت الأسباب هي الحجب الغليظة التي تحجب الحقيقة عن
الانسان ...
وأشد هذه الاسباب حجباً للانسان هو المال ... كان من الضروري
ازالة هذا المال ... لتشرق الحقيقة أمام عيني الانسان ...
ولما كان العباقر ... تركيياً من الآدميين سوف يوكل اليه قيادة
البشر ...
كان من الضروري مرورهم على تجربة الفقر ... ليحترقوا بناره ...
ويذوقوا مرارة الحياة ... وآلام الحاجة ... فإذا ما رُفِعوا الى مقام
الإمامة ... أحسَّوا بآلام الفقراء ... وأوجاع الجماهير !!!
فإذا ما جئنا الى العزّبن عبد السلام ... وجدناه صبيّاً يتقلب في

أشواك الفقر الشديد ...

قالوا :

« وقد فتح العز بن عبد السلام عينيه على حياة الحرمان ...

« كان أبوه عبد السلام فقيرا ... جهد الفقر ...

« وكان يجوب الأسواق بحثا عن عمل ...

« وحين شب الطفل صحبه أبوه ليساعده في بعض الأعمال الشاقة ...

كإصلاح الطرق ... وحمل الأمتعة ... وتنظيف ما أمام محلات

التجار « !!!

انظر؟! ...!

ابوه يجوب الأسواق بحثا عن عمل ... يعني في حالة بطالة إلا أن

يجد عملا !!!

ثم ماذا يعمل الطفل عبد العزيز؟! ... يساعده أباه في الأعمال

الشاقة ... كإصلاح الطرق ... وحمل الأمتعة ... وتنظيف ما أمام

محلات التجار من أوساخ؟! !!

الأب لا يجد عملا ... والابن يعمل كناسا أحيانا ... وشيئاً

أحيانا !!!

أحقر الأعمال يعمل فيها الابن عبد العزيز؟! !

لماذا؟! ... لأنه لولا هذا ما كان العز بطلا يقارع السلاطين

والأمراء !!!

نشأة شديدة ... يواجه فيها الطفل قسوة الحياة ... ووجه الحياة

الكالح القبيح ...

فلا شيء بعد ذلك يخيفه ... لأنه كان يعيش تحت الصفر ... فماذا

يمكن أن يفعلوا به أشد مما كان فيه؟! !!

وقالوا :

« مات أبوه فلم يجد في نفسه القوة على القيام بالأعمال الشاقة التي كان يؤديها أبوه... »

« ولم يجد الصبي مكانا يأوي إليه!!!
« فذهب الى الشيخ يلتمس عنده المساعدة في الحصول على عمل
يقتات منه... ومكان يبيت فيه... »!!!
فكر في هذا طويلا... الطفل لا يجد عملا... ولا مكانا يبيت
فيه... »

اي أنه جائع... عاطل... لا مأوى له!!!
لماذا هذا؟!... لأن المراد أن يكون في المستقبل بطلا... والبطولة
لا تأتي إلا من الشدة!!!

« وتوسط له الشيخ فألقوا الصبي بالجامع الأموي...
« يساعد الكبار في اعمال النظافة...
« وفي حراسة نعال المصلين وأهل الحلقات التي يتركونها عند أحد
أبواب الجامع...
« وسمحوا له بأن ينام الليل في زاوية بأحد دهاليز الجامع... على
الرخام »!!!

هكذا نشأ العز!!!
طفل جائع... يعمل مساعد فراش... حارساً للنعال... ينام على
الرخام في أحد دهاليز الجامع!!!
وقالوا:

« وتسلل إلى إحدى الحلقات ذات يوم... ودس جسده النحيل
الصغير بين الطلبة الكبار... »

« ورآه شيخ الحلقة... فنهره... وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس
بشوب ممزق في مجلس للعلم ينبغي على الطالب فيه أن يأخذ زينتته؟! »

« وجرى الصبي الى باب المسجد ... وتكوّر على نفسه يبكي !!!
« حتى إذا حان خروج الشيوخ والطلاب ... رآه الشيخ الذي ألحقه
بالجامع وهو الفخر بن عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعي ...
« وسأله الشيخ عما يبكيه ؟ ..
« فروى له ما كان من أمره ...
« فطيب الشيخ خاطره ... ووعدته أن يتعهده ... وسيحضر الحلقات
عندما يبلغ الشباب !!!
وهكذا نشأ العزّ ... نشأة الأبطال !!!
وقالوا :
« ومحدثنا السبكي في طبقات الشافعية ... فيقول :
« كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرا جدا ... ولم يشتغل إلا
على كبر ...
« وسبب ذلك انه كان يبيت في كلاس (زاوية) من جامع دمشق ...
« فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتم ...
« فقام مسرعا ونزل في بركة الكلاسة ... فحصل له ألم شديد من
البرد ...
« وعاد فنام ... فاحتم ثانيا ...
« فعاد الى البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج ...
« فطلع فأغمي عليه من شدة البرد ...
« ثم سمع النداء : « يا ابن عبد السلام ... أتريد العلم أم العمل ؟ ...
« فقال : بل العلم لأنه يهدي إلى العمل !!!
إنّ الطفل هنا يتقلب في مرارة الحرمان ... وآلام الحاجة !!!
« وأصبح الفتى عز الدين ... فروى لشيخه ابن عساكر ما كان من
أمر تلك الليلة ...

« وقال الشيخ له: لقد بلغت مبلغ الرجال... وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك ان تهب نفسك للعلم!!! »

بدء ظهور عبقرية الفقر؟!

« وأعطاه الشيخ كتاب «التنبيه» في الفقه الشافعي... وأعطاه أسبوعين مهلة ليحسن قراءته واستيعابه..
« وعاد العزّ الى شيخه بعد ثلاثة أيام وقد استوعب الكتاب... وحفظه عن ظهر قلب..!!! »
لقد بدأت مرحلة ظهور عبقرية الفقر...
لا لأن الفقر وحده كافٍ لإحداث العبقرية... ولكن لأنه يُفَجِّر العبقرية إن كانت مكنونة في تكوين انسانٍ ما...

الاستاذ يُوجِّه التلميذ؟!

« وضمه الشيخ الى حلقاته...
« ونظم له حضور حلقات أخرى في اللغة وآدابها... وفي الحديث وأصول الفقه...
« ونصحه أن يتقن علوم اللغة من نحو وصرف... وأن يحفظ الشعر ويدرسه ليحسن فهم نصوص القرآن...
« وكان العصر زاخرا بكثير من المعارف... ولكن الشيخ ابن

عساكر نصبح تلميذه الا يهتم من كل تلك العلوم الا بما يعين على فهم
القرآن»!!!

اقول... هذه هي نشأة العزّ...
نشأ فقيرا لا يجد قوت يومه...
إلا أن العبقرية كانت مكنونة في أعماقه...
فلما صادفت المفجّر تفجّرت... في المشارق والمغارب!!!
فليس الفقر هو منشئ عبقرية العزّ... ولكن الفقر هو الذي
فجّرها تفجيرا!!!

الطفل عزّ الدين ...
يعاصر بطولات ...
البطل صلاح الدين ...؟!

كان الطفل ... العزّ ... بن عبد السلام ... ابن ست سنين ... حين
سمّعهم جميعاً يتحدثون عن انتصار المسلمين ... بقيادة البطل
الأسطوري ... صلاح الدين ... على الصليبيين ...
في معركة « حطين » ...

ثم توجّ انتصاراته الخارقة ... بفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هجرية ...
لقد وُلد العزّ في سنة ٥٧٧ هـ ... فلما بلغ السادسة من عمره ...
سمع الخاصة والعامة من حوله يتحدثون بتلك الخارقة ... وذلك
النصر الحاسم ... الذي دَمَّرَ قوات الصليبيين في معركة حطين ... ثم
أجهز عليهم في فتح بيت المقدس ...
إلا أنَّ أحدًا لم يكن يلتفت إلى ذلك الطفل المسكين ... وهو يسمع
إلى أحاديث الناس ... يروون في فخار بطولات صلاح الدين ... قاهر
الصليبيين ...

فكيف كانت تلك الأحداث التي انتهت إلى ذلك النصر العظيم؟!

المعركة العظمى ... حطين؟!!

صلاح الدين يأمر بالتعبئة العامة؟!!

يعتبر عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م ...

عام الفصل بين المسلمين والفرنجة ... وعام النصر العزيز ...

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد، يستنفر الناس للجهاد ...

وكتب إلى الموصل ... وديار الجزيرة ... وإربل ... وغيرها من بلاد الشرق ...

وكتب إلى مصر ... وسائر بلاد الشام ... يدعوهم إلى الجهاد ... ويحثهم عليه ... ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان ... إنها الحرب المقدسة ...

وانه صلاح الدين!!!

البطل يخرج؟!!

ثم خرج من دمشق ... أواخر المحرم ... في عسكرها، وقواتها الخاصة، فسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به العساكر الشامية

فلما اجتمعوا، جعل عليهم ولده ... الملك الأفضل عليّ ... ليجتمع إليه من يرد إليه منها ...

وسار البطل إلى بصرى ... في فرقة من الجيش ... وكان سبب مسيره وقصده إليها ... أنه أته الأخبار أن البرنس أرناط ... صاحب الكرك ... يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ...

وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج ... يرجع إلى طريق الجيش

المصري ... يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدين ...
فسار إلى بصرى ... ليمنع البرنس أرناط ... من طلب الحجاج ... ويلزمه
بلده خوفاً ...
وكان من الحجاج جماعة من أقارب صلاح الدين ... منهم محمد بن
لاجين ... وهو ابن أخت صلاح الدين ... وغيره ...

رعب أصاب أرناط؟!!

فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلاده لم يفارقه!!!
وانقطع عما طمع فيه ... فوصل الحجاج سالمين!!!
فلما وصلوا ... وفرغ سره من جهتهم ... سار صلاح الدين إلى الكرك ...
وبث سراياه من هناك ... على ولاية الكرك والشوبك وغيرها ... فغنموا
وخربوا وأحرقوا .
والبرنس محصور ... لا يقدر على المنع عن بلده ...
وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم ... خوفاً من الجيش الذي مع ولده
الأفضل ...
فتمكن من الحصار والنهب والحريق والتخريب ...
هذا تكتيك البطل ... لإشاعة الرعب في الأعداء ... وتحطيم أعصابهم!!!

أمر من البطل بتخريب عكا؟!!

ثم أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل ... يأمره أن يرسل فرقة من
الجيش ... إلى بلد عكا ... ينهبونه ويخربونه ...
فسير فريقاً من أكابر الأمراء ...

فساروا ليلاً... وأصبحوا في صفورية...
فخرج إليهم الفرنج... في جمع من الداوية والاسبتارية (فرسان المعبد
والكنيسة) وغيرهما...
فالتقوا هناك...
وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود...
ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين...
فانهزم الفرنج... وقتل منهم جماعة... وأسر الباقون!!!
وكان فيمن قُتل... قائد الاسبتارية... وكان من فرسان الفرنج
المشهورين... وله نكايات عظيمة في المسلمين!!!
واستولى المسلمون على ما جاورهم من البلاد... وغنموا وعادوا سالمين...
وكان عودهم على طبرية... وعلى رأسها ريموند... فلم ينكر ذلك فكان
فتحاً كبيراً!!!

البطل يستعرض الجيوش؟!!

لما أتت صلاح الدين البشارة... بهزيمة الاسبتارية والداوية... وهم فرسان
المعبد والكنيسة الأشداء... وقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر...
عاد من الكرك إلى الجيش الذي مع ولده الملك الأفضل...
وقد تلاحقت سائر القادة والجيوش... واجتمع بهم... وساروا جميعاً...
واستعرض الجيوش... فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس... سوى
المتطوعة!!!

فعبأ جيشه قلباً وجناحين... وميمنة وميسرة... ورماة وساقة...
وعرف كل منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازمته...
وسار البطل على تعبئة...

فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية...
وتشعشع من فوقهم قوله ﷺ :
« لا يهزم اثني عشر ألفاً من قلة » ١١١

ريموند ينقض المعاهدة!؟

وكان القمص ريموند قد انتمى إلى صلاح الدين... كما ذكرنا...
فلما رأى الفرنج الجيوش الإسلامية، وتصميم العزم على قصد بلادهم...
أرسلوا إلى ريموند... البطرك والقسوس والرهبان وكثيراً من الفرسان...
فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين...
وقالوا له: لا شك أسلمت ١١٢... وإلا لم تصبر عن فعل المسلمين أمس
بالفرنج... يقتلون الداوية والاستبارية... ويأسرونهم... ويحتازون بهم
عليك... وأنت لا تنكر ذلك ١١٢
ووافقهم على ذلك من عنده من جيش طبرية وطرابلس...
وتهدده البطرك، أنه يحرمه، ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من
التهديد...

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر عليه، خاف واعتذر وتنصل وتاب...
فقبلوا عذره، وغفروا زلته، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين...
والمؤازرة على حفظ بلاد الفرنج...
فأجابهم إلى المصالحة... والانضمام إليهم... والاجتماع بهم...
وسار معهم إلى ملك الفرنج... ملك بيت المقدس...
 واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ١١١
وجعوا فارسهم وراجلهم... ثم ساروا من عكا إلى صفورية...
وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، قد ملئت قلوبهم رعباً ١١١

مؤتمر عسكري برئاسة صلاح الدين ؟!

لما اجتمع الفرنج... وساروا إلى صفورية...
جمع القائد الأعلى البطل صلاح الدين قواده واستشارهم...
فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء... وأن يضعف الفرنج بشن الغارات،
وإخرا ب الولايات، مرة بعد مرة...
فقال له بعض قواده: الرأي عندي أننا نجوس بلادهم، وننهب ونخرب
ونحرق ونسي... فإن وقف أحد من جيش الفرنج بين أيدينا لقيناه... فإن
الناس بالشرق يلعنونا ويقولون: ترك قتال الكفار، وأقبل يريد قتال
المسلمين!!، والرأي أن نفعل فعلًا نعذر فيه، ونكف الألسنة عنا...
فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقي بجمع المسلمين جمع الكفار،
فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا،
ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد!!!

البطل يصطف للمعركة ؟!

فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره...
وصعد جبلها... وتقدم حتى قارب الفرنج...
فلم يرَ منهم أحدًا!!!
ولا فارقوا خيامهم!!!
فنزل وأمر الجيش بالنزول...
فلما جت الليل، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال...
ونزل بفرقة إلى طبرية... وقاتلها... ونقب بعض أبراجها... وأخذ المدينة
عنوة في ليلة!!!

ولجأ من بها إلى القلعة التي لها ... فامتنعوا بها ... وفيها صاحبها ومعها أولادها ...

فغنم ما في المدينة وأحرقها ...

فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية ... وملكه المدينة، وأخذه ما فيها وإحراقها، وإحراق ما تخلف مما لا يحمل ...

اجتمعوا للمشورة ...

فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من طبرية ...

أرناط يسخر من ريموند؟!

فقال القمص ريموند: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين ما فعل ... وبقي القلعة وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود ...

«فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا الجيش الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة!!!»

وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقتها وعاد منها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع جيشه، ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها، ونفك من أسر منّا ..

فقال له برنس أرناط ... صاحب الكرك: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريد لهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا؟! . وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب!!!

فقال: أنا واحد منكم، إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون.

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم ...

فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه... وقربوا من جيش الإسلام!!!
وأفلح صلاح الدين... في استخراجهم من مكانهم... واستدراجهم
للقتال!!!

الليلة الفاصلة؟!!

فلما سمع صلاح الدين بذلك... عاد من طبرية إلى جيشه، وكان قريباً
منه...

وإنما كان هدفه بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم، ليتمكن من
قتالهم!!!

وتلك عبقرية من البطل... أن يستخرج عدوه إلى المكان الذي يريده!!!
وكان المسلمون قد نزلوا على الماء... والزمان قيظ شديد الحر...
فوجد الفرنج العطش...

ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين...
وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج... ولم يتمكنوا من الرجوع
خوفاً من المسلمين...

فبقوا على حالهم إلى الغد... وهو يوم السبت... وقد أخذ العطش
منهم...

وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم... وكانوا من قبل يخافونهم... فباتوا
يحرص بعضهم بعضاً...

وقد وجدوا ريح النصر والظفر...
وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان... زاد
طمعهم وجراتهم...

فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم...

ورتب السلطان تلك الليلة الرماة... ورتب فيهم النشاب!!!

المعركة الكبرى ... حطين؟!!

أصبح البطل صلاح الدين... والمسلمون يوم السبت... لخمس بقين من ربيع الآخر...

فركبوا... وتقدموا إلى الفرنج!!!

الله... الله... إن الفرسان يتقدمون للموت... وعلى رأسهم البطل!!

فركب الفرنج...

ودنا بعضهم من بعض...

إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش... وانخذلوا...

فاقتتلوا...

واشتد القتال...

وصبر الفريقان...

ورمى رماة المسلمين من النشاب... ما كان كالجراد المنتشر...

فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً...

أما الفرنج... فقد جمعوا نفوسهم... براجلهم... وهم يقاتلون... سائرين نحو طبرية... لعلهم يردون الماء!!!

فلما علم صلاح الدين مقصدهم... صدهم عن مرادهم...

ووقف بالعسكر في وجوههم!!!

البطل يحرض جنوده؟!!

وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم... ويأمرهم بما يصلحهم... وينهاهم عما يضرهم...

والناس يأتمرون لقوله، ويقفون عند نهيه!!!

منظر خالد... البطل... في ملابس الميدان... يتنقل بين صفوف
جيوشه... على صهوة جواده... وألوف الفرسان من المسلمين... على صهوات
خيولهم...

كل ينتظر... إحدى الحسين... إما النصر... وإما الشهادة!!!
إن صلاح الدين... ما هنا أعظم داعية... إلى الله...
إنه الفارس الأعظم...

يخاطب الفرسان... في صفوفهم!!!
ما أجل هذا!!

ما أعظم هذا!!

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيَّانٌ
مَرْصُوصٌ﴾^(١)!!!
ثم ماذا!!

الالتحام!!؟

فحمل مملوك من مماليكه الصبيان... حملة منكرة على صف الفرنج...
فقاتل قتالاً عجب منه الناس...
ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه!!!
فحين قُتل... حل المسلمون حملة منكرة... ضعضعوا الكفار... وقتلوا
منهم كثيراً...

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر... علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين..
فاتفق هو وجماعة... وحلوا على من يليهم...
وكان قائد المسلمين في تلك الناحية... تقي الدين عمر... ابن أخي

(١) سورة الصف، آية ٤.

صلاح الدين ...
فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب ... علم أنه لا سبب إلا الوقوف في
وجوههم ...
فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه ...
وكان بعض المتطوعين قد ألقى في تلك الأرض ناراً ...
وكان الحشيش كثيراً ... فاحترق ...
وكانت الريح ... فحملت حرّ النار والدخان إليهم !!!
فاجتمع عليهم العطش ...
وحرّ الزمان ...
وحرّ النار والدخان ...
وحرّ القتال !!!
فطلعت الشمس على وجوه الفرنج ... واشتد الحرّ، وقوي بهم العطش ...
وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيماً ...
وكان ذلك عليهم مشئوماً ...
فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط ...
فرموه ... فتأجج ناراً ... تحت سنابك خيولهم ...
فاجتمع عليهم حرّ الشمس ... وحرّ العطش ... وحرّ النار ... وحرّ
السلاح ... وحرّ رشق النبال !!!
فلما انهزم القمص ريموند ... سقط في أيديهم ... وكادوا يستسلمون !
ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ...
فحملوا حملات متداركة ...
كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم من مواقعهم ... لولا لطف الله بهم
إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون ... إلا وقد قتل منهم ...
فوهنوا لذلك وهباً عظيماً !!!

البطل يأمر بالتكبير والهجوم؟!!

ثم أمر السلطان بالتكبير... والحملة الصادقة...
فأحاط بهم المسلمون... إحاطة الدائرة بقطرها...
فارتفع من بقي من الفرنج... إلى تل... بناحية « حطين »...
وأرادوا أن ينصبوا خيامهم... ويحموا نفوسهم به...
واشتد القتال عليهم من سائر الجهات...
ومنعوا عما أرادوا...
ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير!!!
وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم... الذي يسمونه « صليب الصليبوت »..
ويذكرون أن فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح عليه السلام!!!
فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم... وأيقنوا بعده بالقتل
والهلاك....

هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ومشاتهم!!!
فبقي الملك على التل... في مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان
المشهورين... والشجعان المذكورين!!!

البطل يسجد لله شكرًا؟!!

فحكى عن الملك الأفضل - ولد صلاح الدين - قال:
« كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهده،
« فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة
على من بإزائهم من المسلمين، حتى أحرقوهم بوالدي. قال:
« فنظرت إليه، وقد علت كآبه، واربد لونه، وأمسك ببلجيته، وتقدم
وهو يصيح « كذب » الشيطان.

« قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل...
« فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من
فرحي: « هزمناهم »!!!
« فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، ألحقوا المسلمين
بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً.
« وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً
« هزمناهم »!!!
« فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك
الخيمة.

« قال: فهو يقول لي... وإذا الخيمة قد سقطت »!!!
فنزل السلطان...
وسجد شكراً لله تعالى...
فبكى من فرحه...
وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات، ازدادوا عطشاً...
وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه...
فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً...
فنزلوا عن دوابهم... وجلسوا على الأرض...
فصعد المسلمون إليهم...
فألحقوا خيمة الملك...
وأسروهم عن بكرة أبيهم...
وفيهم الملك... وأخوه...
والبرنس أرناط صاحب الكرك... ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة
للمسلمين!!!

٣٠٠٠٠ قتيل و٣٠٠٠٠ أسير!؟

وأسروا أيضاً صاحب جبيل... وابن همفري... وقائد الداوية... وكان
من أعظم الفرنج شأناً...
وأسروا أيضاً جماعة من الداوية... وجماعة من الاسبتارية...
وكثر القتل والاسر فيهم...
فكان من يرى القتل لا يظن أنهم أسروا واحداً...
ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً!!!
فقتل منهم ثلاثون ألفاً من ذلك اليوم...
وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم!!!
وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل... وهو سنة ٤٩١ هـ... إلى
الآن بمثل هذه الواقعة...

البطل يضرب عنق أرناط!؟

فلما فرغ المسلمون منهم... نزل صلاح الدين في خيمته...
وأحضر ملك الفرنج عنده... وبرنس صاحب الكرك...
وأجلس الملك إلى جانبه... وقد أهلكه العطش... فسقاه ماء مثلوجاً...
فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب...
فغضب السلطان، وقال له: إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه... هذا لا
عهد له عندي...
ثم تحول السلطان إلى خيمة... داخل تلك الخيمة...
واستدعى بأرناط صاحب الكرك...
فلما أوقف بين يديه... قام إليه بالسيف، ودعاه إلى الإسلام... فامتنع...

فقال له: نعم... أنا أنوب عن رسول الله... ﷺ... في الانتصار
لأمته...

ثم قتله... وأرسل برأسه إلى الملوك... وهم في الخيمة.
وقال: إن هذا تعرض لسبّ رسول الله... ﷺ... وكنت نذرت دفعتين
أن أقتله إن ظفرت به... إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة... والثانية
لما أخذ القافلة غدراً...

فلما قتله... وسُحب وأخرج... ارتعدت فرائص الملك...
فسكن جأشه وأمنه...

ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى... من الداوية والاسبتارية..
وأما القمص... صاحب طرابلس... فإنه لما نجا من المعركة، وصل إلى
صور... ثم قصد طرابلس...

ولم يلبث إلا أياماً قلائل، حتى مات غيظاً وحنقاً... مما جرى على
الفرنج...

وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفاً... قتل نحواً من نصفه... وأسر
الباقى!!!

فتح طبرية؟!!

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج... توجه إلى طبرية ونازلها...
فأرسلت صاحبته... تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها وما لها...
فأجابها إلى ذلك...

واستولى على طبرية!!!

وهكذا النصر... يدفع إلى النصر!!!

فتح عكا؟!

لما فرغ صلاح الدين من طبرية... سار عنها إلى عكا...
فبينما هو ينظر من أين يزحف عليها... إذ خرج كثير من أهلها يضرعون
ويطلبون الأمان...
فأجابهم إلى ذلك... وأمنهم على أنفسهم وأموالهم...
وخبرهم بين الإقامة والرحيل...
فاختاروا الرحيل...
ودخل المسلمون إليها... وصلوا بها الجمعة...
وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي... بعد أن ملكه
الفرنج...
وهكذا بانهار القوة العظمى للصليبيين في معركة حطين... بدأت البلاد
التي كانت بأيديهم تنهاوى بدون مقاومة تستحق الذكر.... في أيدي صلاح
الدين!!!

فتح المجدل؟!

لما هزم صلاح الدين الفرنج... أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره
بذلك... ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من
الجيش... ومحاصرة من يليه منها...
فسارع إلى ذلك... وسار عن مصر... فنازل حصن مجدل وحاصره وغنم
ما فيه...
وأرسل إلى صلاح الدين يبشره بذلك!!!

فتح يافا؟!

لما خرج العادل من مصر... وفتح المجدل... سار إلى مدينة يافا... وهي
على الساحل... فحاصرها واستولى عليها عنوة!!!

فتح صيدا؟!

ثم سار صلاح الدين إلى صيدا... فأخذها بغير قتال... وتسلمها ساعة
وصوله إليها!!!

فتح بيروت؟!

فلما فرغ من صيدا... سار عنها من يومه نحو بيروت...
وزحف المسلمون إليها مرة بعد مرة...
ثم أرسل أهلها يطلبون الأمان...
فأمنهم عن أنفسهم وأموالهم... ثم تسلمها!!!

فتح عسقلان؟!

لما استولى صلاح الدين على بيروت وغيرها... كان أمر عسقلان والقدس
أهم عنده... لأنه كان يفضل أن تتصل الولايات له، ليسهل خروج الجنود
منها ودخولهم إليها....

فسار عن بيروت نحو عسقلان...
وبعد قتال قليل... راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد...
فأجابهم صلاح الدين... وسلموا المدينة...

وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ... كما
طلبوا ...

ثم أقام بظاهرها ... وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ...
ففتحوا الرملة ... والداروم ... وغزة ... ومشهد إبراهيم الخليل عليه
السلام ... وبيت لحم ... وبيت جبريل ... والنظرون ...
وهكذا تساقطت بلاد الصليبيين ... وحصونهم ... وقلاعهم
واستوى البطل عليها ١١٩

الطفل عزّ الدين ...

يسمع عن بطولة ...

الناصر صلاح الدين ...

في فتح القُدُس ...؟!

لئن كانت قصة انتصار صلاح الدين على الصليبيين في معركة
حطين ... صارت حديث العالم كله ... شرقا وغربا ...
فإن أحداً لم يكن يتصور ... أن يواصل البطل صلاح الدين
انتصاراته ... فيفتح بيت المقدس ... المأوى الذي احتشد فيه الصليبيون
بمجموعهم وجيوشهم !!!
ولكن الذي حدث أن صلاح الدين فتح بيت المقدس ... ودخله
عزيزا ...
وكان الطفل العزّ بن عبد السلام ... يستمع الى أحاديث الناس ...
يروون أعاجيب ذلك الفتح ... ويحمدون الله على ذلك النصر ...
ما كان أحد يأبه لذلك الغلام المسكين ... فما قيمته وسط طوفان
انتصارات صلاح الدين ؟!
ومن يدري ... فرجا الأقدار ... تعد هذا الغلام ليكون هو الآخر
بطلاً !!!
ليس بطلاً عسكرياً ... ولكن بطلاً يحارب الظلم والفساد أينما
كان !!!
ولكن كيف كانت الأحداث التي انتهت بفتح بيت المقدس ؟!

البطل يفتح القدس؟!!

الأسطول المصري يحاصر القدس بحرًا؟!!

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد ...
أرسل إلى مصر ... ليخرج الأسطول الذي بها ... في جمع من المقاتلة ...
فخرج الأسطول المصري ... يقوده حسام الدين لؤلؤ الحاجب ...
وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقية ...
فأقاموا في البحر ... يقطعون الطريق على الفرنج ... كلما رأوا لهم مركبًا
غنموه ...
فحين وصل الأسطول، وخلا سره من تلك الناحية ...
سار البطل عن عسقلان ... إلى القدس !!!

الصليبيون يحتشدون في القدس؟!!

وكان بالقدس البطرك المعظم عندهم ... وهو أعظم شأنًا من ملكهم ...
وبه أيضًا باليان بن بيرزان صاحب الرملة ... وكانت مرتبته عندهم تقارب
مرتبة الملك ...
وبه أيضًا من خلص فرسانهم من حطين ...
وقد جمعوا وحشدوا ... واجتمع أهل تلك النواحي ... عسقلان وغيرها ...
واجتمع به كثير من الخلق ... كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك
المسلمون القدس ...

ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده، بعض ما يجب عليه من حفظه !!!
وحصنوه تلك الأيام، ما وجدوا إليه سبيلًا ...
وصعدوا على سورهم وحديدتهم ... مجتمعين على حفظه والدفاع

عنه ... بجهدهم وطاقاتهم ... مظهرين العزم على المناضلة بحسب استطاعتهم ...
ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ...

القضاء على داورية للمسلمين!؟

ولما قرب صلاح الدين منه ...
تقدم قائد في جماعة عن أصحابه ... غير محتاط ولا حذر ...
فلقيه جمع من الفرسان خرجوا من القدس ... ليكونوا حرساً ...
فقاتلوه وقاتلهم ... فقتلوه ... وقتلوا جماعة ممن معه ...
فأحزن المسلمين قتله ... وفجعوا بفقده ...

معركة القدس!؟

وساروا حتى نزلوا على القدس ...
فلما نزلوا عليه ... رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم ...
وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على
كثرة الجمع ...
وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة، لينظر من أين
يقاتله!؟

لأنه في غاية الحصانة والامتناع ... فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة
الشمال ... نحو باب عمود أو كنيسة صهيون ...
فانتقل إلى هذه الناحية ... في العشرين من رجب ... ونصب تلك الليلة
المنجنيقات ... فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ... ورمى بها ...
ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ... ورموا بها ...
وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس ...

كل واحد من الفريقين... يرى ذلك دينًا... وحتماً واجباً... فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني...

بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون... ويزجرون ولا ينزجرون... وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد... يقاتلون وبارزون... فيُقتل من الفريقين...

ومن استشهد من المسلمين... القائد عز الدين عيسى بن مالك... وهو من كبار القواد... وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم... فُقتل... وكان محبوباً إلى الخاص والعام...

فلما رأى المسلمون مصرعه، عظم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم... فحملوا حلة رجل واحد... فأزالوا الفرنج عن مواقعهم... فأدخلوهم بلدهم... ووصل المسلمون إلى الخندق... فجاوزوه... والتصقوا إلى السور فنقبوه...

وزحف الرماة يحمونهم... والمنجنيقات توالي الرمي... لتكشف الفرنج عن الأسوار... ليتمكن المسلمون من النقب... فلما نقبوه... حشوه بالمتفجرات...

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المنجنيقات بالرمي المتتابع... وتمكن النقب من النقب... وأنهم قد أشرفوا على الهلاك... اجتمع قوادهم يتشاورون، فيما يأتون ويذرون... فاتفق رأيهم على طلب الأمان... وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبارهم وأعيانهم في طلب الأمان!!!

صلاح الدين يرفض عرض الصليبيين!؟

فلما ذكروا ذلك للسلطان... امتنع من إجابتهم...
وقال: لا أفعل بكم، إلا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين
وتسعين وأربعمئة، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها.
فلما رجع الرسل خائبين محرومين... أرسل باليان بن بيرزان... وطلب
الأمان لنفسه... ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر...
فأجيب إلى ذلك...

وحضر عنده... ورغب في الأمان وسأل فيه...

فلم يجبه إلى ذلك...

واستعطفه فلم يعطف عليه...

واسترحه فلم يرحه...

فلما أيس من ذلك، قال له:

«أيها السلطان... اعلم أننا في هذه المدينة... في خلق كثير لا يعلمهم إلا
الله تعالى... وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان... ظناً منهم أنك تجيبهم
إليه كما أجبت غيرهم.

«وهم يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة.

«فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا

وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون
وتأسرون رجلاً ولا امرأة.

«وإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصحن والمسجد الأقصى وغيرها من

المواضع.

«ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير.

«ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه.

« ثم خرجنا إليكم كلنا ، وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه
« وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله... ونموت أعضاء أو نظفر
كرامًا، !!!

القدس تستسلم للبطل؟!!

فاستشار صلاح الدين أصحابه... فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان...
فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنجة...
فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير... يستوي فيه الغني والفقير...
والطفل من الذكور والبنات دينارين... والمرأة خمسة دنانير...
فمن أدى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا... ومن انقضت الأربعون يومًا
عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكًا...
وسلمت المدينة يوم الجمعة... السابع والعشرين من رجب...
وكان يومًا مشهودًا...
ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار مدينة القدس!!!
وعين صلاح الدين على أبواب المدينة... في كل باب أمينًا من القواد
ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم من الفدية!!!

ماذا كان في القدس؟!!

وكان فيه على الضبط... ستون ألف رجل... ما بين فارس وراجل...
سوى من يتبعهم من النساء والولدان...
ولا يعجب السامع من ذلك... فإن البلد كبير... واجتمع إليه من تلك
النواحي... من عسقلان وغيرها... والداروم والرملة وغزة وغيرها من
القرى... بحيث امتلأت الطرق والكنائس...

وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي !!!
وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل ... وزن عنهم ثلاثين ألف
دينار ...

وأخذ أسيرًا ستة عشر ألف آدمي ... ما بين رجل وامرأة وصبي ...
واستوهب جماعة من صلاح الدين عددًا من الفرنج ... فوهبهم لهم !!!

صلاح الدين يعفو عن الملكات؟!!

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم ... وقد ترهبت وأقامت به
ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ... ولها من الأموال والجواهر
النفيسة شيء عظيم ...
فطلبت الأمان لنفسها ومن معها ... فأمنها ... وسيرها !!!

سيبيللا ملكة القدس؟!!

وكذلك أيضًا أطلق ملكة القدس ... سيبيللا ... التي كان زوجها الذي
أسره صلاح الدين ... قد ملك الفرنج بسببها ... ونيابة عنها كان يقوم
بالملك ...

وأطلق مالها وحشمها ... وأستأذنته في المسير إلى زوجها ... وكان حينئذ
محبوسًا بقلعة نابلس ...
فأذن لها ... فأتته ... وأقامت عنده !!!

وأرملة البرنس أرناط؟!!

وأنته أيضًا امرأة البرنس أرناط ... صاحب الكرك ... وهو الذي قتله
صلاح الدين بيده يوم المصاف بـحطين ...

فشفت في ولد لها مأسور...
فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته...
فسارت إلى الكرك... فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه...
فلم يطلق ولدها...
ولكنه أطلق مالها ومن تبعها!!!

لا أغدر به؟!

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج...
ومعه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله...
فلم يعرض له صلاح الدين!!!
فقليل له ليأخذ ما معه... يقوي به المسلمين...
فقال: لا أغدر به!!!
ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير!!!
وسير الجميع ومعهم من يحميمهم... إلى مدينة صور...

قبة الصخرة؟!

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب...
فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة... تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة
ليقلعوا الصليب...
فحين صعدوا... صاح الناس كلهم صوتًا واحدًا... من البلد ومن
ظاهرة... المسلمون والفرنج...
أما المسلمون فكبروا فرحًا...

وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً...
فسمع الناس صيحة... كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها!!!

البطل يصلي في المسجد الأقصى؟!

فلما ملك البلد... وفارقه الكفار... أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى
حالتها القديم...
فإن الداوية... فرسان المعبد... بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها...
وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم... فأعيد إلى الحال الأول...
وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس... ففعل ذلك
أجمع...
ولما كان الجمعة الأخرى... رابع شعبان...
صلى المسلمون فيه الجمعة... ومعهم صلاح الدين...
وصلى في قبة الصخرة!!!

مرسوم بتعيين الخطيب؟!

وكان الخطيب والإمام... محيي الدين بن الزكي... قاضي دمشق...
ولما أذن المؤذنون للصلاة... قبل الظهر... كادت القلوب تطير من الفرح
في ذلك الحال...
ولم يكن عُنِ خطيب...
فبرز من السلطان... المرسوم الصلاحي... وهو في قبة الصخرة...
أن يكون القاضي محيي الدين اليوم خطيباً...
فلبس الخلعة السوداء...

وخطب للناس خطبة سنية... فصيحة بليغة...
ذكر فيها شرف البيت المقدس...
وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات...
وما فيه من الدلائل والأمارات!!!
وكان أول ما قال: ﴿فَقَطَّعْ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾^(١)...
ثم ذكر تمام الخطبتين...
ثم دعا للخليفة الناصر العباسي...
ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين!!!

تنظيم المسجد الأقصى؟!

ثم رتب صلاح الدين... خطيباً وإماماً... برسم الصلوات الخمس...
وأمر أن يعمل له منبر...
ف قيل له إن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً...
وأمر الصنائع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه...
فعمله النجارون في عدة سنين... لم يعمل في الإسلام مثله...
فأمر بإحضاره... فحمل من حلب... ونصب بالقدس...
ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة... تقدم بعمارة المسجد الأقصى...
واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه...
فشرعوا في عمارته...
ورتب القراء... وأدار عليهم الوظائف الكثيرة...

(١) سورة الأنعام، آية ٤٥.

فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً... وهذه المكرمة... من فتح بيت
المقدس... لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب... رضي الله عنه...
غير صلاح الدين رحمه الله...
وكفاه ذلك فخراً وشرفاً!!!

★ ★ ★

وهكذا فتح الطفل عز الدين عينيه على بطولات صلاح الدين...
فاستقر في أعماقه... أن يكون بطلا... كما كان صلاح الدين!!!

مُسلسل الأحداث^(١) ...
التي عاصرها ...
العزّ بن عبد السلام ...
من مولده إلى وفاته ...!؟

(١) باختصار شديد من البداية والنهاية لابن كثير.

سنة ٥٧٧ هجرية
وُلِدَ العزّ بن عبد السلام.

سنة ٥٧٨

خرج السلطان صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق لأجل الغزو والإحسان إلى الرعايا، وكان آخر عهده بمصر.

سنة ٥٧٩

تسلم السلطان الناصر صلاح الدين مدينة آمد صلحا بعد حصار طويل...

سنة ٥٨٠

أرسل الناصر صلاح الدين إلى العساكر الحلبية والجزيرية والمصرية والشامية أن يقدموا عليه لقتال الفرنج.

سنة ٥٨١

مرض السلطان مرضاً شديداً... ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا

ليصرفن همته كلها الى قتال الفرنج... ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً... وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس... ولو صرف في سبيل الله جميع ما يملكه من الأموال والذخائر... وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده... لأنه نقض العهد... وتنقّص الرسول صلى الله عليه وسلم... وذلك أنه أخذ قافلة ذاهبة من مصر الى الشام... فأخذ أموالهم وضرب رقابهم... وهو يقول: أين محمدكم؟... دعوه ينصركم!!!

وكان هذا النذر كله بإشارة القاضي الفاضل... وهو أرشده اليه وحثّه عليه... حتى عقده مع الله عزّ وجلّ... فعند ذلك شفاه الله وعافاه من ذلك المرض الذي كان فيه... كفارة لذنوبه... وجاءت البشارات بذلك من كل ناحية... قدّمت البشائر وزينت البلاد...

سنة ٥٨٢

في ثاني ربيع الأول منها كان دخول الناصر دمشق بعد عافيته... وفيها هادن قومن طرابلس السلطان وصالحه وصافاه... حتى كان يقاتل ملوك الفرنج أشد القتال... وكاد أن يسلم ولكن صدّه السلطان... وكانت مصالحته من أقوى اسباب النصر على الفرنج...

سنة ٥٨٣

ملحمة حِطّين؟!!

فيها كانت وقعة حِطّين... التي كانت امارة وتقدمة وإشارة لفتح بيت المقدس...

وجاء السلطان بجحافل فالتفت عليه جميع العساكر... فرتب الجيوش وسار
قاصداً بلاد الساحل...

وكان جملة من معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً غير المتطوعة...
فتسامعت الفرنج بقدومه فاجتمعوا كلهم وتصالخوا فيما بينهم... وجاءوا
بجدهم وحديدهم... واستصحبوا معهم صليب الصليبوت... يحمله منهم عباد
الطاغوت... يقال كانوا خمسين ألفاً... وقيل ثلاثاً وستين ألفاً...
ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة...
فحملوا وكان النصر من الله عز وجل... فقتل منهم ثلاثون ألفاً في
ذلك اليوم!!!

وأسر ثلاثون ألفاً من شجعانهم وفرسانهم!!!
وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم!!!
واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم... وهو الذي يزعمون أنه صلب
عليه المصلوب!!!
وقد غلفوه بالذهب واللائي والجواهر النفيسة!!!
ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله!!!

★ ★ ★

فتح بيت المقدس في هذه السنة؟!

واستنقذه من أيدي النصارى بعد ان استحوذوا عليه مدة سنتين وتسعين
سنة!!!

ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة
بقليل... وذلك يوم السابع والعشرين من رجب... وهي ليلة الإسراء

برسول الله ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى!!!
وأطلق السلطان خلقاً منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء
والصبيان والرجال... ووقعت الماسحة في كثير منهم...
وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر...
ولم يأخذ منه شيئاً مما يقتني ويدّخر... وكان رحمه الله حليماً كريماً
مقدماً شجاعاً رحيماً!!!

سنة ٥٨٦

استهلت والسلطان محاصر لحصن عكا... وأمداد الفرنج تفد إليهم من
البحر في كل وقت... حتى أن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال...
ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء لينكحوها في الغربة... فيجدن
راحة وخدمة وقضاء وطر!!!
قدم إليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء وأجلهن بهذه
النية!!!

وشاع بين المسلمين والفرنج بأن ملك الالمان قد أقبل بثلاثمائة ألف
مقاتل... من ناحية القسطنطينية يريد أخذ الشام وقتل أهله... انتصاراً
لبيت المقدس!!!

فما نال من ذلك شيئاً... بل أهلكه الله عز وجل في كل مكان
وزمان...

فما وصلوا الى أصحابهم الذين على عكا الا في ألف فارس!!!

سنة ٥٨٧

فيها قدم ملك الفرنسيين... وملك انكلترا وغيرها من ملوك البحر
الفرنج... على أصحابهم الفرنج الى عكا!!!

وفيها أخذ العدو عكا من يدي السلطان!!!
وكان جملة من قُتل من الفرنج خمسين ألفا!!!

سنة ٥٨٨

استهلت والسلطان صلاح الدين نجيم بالقدس...

سنة ٥٨٩

وفاة البطل صلاح الدين؟!

فيها كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب...
وكان له من العمر سبع وخمسون سنة!!!
ويقال إنه دُفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد!!!
وكان من أشجع الناس... ولا سيما في حصار عكا... وقد بلغت
جموعهم خمسمائة ألف مقاتل... ويقال ستمائة ألف... فقتل منهم مائة
ألف مقاتل!!!

★ ★ ★

وكان قد قسم البلاد بين أولاده...
فالديار المصرية لولده العزيز...
ودمشق وما حولها لولده الأفضل...
والمملكة الحلبية لولده الظاهر...
ولأخيه العادل... الكرك والشوبك وبلدان كثيرة... الخ

ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف في جميع
هذه الممالك!!!

سنة ٥٩١

نَصْرُ عَزِيزٍ بِالْأَنْدَلُسِ!؟

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة...
كانت وقعة عظيمة نصر الله فيها الإسلام...
كانت الدائرة أولا على المسلمين... فقتل منهم عشرون ألفا...
ثم كانت أخيرا على الكافرين... فهزمهم الله... فقتل منهم مائة ألف
وثلاثة وأربعون ألفا... وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً... وغنم المسلمون منهم
شيئا كثيرا!!!

سنة ٥٩٣

في هذه السنة انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين
للفرنج... فأقبلوا بحدهم وحديدتهم... فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا
فكسرهم وغنمهم!!!

سنة ٥٩٤

فيها جمعت الفرنج جوعها وأقبلوا فحاصروا تبين... فاستدعى العادل بني
أخيه لقتالهم... فجاءه العزيز من مصر... والأفضل من صرخند... فأقلعت
الفرنج عن الحصن... وبلغهم موت ملك الالمان... فطلبوا من العادل الهدنة
والأمان... فهادنهم ورجعت الملوك إلى أماكنها!!!

سنة ٥٩٥

فيها كانت وفاة العزيز صاحب مصر...

سنة ٥٩٧

غلاء ووباء شديد بمصر!؟

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا...
فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء... ثم أعقبه فناء عظيم!!!
وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر!!!
وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير...
يشوي الصغير والداه ويأكلانه!!!
وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم!!!

سنة ٦٠٠

في هذه السنة كان الفرنج قد جمعوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس
من أيدي المسلمين...
فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم...
وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد
اختلفوا فيما بينهم...

إباحة القسطنطينية؟!

فحاصروها حتى فتحوها قسرًا ...
وأباحوها ثلاثة أيام قتلًا وأسرًا ...
وأحرقوا أكثر من رُبْعها !!!
وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلاً أو فقيراً أو
مكبولاً أو أسيراً ...
ولجا عامة من بقي منهم الى كنيستهم العظمى المسماة بآياصوفيا ...
فقصدهم الفرنج فخرج اليهم القسيسون بالأناجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا
ما فيها عليهم ... فما التفتوا إلى شيء من ذلك ... بل قتلوهم
أجمعين !!!
ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام ... فنزلوا عكا وأغاروا على كثير
من بلاد الإسلام ...
فنهض اليهم العادل وكان بدمشق ... فكان بينهم قتال شديد ...
ثم وقع الصلح بينهم والمهدنة !!!

سنة ٦٠٨

استهلت والعادل مقيم على الطور لعمارة حصنه ...
وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطة
كسرة عظيمة ... وربما فتح البلد عنوة وقتل منهم خلقاً كثيراً !!!

سنة ٦٠٩

فيها اجتمع العادل وأولاده الكامل والمعظم والفائز بدمياط من بلاد مصر
في مقاتلة الفرنج ...

سنة ٦١٢

فيها شُرع في بناء المدرسة العادلة الكبيرة بدمشق...

سنة ٦١٤

فيها انقضت الهدنة التي كانت بين العادل والفرنج...

سنة ٦١٥

وفيها توفي السلطان الملك العادل ابو بكر بن أيوب...
فأخذ الفرنج دمياط... ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط...
فحاصروه مدة أربعة شهور...
والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم... فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على
ديار مصر!!!

وتمكنوا من البلدان وقتلوا خلقاً وغنموا كثيراً...
فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم الى القاهرة بعد أن كان
يمانعهم عن دخول الثغر!!!

سنة ٦١٦

ظهور جنكيزخان وعبر التتار نهر جيحون

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صعبة ملكهم جنكيزخان من بلادهم...
وفيها استحوذ الفرنج على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان... فغدروا
بأهلها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها!!!

وفجروا بالنساء .. وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى
الجزائر ... وجعلوا الجامع كنيسة!!!

سنة ٦١٧

التار يفتحون معظم العالم في سنة؟!!

في هذه السنة تمّ البلاء بجنكيزخان المسمى بتموجين... ومن معه من
التار...

واستفحل أمرهم من اقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما
حولها ... فملكوا في سنة واحدة - وهي هذه السنة - سائر الممالك إلا العراق
والجزيرة والشام ومصر!!!

وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي...
وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار
مالا يحد ولا يوصف!!!
وبالجملة فلم يدخلوا بلدًا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة
والرجال ... وكثيرًا من النساء والأطفال!!!
وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه ... وبالحرّيق إن لم يحتاجوا
إليه!!!

سنة ٦١٨

التار يواصلون الإبادة؟!!

فيها استولى التار على كثير من البلدان بكلادة وهمذان وأردبيل
وتبريز وكنجة...

وقتلوا أهاليها ... ونهبوا ما فيها ... واستأسروا ذراريها ...
واقربوا من بغداد ...
فانزعج الخليفة لذلك ... وحصن بغداد ... واستخدم الأجناد ...
وقنت الناس في الصلوات والأوراد !!!

سنة ٦٢٢

وفاة الخليفة الناصر لدين الله ببغداد وخلافة ابنه الظاهر ...

سنة ٦٢٣

وفاة الخليفة الظاهر ببغداد وخلافة ابنه المستنصر بالله العباس ...

سنة ٦٢٤

ومن توفي فيها :

جنكيز خان !؟

السلطان الأعظم عند التتار ...

والد ملوكهم اليوم !!!

السلطان الملك المعظم !؟

عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ... ملك دمشق والشام ...

سنة ٦٢٥

وفيهما قدمت طائفة كبيرة من الفرنج من ناحية صقلية فنزلوا عكا وصور
وحملوا على مدينة صيدا فانتزعوها من أيدي المؤمنين !!!

سنة ٦٢٦

استهلت هذه السنة وملوك بني أيوب مفترقون مختلفون... وقد صاروا
أحزابا وفرقا...

وقد اجتمع ملوكهم الى الكامل محمد صاحب مصر... وهو مقيم بنواحي
القدس الشريف...

فقويت نفوس الفرنج بكثرتهم بمن وفد اليهم من البحر...

وبموت المعظم واختلاف من بعده من الملوك !!!

فطلبوا من المسلمين أن يردوا اليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ

منهم !!!

فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك ان يردوا اليهم بيت المقدس

وحده !!!

وتبقى بأيديهم بقية البلاد !!!

فتسلموا القدس الشريف !!!

فعظم ذلك على المسلمين جدا !!!

سنة ٦٢٨

قدمت التتار في هذه السنة الى الجزيرة وديار بكر...

فعاثوا في البلاد فسادا يمينا وشمالا...

فقتلوا ونهبوا وسبوا على عاداتهم !!!

سنة ٦٣١

انشاء أعظم جامعة ببغداد ١٩

فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ... ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها ...
ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيها ... وأربعة
معيدين ... ومدرس لكل مذهب ... وشيخ حديث ... وقارئان ... وعشرة
مستمعين ... وشيخ طب ... وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ...
ومكتب للأيتام ... وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه
كفاية لكل واحد ...
ووقفت خزائن كُتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة
الكتب الموقوفة بها !!!

سنة ٦٣٤

فيها حاصر التتار إربل ... حتى فتحوها عنوة ... فقتلوا أهلها وسبوا
ذرائعهم !!!

سنة ٦٣٥

فيها كانت وفاة الأشرف ثم أخيه الكامل ...

سنة ٦٣٦

فيها ركب الصالح أيوب من دمشق في رمضان قاصداً الديار المصرية
ليأخذها من أخيه العادل لصغره ...

سنة ٦٣٧

استهلت هذه السنة وسلطان دمشق نجم الدين الصالح أيوب... بن
الكامل... مخيم عند نابلس...
فلما وصل الصالح الى المصريين ملكوه عليهم...
ودخل الديار المصرية سالماً مؤيداً منصوراً...
واستقر ملكه بمصر!!!

العز بن عبد السلام!؟

وفي يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر...
ولي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم
السلمي... خطابة جامع دمشق!!!

سنة ٦٣٨

فيها سلم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف أرنون لصاحب
صيدا الفرنجي...
فاشتد الانكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام
خطيب البلد!!!
والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية...

اعتقال العزّ ثم تحديد إقامته؟!!

فاعتقلها مدة ثم أطلقها... وألزمها منازلها!!!
وولى الخطابة وتدرّس الغزالية عماد الدين داود عمر بن يوسف المقدسي
خطيب بيت الأبار...

دخول العزّ بن عبد السلام الديار المصرية؟!!

ثم خرج الشيخان من دمشق... فقصد أبو عمرو الناصر داود
الكرك...
ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية... فلتقاه صاحبها أيوب
بالاحترام والإكرام...
وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر...
واشتغل عليه أهلها...
فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد...
وفيها قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيزخان إلى ملوك الإسلام
يدعوهم إلى طاعته... ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم!!!

★ ★ ★



محي الدين بن عربي

ومن توفي فيها محي الدين بن عربي ... صاحب الفصوص وغيره ...
ودفن بمقبرة القاضي محي الدين بن الزكي بقاسيون ...

سنة ٦٣٩

وفيهما شرع الصالح أيوب في بناء المدارس بمصر ...
وبنى قلعة بالجزيرة^(١) غرم عليها شيئا كثيرا من بيت المال .

عزّ الدين في مصر ؟!

وفيهما كان دخول الشيخ عزّ الدين إلى الديار المصرية ...
فاكرمه صاحبها وولاه الخطابة بالقاهرة ... وقضاء القضاة بمصر ...
بعد وفاة القاضي شرف الدين المرقع ...
ثم عزل نفسه مرتين ...
وانقطع في بيته رحمه الله تعالى !!!

سنة ٦٤٠

ففيهما توفي الخليفة المستنصر بالله ... وخلافة ولده المستعصم بالله ...

(١) جريدة الروضة القائمة وسط النيل جنوب القاهرة .

خلافة المستعصم بالله!؟

أمير المؤمنين... وهو آخر خلفاء بني العباس ببغداد...
وهو الخليفة الشهيد الذي قتله التتار بأمر هولاكو بن تولى ملك التتار بن
جنكيزخان... في سنة ست وخسين وستمائة...

سنة ٦٤٢

فيها استوزر الخليفة المستعصم بالله... العلقمي... المشؤوم على نفسه...
وعلى أهل بغداد... فإنه هو الذي أعان على المسلمين في قضية هولاكو
وجنوده... قبحه الله وإياهم!!!

سنة ٦٤٤

فيها كسر المنصور الخوارزمية عند بحيرة حصص...
واستقرت يد نواب الصالح أيوب على دمشق وبعلبك وبصرى...
وقدم الصالح أيوب إلى دمشق فأحسن إلى أهلها وتسلم هذه المدن
المذكورة...
وزار في رجوعه بيت المقدس وتفقد أحواله وأمر بإعادة أسواره أن تعمر
كما كانت في الدولة الناصرية فاتح القدس...

سنة ٦٤٥

فيها كان عود السلطان نجم الدين أيوب بن الكامل من الشام الى الديار
المصرية...
وزار في طريقه بيت المقدس وفرق في أهله أموالا كثيرة...
وأمر بإعادة سوره كما كان في أيام عم أبيه الملك الناصر فاتح القدس...

ونزل الجيوش لحصار الفرنج... ففتحت طبرية... وفتحت عسقلان!!!

سنة ٦٤٦

فيها قدم السلطان الصالح نجم الدين من الديار المصرية إلى دمشق...
وجهاز الجيوش والمجانيق إلى حصص...
ثم عاد السلطان الصالح أيوب مريضاً في محفة إلى الديار المصرية وهو ثقل
مدنف!!!

سنة ٦٤٧

وفاة الملك الصالح أيوب!؟

فيها كانت وفاة الملك الصالح أيوب...
وقتل ابنه توران شاه...
وتولية المعز عز الدين أيبك التركماني.

سنة ٦٤٨

في ثالث المحرم يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج
على ثغر دمياط... (المقصود معركة المنصورة).
فقتل منهم ثلاثين ألفاً... وقيل مائة ألف... وغنموا شيئاً كثيراً...
ثم لم يخرج شهر المحرم حتى قتل الأمراء توران شاه... ودفنوه إلى
جانب النيل من الناحية الأخرى!!!

★ ★ ★

المعزّ عزّ الدين أيبك التركماني

يملك مصر بعد بني أيوب

لما قتل الأمراء البحرية وغيرهم من الصالحية توران شاه... استدعوا من
بينهم الأمير عزّ الدين أيبك التركماني... فملكوه عليهم وبايعوه ولقبوه بالملك
المعزّ...

شجرة الدر

وكل ذلك عن أمر الخاتون شجرة الدر أم خليل حظية الصالح أيوب...
فتزوجت بالمعزّ... وكانت الخطبة والسكة لها... يدعى لها على المنابر أيام
الجمع بمصر وأعمالها... مدة ثلاثة أشهر قبل المعزّ!!!

سنة ٦٤٩

تزوجت في هذه السنة أم خليل شجرة الدرّ بالملك المعزّ عزّ الدين أيبك
التركماني... مملوك زوجها الصالح أيوب!!!

سنة ٦٥٠

فيها وصل التتار الى الجزيرة... فقتلوا وسبوا ونهبوا وخربوا... وكان
عدد من قتلوا في هذه السنة من أهل الجزيرة نحو من عشرة آلاف قتيل...
وأسروا من الولدان والنساء ما يقارب ذلك!!!

سنة ٦٥١

فيها دخل رسول الخليفة بين صاحب مصر وصاحب الشام ... وأصلح بين الجيشين ... وكانوا قد اشتدت الحرب بينهم ونشبت !!!

سنة ٦٥٢

فيها قدم الفارس أقطاي من الصعيد ونهب أموال المسلمين وأسر بعضهم ... ومعه جماعة من البحرية المفسدين وقد بغوا وطفوا وتجبروا ... ولا يلتفتون الى الملك المعز أيبك التركماني ... ولا إلى زوجته شجرة الدر !!!
فشاور المعز زوجته شجرة الدر في قتل أقطاي ... فأذنت له ... فعمل عليه حتى قتله في هذه السنة بالقلعة المنصورة بمصر ... فاستراح المسلمون من شره.

العزّ بن عبد السلام !؟

وفيها درس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ... بمدرسة الصالح أيوب بين القصرين !!!

سنة ٦٥٥

فيها أصبح الملك المعظم صاحب مصر عز الدين أيبك بداره ميتا ... ولما قُتل فأتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدرّ به ... وقد كان عزم على تزوج ابنة صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ... فأمرت جوارياها ان يمسكنه لها ... فما زالت تضربه بقباقيبها والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك !!!

مصرع شجرة الدر؟!!

ولما سمع مماليكه أقبلوا بصحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قُطُز ...
فقتلوا وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة!!!
وأقام الأتراك بإشارة أكبر مماليكه الأمير سيف الدين قُطُز ... ولده
نور الدين ولقبوه الملك المنصور ... وخطب له على المنابر!!!

لماذا ارتكب العلقمي خيانتة؟!!

وفيهما كانت فتنة عظيمة ببغداد بين الرافضة وأهل السنة ... فنهب الكرخ
ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي ...
وكان ذلك من أقوى الأسباب في ممالأته للتتار!!!

سنة ٦٥٦

التتار يقتلون الخليفة ...

وجميع مَن كان ببغداد؟!!

ففيها أخذ التتار بغداد ... وقتلوا أكثر أهلها ... حتى الخليفة ...
وانقضت دولة بني العباس منها!!!

هولا كو؟!!

وكان قدوم هولا كو خان بجنوده كلها...
وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل... الى بغداد في ثاني عشر المحرم من
هذه السنة!!!
وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه
الوقعة... فقليل ثمانمائة ألف...

١,٨٠٠,٠٠٠ قتيل؟!!

وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف!!!
وقيل بلغ القتلى ألفي ألف نفس!!!
ولما انقضى المقدر بقيت بغداد على عروشها... والقتلى في الطرقات
كانها التلول... وانتنت من جيفهم البلد!!!

سنة ٦٥٧

استهلت هذه السنة وليس للمسلمين خليفة!!!
وسلطان دمشق وحلب... الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز...
وهو واقع بينه وبين المصريين وقد ملّكوا نور الدين علي بن المعز أيبك
التركمانى...

هولاكو يُهدد ملك دمشق؟!

وقد ارسل هولاكو الى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه اليه ...
فأرسل اليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة...
فلم يحتفل به هولاكو بل غضب على أبيه... وقال أنا أسير الى بلاده
بنفسي...
فانزعج الناصر لذلك!!!

★ ★ ★

النجدة النجدة!!!

وفيها قدم القاضي المعروف بابن العديم الى الديار المصرية رسولا من
صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار...
وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام... وقد استولوا على بلاد الجزيرة
وغيرها... وقد جاز أشموط بن هولاكو خان الفرات وقرب من
حلب!!!

مؤتمر خطير يحضره العزّ؟!

فعند ذلك عقدوا مجلساً بين يدي المنصور بن المعز التركماني وحضر
قاضي مصر بدر الدين السنجاري...
والشيخ عز الدين بن عبد السلام...

وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة
الجنود...

أَجْرًا فَتَوَى لِلْعَزِّ

وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام...
وكان حاصل كلامه انه قال: «إذا لم يبق في بيت المال شيء... ثم
أنفقتم أموال الحوائص المذهبة وغيرها من الفضة والزينة...
«وتساوَيْتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب... بحيث لم يبق
للجندي سوى فرسه التي يركبها...
«سأغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء
عنهم... لأنه إذا دهم العدو البلاد... وجب على الناس كافة دفعهم
بأموالهم وأنفسهم»!!!



ولاية الملك المظفر قُطُز؟!

وفيها قبض الأمير سيف الدين قُطُز... على ابن استاذة نور الدين
الملقب بالنصور...
وذلك في غيبة أكثر الأمراء من ممالك أبيه وغيرهم في الصيد...
فلما مسكه سيّره مع أمّه وابنيه وإخوته الى بلاد (الروم)...

وتسلطن هو وسمي نفسه بالملك المظفر...
فإنه قال: لا بد للناس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين
عدوهم... وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة^(١)!!!

سنة ٦٥٨

يتنازعون وهولاكو على الأبواب!؟

استهلت هذه السنة وليس للناس خليفة...
وملك العراق وخراسان وغيرها من بلاد المشرق للسلطان هولاكو
خان ملك التتار...
وسلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز...
وسلطان دمشق وحلب الملك الناصر بن العزيز...
وبلاد الكرك والشوبك للملك المغيـث... وهو حرب مع الناصر
صاحب دمشق على المصريين... ومعها الأمير بيبرس... وقد عزموا
على قتال المصريين وأخذ مصر منهم!!!
وبينا الناس على هذه الحال وقد تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد
الشام!!!

(١) وقد شجّمه العزّ على ازاحة هذا الصبي لأن الموقف يحتاج الى مُنقذ!!!

هولاكو .. يفتح حلب ...
قتلاً ونهباً؟!!

إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو ... ووصلوا الى
حلب ... ثم افتتحوها ... ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم
الا الله ... ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال ...
وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد!!!

وقعة عين جالوت؟!!

المقصود أن المظفر قُطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام ...
وأنهم عازمون على الدخول الى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام ...
بادرهم قبل أن يبادروه ...
فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من
رمضان ...
فاقتتلوا قتالاً عظيماً ...
فكانت النصر للاسلام وأهله ...
فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول « كتيغانوين »
وجاعة من بيته ...
ولما كثر الملك المظفر قُطز عساكر التتار بعين جالوت ساق
وراءهم ودخل دمشق في أمة عظيمة وفرح به الناس فرحاً شديداً ...

سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري؟!

وذلك أن السلطان الملك المظفر قُطِرَ لما عاد قاصداً مصر...
وصل الى ما بين الغزالي والصاحية... عدا عليه الأمراء فقتلوه
هنالك!!!

وكانت مدة مُلكه نحواً من سنة!!!
وكان بيبرس قد اتفق مع جماعة من الأمراء على قتله...
ثم كَرَّوا راجعين الى المخيم
وبأيديهم السيوف مصلته...
فأخبروا من هناك بالخبر...
فقال بعضهم: مَنْ قتله؟
فقالوا: ركن الدين بيبرس...
فقالوا: أنت قتلتَه؟
فقال: نعم...
فقالوا: أنت الملك إذا!!!

سنة ٦٥٩

استهلت وليس للمسلمين خليفة...
وصاحب مصر والشام السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري...
وفي سابع صفر ركب الظاهر في أبهة الملك ومشى الأمراء والاجناد بين
يديه... وكان ذلك أول ركوبه...

★ ★ ★

البيعة بالخلافة للمستنصر بالله؟!

وكان معتقلا ببغداد فأطلق ...
ثم قصد الظاهر حين بلغه ملكه ...
ببيع بالخلافة بمصر ... بايعه الملك الظاهر والقاضي والوزير
والأمرء ...

العزّ يبائع الخليفة؟!

وكان أول من بايعه القاضي تاج الدين لما ثبت نسبه ...
ثم السلطان ...
ثم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ...
ثم الأمرء والدولة ...
وخطب له على المنابر ... وضرب اسمه على السكّة^(١)!!!

سنة ٦٦٠

في أوائل هذه السنة قُتل الخليفة المستنصر بالله الذي بوع له في رجب في
السنة الماضية بمصر ... وكان قتله بأرض العراق بعدما هُزم من كان معه من
الجنود!!!

★ ★ ★

(١) أي على النقود.

وفيه توفى من الأعيان:

ابن عبد السلام؟!!

« عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المذهب...
الشيخ عز الدين بن عبد السلام... أبو محمد السلمى الدمشقي...
الشافعي... »

شيخ المذهب... ومفيد أهله...

وله مصنفات حسان...

منها التفسير...

واختصار النهاية...

والقواعد الكبرى والصغرى...

وكتاب الصلاة...

والفتاوى الموصلية... وغير ذلك...

وُلد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسة...

وسمع كثيرا... واشتغل على فخر الدين بن عساكر وغيره...

وبرع في المذهب...

وجمع علوما كثيرة...

وأفاد الطلبة...

ودرس بعدة مدارس بدمشق...

وولي خطابتها...

ثم سافر الى مصر... ودرس بها وخطب وحكم...

وانتهت اليه رئاسة الشافعية وقصد بالفتاوى من الآفاق...

وكان لطيفا ظريفا يستشهد بالأشعار...
وكان سبب خروجه من الشام إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه
صفد والشقيف إلى الفرنج...
ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي...
فأخرجها من بلده... فسار أبو عمرو إلى الناصر داود صاحب
الكرك فأكرمه...
وسار ابن عبد السلام إلى الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب
مصر فأكرمه... وولاه قضاء مصر... وخطابه الجامع العتيق^(١)...
ثم انتزعها منه وأقره على تدريس الصاحبة...
فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز...
وتوفي في عاشر جمادى الأولى...
وقد نيف على الثمانين...
ودفن من الغد بسفح المقطم...
وحضر جنازته السلطان الظاهر... وخلق كثير...
رحمه الله تعالى!!!

★ ★ ★

وهكذا وضعنا أمامك فيلما تسجيليا لأشهر الأحداث التي وقعت
طيلة حياة العز بن عبد السلام...
من سنة مولده ٥٧٧ هجرية .
الى سنة وفاته ٦٦٠ هجرية .

(١) مسجد عمرو.

ثلاث وثمانون سنة حافلة بأحداث عظام هزّت العالم كله آنذاك ...
وكان لها أكبر الأثر في تكوين شخصية العزّ بن عبد السلام ...
ففي طفولته سنة ٥٨٣ فتح عينيه على عاصفة كبرى ... صلاح
الدين يهزم الصليبيين في معركة حطين ... ثم ينتزع منهم بيت
المقدس !!!

ثم كانت وفاة البطل الأسطوري صلاح الدين الذي فتح الشرق ...
وهزم الغرب وكانت وفاته سنة ٥٨٩ !!!
فحزن العزّ عليه كما حزن المسلمون أجمعون !!!

إلا أن الصبي أفاق سنة ٥٩١ على النصر العظيم الذي حققه المسلمون
ببلاد الأندلس فقتل من الكافرين مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا !!!
ثم سمع الفتى بأخبار القسطنطينية حين اقتحمها الفرنج وعاثوا فيها
نهباً وقتلاً وفجوراً ... في سنة ٦٠٠ هجرية !!!

وفي سنة ٦١٦ ظهر الفاتح الجبّار القهّار جنكيزخان وما صحب ذلك
من أساطير البطولات التي نُسبت إليه في جميع أنحاء العالم !!!
وفي سنة ٦٣١ أقيمت في بغداد أعظم جامعة في العالم ... ولعل العزّ
كان يتطلع ان يكون من أساتذتها !!!

وفي سنة ٦٣٧ ولي الشيخ العزّ بن عبد السلام خطابة جامع دمشق !!!
ليبدأ صفحة ناصعة بطولية للتصدي للسلطان بعد ذلك !!!
فلما سلّم الصالح اسماعيل صاحب دمشق حصن شقيف الى الفرنج ...
ثار العزّ ثورته الكبرى ...

فاعتُقل ... وحُدِّدَت إقامته ...

ثم رحل عنهم الى مصر !!!

وفي سنة ٦٣٩ كان دخوله الى مصر ...

فأكرمه الملك الصالح وولاه الخطابة وقضاء القضاة !!!

وبدأ العزّ من ذلك التاريخ جهاده الرائع في مصر !!!
وفي سنة ٦٤٨ كانت معركة المنصورة ... الخالدة ... التي هُزم فيها
لويس التاسع ... وخسر ثلاثين ألف قتيل ... ومثلهم أسارى !!!
ولا بد أن العزّ أسهم فيها اسهاما كبيرا !!!
وفي سنة ٦٥٢ درّس الشيخ عز الدين بمدرسة الصالح أيوب بين
القصرين !!!

إنه يعمل في أي موقع داعيا الى الله !!!
ثم كانت الطامة الكبرى والداھية العظمى سنة ٦٥٦ ...
حيث اقتحم هولاءكو بغداد وقتل الخليفة وجميع أهله ... وجميع
سكان بغداد !!!

فاهتزت أعصاب العزّ اهتزازا شديدا ...
وأيقن آنذاك أن المسلمين، وعلى رأسهم خليفتهم، استحقوا العقاب من
الله على ما فرطوا فيها !!!
وفي سنة ٦٥٨ - اقتحم هولاءكو مدينة حلب ... قتلا ونهباً لتلحق
بأختها بغداد !!!

وكان هذا جزاء وفاقهم، فقد كان ملوك المسلمين يتنازعون فيما
بينهم وهولاءكو على الأبواب !!!
ثم التقط الشيخ عزّ الدين أنفاسه حين استدعاه الأمير قُطز ...
يشاوره ماذا يفعل والتار قادمون الى مصر ؟!
فكانت من العزّ فتواه الخالدة وشجّع الأمير قُطز على انتزاع هذا
الصبيّ الذي كان ملكا على مصر ... والتسلطن مكانه !!!
ما كان العزّ بن عبد السلام شيخا درويشا لا شأن له بالسياسة وإدارة
دفة البلاد ...

ولكن كان عالما بدينه ودنياه ... يشارك في الأحداث على أعلى

مستوى... مستوى رئاسة الدولة ومن حولها... ثم يُفتي... ويُؤخذ
بفتواه على الفور!!!
وخرج البطل قُطز... ليسجل في سنة ٦٥٨ أعظم هزيمة نزلت
بالتار في تاريخهم الرهيب وذلك في معركة عين جالوت!!!
وكان العزّ من ورائه يشدّ الهمم... ويحشد القلوب في سبيل اعلاء
دين الله!!!

ثم تسلطن البطل الأسطوري الأسد الضاري... بيبرس...
وفي سنة ٦٥٩ أقام بيبرس البيعة بالخلافة للمستنصر بالله...
بايعه الملك الظاهر بيبرس والقاضي والوزير والأمراء...
إلا أنهم يتطلعون الى بيعة العزّ...
وكان أول من بايعه السلطان... ثم الشيخ عزّ الدين...
ثم الأمراء والدولة!!!
انظر... بيعة العزّ تأتي قبل الأمراء ورجالات الدولة؟!
حتى كانت سنة ٦٦٠ وقيل للعزّ بن عبد السلام: ﴿يا أَيُّهَا النَّفْسُ
المُطْمَئِنَّةُ﴾

﴿ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضِيَّةً﴾
﴿فادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾
﴿وادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(١)!!!

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

عزّ الدين...
حتّى سِنّ...
الخمسين...؟!!

شاهدنا معاً فيلمًا تسجيليًا عن أحداث الفترة التي عاشها العزّ من
سنة ٥٧٧ الى ٦٦٠ هـ ...

والآن ندخل الى شيء من تفصيل حياة سلطان العلماء ...
وإليك ملخصاً لحياته حتى سنّ الخمسين ...

قال عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه « أئمة الفقه التسعة » :

« ولزم عز الدين شيخه ابن عساكر، وتعلم منه الفقه الشافعي، وكان
الشيخ زاهدًا ورعًا واسع المعرفة كثير الصدقات، خطيبًا، لاذعًا، وهو في
الوقت نفسه شديد الحياء، وكان مرحًا متألق الظرف، فتأثر تلميذه عز الدين
ونقل عنه كثيرًا من خصاله وسجاياه.

من الحق أن عز الدين لزم شيخه ابن عساكر وتأثر به، ولكنه لم يلتزم
نصحه فيما يطلب من علوم. فتاق الى التزود بمعارف عصره جميعًا. وكانت
أفكار اليونان والمصريين القدماء والهنود والفارسيين قد نقلت الى اللغة
العربية.. وكان المسلمون قد تفوقوا في علوم الطبيعة والطب والكيمياء
والرياضيات والفلك، وتعاطوا الفلسفة فأراد عز الدين أن ينهل من هذا
كله..

وكانت فلسفة الاشراق التي جاء بها السهروردي الى دمشق وحلب تعيش،

وتصك أعداء تلك الفلسفة الذين نجحوا من قبل في الايقاع بالسهرووردي، فأغروا به صلاح الدين. وكان ابنه الظاهر يحمي السهرووردي في قصره يجلب... فأمر صلاح الدين ابنه الظاهر أن يسجن السهرووردي حتى يهلك في سجنه صبرًا وجوعًا وعطشًا، ولكن الظاهر بن صلاح الدين امتنع، فأرسل إليه أبوه يخبره بين اثنيتين: اما قتل السهرووردي أو العزل!

وأذن صاحب حلب لأمر أبيه صلاح الدين وجاء بالسهرووردي وخصومه، وأمرهم أن يناظروه قبل أن يقضي في أمره.

كان السهرووردي شيعيًا، وصلاح الدين يحارب الشيعة ويضربهم في كل مكان... وكان السهرووردي ينادي بأن العالم لم يخل من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجب والبيئات، وهذا الشخص هو الامام وهو خليفة الله في أرضه، وهو واجب الاتباع، فهو معصوم يوحي اليه لكن على نحو آخر غير الأنبياء والرسل!

وكان السهرووردي يذهب الى أن النور أساس كل الموجودات، ويعتمد على الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١). وقد استفاد بحكمة أختاتون الذي نادى بالتوحيد في مصر القديمة، واعتبر النور والشمس بالذات سبب وجود كل الكائنات الحية. كما استفاد الرجل بأفكار أفلاطون في المثل وآراء زرادشت الفارسي. ولكنه رد كل أفكاره الى القرآن الكريم.. وأحسن الاستشهاد بآياته..

ولم يعرف أحد لماذا ثار فقهاء دمشق على السهرووردي واتهموه بالشعبوية وهي الدعوة الى تغليب الفرس على العرب، ثم اتهموه بالكفر!... وعلى الرغم من أن الظاهر بن صلاح الدين كان سنيا كأبيه، فقد بسط حمايته على السهرووردي معجبًا بأفكاره الصوفية وبفكرة الاشراف، والفيض الالهي الذي

(١) سورة النور، آية ٣٥.

تشرق به قلوب الصالحين فيحصلون المعرفة الذوقية مع المعرفة العقلية.
ومهما يكن من أمر فقد جمع الظاهر بن صلاح الدين خصوم السهروردي
من الفقهاء... وبدأت المناظرة أو المحاكمة التي صدر فيها سلفاً أمر صلاح
الدين بقتل السهروردي حكيم الاشراق!!

سأله خصومه: «الله قادر على أن يخلق ما يشاء؟»
قال السهروردي: «نعم». فسأله: «ونبي الاسلام أليس هو خاتم
الأنبياء؟»

قال: «بلى»: قالوا: «ألا يستطيع إله هكذا أن يبعث نبياً بعد نبي
الاسلام؟»

كان السؤال مصيدة للرجل!

قال السهروردي بعد لحظة: «ختمت النبوة ولكن الولاية قائمة».
وأخذه برأيه في الولاية.. فهو يرى أن ولي الله وهو الامام المعصوم
قطب الأقطاب خليفة الله في الأرض يجب أن يكون من نسل النبي... وهذا
النظر يحكم بعدم شرعية الخلفاء والملوك الا اذا كانوا من نسل الرسول
ﷺ... أي من أبناء علي وفاطمة رضي الله عنهما.. وصلاح الدين نفسه ليس
عربياً على الاطلاق فهو كردي الأصل. وهكذا اضطر الظاهر بن صلاح
الدين أن يودع السهروردي غيابة السجن ليموت فيه صبراً وجوعاً!

لقد وقعت الواقعة بالسهروردي بينما كان عز الدين بن عبد السلام صبيّاً
في نحو العاشرة من عمره، وزلزلت نهاية السهروردي الفاجعة نفس الصبي
زلزلاً شديداً، ولم يفارقه الحزن والعجب.. كيف يقضى على رجل بالموت
لأنه قال رأياً يخالف فيه بعض الفقهاء، ولا يرضى عنه الحاكم؟!

ولكن أفكار السهروردي في الاشراق قد ذاعت وملأت أماكن العلم،
واصطكك فيها الناس بين مستنكر ومعارض.. منهم من يرى القتل شهيداً
مات دفاعاً عن تصوفه ومنهم من يراه كافراً!! حتى ظهر في دمشق رجل آخر

تسمى باسم السهروردي، وأذاع أفكار السهروردي في الاشراق، ولكنه لم يعد يتحدث عن الامامة والولاية ولبس خرقة التصوف، ومضى في الطرقات يهتف بالناس: ﴿الله نور السموات والأرض﴾. وأخذ يشرح أفكار السهروردي عن النور والفيض الالهي..

وتبعه قوم لبسوا خرق التصوف، وأطلقوا كلمات في الأسواق وندوات العلم. كلمات مكثفة تحمل رموزاً كثيرة..

وبهر الشاب عز الدين بهؤلاء وأحوالهم.. وبهرته بصفة خاصة شخصية السهروردي الجديد، فلزمه على الرغم من نصيحة شيخه.. ولبس عز الدين خرقة التصوف عامًا أو بعض عام ملتصقًا علم الحقيقة على يد السهروردي الجديد، حتى اذا علم ما عنده، عاد الى أستاذه ابن عساكر يلتمس عنده علوم الشريعة من جديد..

وسمع عز الدين أن في العراق شيخًا عنده من علم الحديث ما ليس عند غيره في دمشق فحمل متاعه وزاده وزواده وسافر الى بغداد، وجلس الى ذلك الشيخ وحفظ عنه الحديث.. ثم عاد من جديد الى دمشق.

كان صلاح الدين الأيوبي قد مات، وترك دولة شاسعة تقاسمها أخوته وأبناءؤه وأبناء أخوته.. وما هي الا سنوات حتى تقطعوا أمرهم، ففترقوا وأصبح بأسهم بينهم شديدًا.. وتمزقت دولة صلاح الدين الى دويلات تناحرت فيما بينها، مما أغرى التتار والصليبيين بالطمع في الاستيلاء على بعض أجزاء هذه الدولة الاسلامية الكبرى.

وقد أسكت هؤلاء الحكام معارضيههم اما بالارهاب والقمع أو باغراقهم في المال أو بدفعهم الى الزهد والتصوف على نحو لم يعرفه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفين. وكان هؤلاء جميعًا من العلماء والفقهاء الذي يؤثرون في الأمة أبلغ تأثيرا

وعز الدين يرى كل هذا.. فيتقدم صفوف طلاب العلم تحت راية الاسلام

وخلف قيادة بعض شيوخه من العلماء المقاومين.. وعرفه الشباب خطيباً يستثير الحمية.

وكان الى هذا شديد الدأب على تحصيل العلم، مما أثار اعجاب شيوخه به. ولم يكد ينتهي من الدراسة على شيخه الفخر بن عساكر، وغيره من الشيوخ في جامع دمشق، حتى أجازوه للتدريس. وعين مدرساً بدمشق، يقرئ صغار الطلاب القرآن، ويعلمهم القراءة والكتابة.. ثم نقل الى مدرسة أعلى.. يعلم الطلاب الفقه وأصول الفقه على المذهب الشافعي.. وهو المذهب السائد اذ ذاك في كل البلاد التي حكمها صلاح الدين.

وهيات له مهنة التدريس أجراً طيباً أصلح به حاله، فاستأجر بيتاً لائقاً وتزوج..

وعرف الناس في ندوات دمشق شيخاً متوسط الطول، يسخر مما يلقي، مرحاً ضاحك السن، وعليه مع ذلك وقاره، عذب الحديث، خفيض الصوت اذا تكلم، جهير الصوت اذا انفعل أو خطب، نظيف الثوب، لا يرد سائلاً، فاذا لم يجد ما يتصدق به اقتطع جزءاً من عمامته ودفع به الى سائله! وكان نحيلاً يقتحم بنظراته المجهول كأنه يفتش وراء الغيب عن شيء ما..!

لم يقتنع بما نال من علم، فتعود أن يغشى مكتبة الجامع الأموي يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف، وقد كشفت له تأملاته ودراساته في آثار السلف أن كل المعارف الانسانية تعين على فهم القرآن.. وكان يريد أن يفسر القرآن، ولكنه شعر أن الوقت لم يحن بعد، وأن عليه أن يستوعب الكثير من العلوم حتى يجسر على العمل بالتفسير وهو مطمئن الضمير.

ودرس خلافاً المتقدمين حول الفلسفة، وكان الامام الغزالي قد هاجم الفلسفة من قبل، ولكن هذا لم يصرف كل العلماء عن دراسة الفلسفة، فها

هوذا السهروردي المقتول الذي فتن عز الدين بآرائه قد خلف ميراثاً سخياً من الفكر وفق فيه بين الفلسفة والدين .

واستوعب العز كل ما تركه السلف في علم الكلام . العلم الذي يتكلم عن الله وصفاته واسمائه . ومن السلف من هاجم هذا العلم ونبذه واعتبره بدعة فاسدة ، ومنهم من عالجته وتعمق فيه وأضاف إليه ، واعتبره علم أصول الدين . والخلاف بين العلماء حول هذا الأمر قديم يرجع الى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني للهجرة ، حين ظهر المعتزلة وأخضعوا كل شيء للعقل ، وتحدثوا في القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله تعالى ، واعتمدوا في كل آرائهم على الأدلة العقلية . ونبذهم أهل السنة ورفضوهم واعتمدوا على ما تركه السلف منذ عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة ومن بعدهم عصر التابعين . وذهب أهل السنة الى رفض الكلام في كل هذه الأمور ، لأن أسلافهم لم يتكلموا فيها بل ان منهم من نهى عن الاقتراب منها .

واتهم أهل السنة مفكري المعتزلة بالزيف والضلال ، واتهمهم المعتزلة بالجمود وانعكس هذا على قواعد استنباط الأحكام وأصول الفقه ، فمن تأثروا بالنظر العقلي اعتمدوا على الرأي في الاستنباط ، وتمسك آخرون بالنصوص ، وحدها ، ولم يعدلوا عنها الى الرأي ان لم يجدوا الحكم في النصوص كما صنع أهل الرأي ودعاة اعمال العقل ، بل آثروا الصمت . ومن أهل السنة من أخذ بظاهر النص وحده ، ومنهم من تأول النص ليستنبط الحكم ان لم يسعفه الظاهر .

وانتقلت كل هذه الأفكار بصراعاتها على أمواج الزمن من جيل الى جيل . حتى أتيج لأهل السنة مفكر كان من قبل من كبار مفكري المعتزلة ثم هجرهم ، مستخدماً أدواتهم في التفكير والاستنباط ، فاعتمد على البراهين العقلية في مناصرة آراء أهل السنة والنصوص .

حدث هذا في القرن الرابع الهجري .

وهذا الفقيه هو الأشعري الذي ألف الكتب على مذاهب أهل السنة . ورد

على المعتزلة في كل مقولات علم الكلام « حتى دخلوا في أقماع السمسر ». وكان المعتزلة قد ذهبوا الى أن العقل هو أساس الحكم بالقبح والحسن، وتبين الحلال والحرام، وذهبوا في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، الى أن الرسول ليس هو النبي الذي يرسله الله، ولكنه العقل.

واتهمهم أهل السنة بالكفر، ورفضوا أن يتكلموا في العقائد بالأدلة العقلية، وهاجموا المنطق والفلسفة، حتى جاء الأشعري، فاستعان بالمنطق والفلسفة في الكلام عن العقائد، ودافع عن السنة بأدلة المعتزلة. فلم يعتمد على النصوص وحدها في كلامه عن العقائد، وإنما أعمل العقل، ليناور المعتزلة بأسلحتهم.

وقد أعجب العز بهذا كله، واعتنق عقيدة الأشعري، كما اعتنقها من قبل أكثر المستنيرين من أهل السنة والرأي مهما تختلف مذاهبهم الفقهية. أعجب العز عز الدين بمحاولات المعتزلة والأشاعرة وتوفير على دراستها في مكتبة الجامع الأموي.

ولقد أعجبه بصفة خاصة مناظرة بين الأشعري والجبائي أحد أئمة المعتزلة، « عن ثلاثة أخوة ماتوا: الأكبر منهم مؤمن بر تقي، والأوسط كافر فاسق شقي، والأصغر مات على الصغر لم يبلغ الحلم. فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدرجات - بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصي واجب على الله تعالى عند المعتزلة - وأما الصغير فمن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب. فقال الأشعري: فإن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة؟ الجبائي: يقول الله تعالى الدرجات ثمرة الطاعات.

(١) سورة الاسراء، آية ١٥.

الأشعري: فان قال الصغير ليس مني النقص والتقصير. فانك ان أبقيتني الى أن أكبر لأطعك ودخلت الجنة.

الجبائي: يقول الباري تعالى: قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت في درجات الجحيم. فان الأصلح لك أن تموت صغيراً.

الأشعري: فان قال العاصي المقيم في العذاب الأليم منادياً من بين دركات النار وأطباق الجحيم: يا الله العالمين! يا أرحم الراحمين! لم راعيت مصلحة أخي دوني وأنت تعلم أن الأصلح لي أن أموت صغيراً ولا أصير في السعير أسيراً؟ فما يقول الرب؟

فبهت الجبائي في الحال وانقطع عن الجدل.

وعن دور الأشعري في الفكر الديني، كتب المغفور له الامام الشيخ مصطفى عبد الرازق: «أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق الى الاعتماد على العقل. فلما أخذ الأشعري في مناظرة المبتدعة بالعقل حفاظاً للسنة، جاء أنصار مذهبه من بعده يثبتون عقائدهم بالعقل تدعيماً لها ومنعاً لاثارة الشبهة حولها. ووضعوا الأدلة العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار».

واذن فمذهب الأشعري مقرر لمذاهب السلف ولكنه يناضل عنها بالأدلة العقلية لا بالنصوص وحدها. وهو رأي وسط بين مذهب المعتزلة الذين نفوا التجسيم عن الله تعالى ومذهب غلاة الحنابلة الذين آمنوا بالتجسيم كما يدل ظاهر النص.

ولقد شاعت عقيدة الأشعري فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة... كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيما بعد. وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعي وعقيدة الأشعري فألزم بهما الناس.

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا: فظل بعضهم شافعيًا على رأي صلاح الدين، واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب، وان ظلوا جميعًا على

رأي الأشعري الا قليلاً!

وكان الملك الكامل حاكم مصر وهو ابن العادل شقيق صلاح الدين أوسعهم أفقاً وأشدّهم احتفالاً بالعلم والعلماء، حتى لقد جلس وهو ملك مصر الى الشيوخ ليتعلم منهم في الحلقات ثم تقدم لنيل اجازة علمية كما يتقدم غيره من الطلاب، ونجح فيها! وتعود أن يعقد مجلساً للعلماء في مساء كل خميس، وفتح المدارس والمكاتب وأغدق على أهل الفقه والعلم.. وكف عن اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى كما كان يصنع عمه صلاح الدين. وعين قضاة من كل المذاهب بدلا من القاضي الشافعي الذي اكتفى به أبوه.. ولقد نافسه في تشجيع العلماء أخوه عيسى، فكافأ المؤلفين حتى وضعوا في عهد الملك الكامل كتاباً من أضخم كتب الفقه الحنفي وهو كتاب (التذكرة).

وقد أرسل العز بن عبد السلام الى الملك الكامل وأخيه عيسى كتاب شكر على ما يصنعان للعلم والعلماء، فأرسلوا اليه ردّاً جميلاً. وبعث الملك الكامل الى أخيه صاحب دمشق - الملك الأشرف - يستوصيه خيراً بالعالم الشاب عز الدين بن عبد السلام.

وكان عز الدين قد جذب اليه عديداً من الطلاب أحبوا دروسه التي كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر مما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه.

وقصده الناس يستفتونه فلم يبخل عليهم بالرأي، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعي الذي كان يعتنقه من قبل، بل كان يبحث في كل المذاهب عن اجابات لما يرد اليه من أسئلة، فان لم يجد حاول أن يجتهد رأيه.

وكان شديد الحرج في فتياه. يفكر طويلاً قبل الإجابة، ويظل يفكر بعدها وينقب حتى يطمئن أنه على الصواب. ولقد أصدر فتيا ذات مرة، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال، وعاد الى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده، فاكتشف أنه أخطأ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذي استفتاه،

فأطلق عددًا من تلاميذه في الأسواق والطرقات والمساجد ينادون في الناس:
« من صدرت له فتيا بالأمس من العز عز الدين بن عبد السلام فلا يعمل بها
فهي خطأ، وليعد الى الشيخ ليفتيه بالرأي من جديد بالصواب ».

شاع ذكر الشيخ في أقطار المسلمين، ولم يكن قد ألف كتابًا بعد، ولكن
ها هو ذا شاب عالم فقيه زاهد أمين، يتحرر من المذاهب الفقهية في عصر شاع
فيه التقليد للأئمة الأربعة، كل جماعة تتعصب لمذهب ولا تعدوه حتى ان
وجدت الجواب الصحيح عند غيره من المذاهب، وكل حزب بما لديهم
فرحون! فاذا صدرت الفتيا من أحدهم فلا رجعة فيها حتى ان تبين الخطأ..

وعز الدين لا يتفرغ للعلم والتدريس والفتيا فحسب، ولكنه يتحرك في
الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في رجة وحكمة وموعظة حسنة،
ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم، وعلى
جباة المكوس والمرتشين والجائرين ممن يلون أمرًا من أمور المسلمين.

من أجل ذلك أحبه الناس: المظلومون والفقراء خاصة، وطلاب العلم الذين
يجاهدون من أجل مستقبل أفضل. وخافه الجائرون من الحكام، أما العادلون
منهم فقد حاولوا أن يقربوه، ولكنه كان بطبعه لا يحب الاقتراب من
السلطان...

وضاق به بعض الفقهاء المقلدين ممن ينافقون الحكام.. ذلك أنه احتل
مكانة لا يؤهلها له عمره فهو بعد في الخمسين، وأنه ليعتمد على مكانته هذه،
فيسلق المقلدين والجامدين والمرتشين والمرزقة الفقهاء باللسنة حداد، ويطالب
المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا دينهم!

الشيخ الخضيرى ...
يَتَّهِمُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ ...
بأنَّه حمار ...!؟

أمثال هؤلاء الأفاذ... سرّ قوة شخصيتهم... تتفجّر من الثورة
المادرة المشتعلة في قلوبهم على كلّ ما هو باطل... وكلّ ما هو
فاسد... من الأوضاع!!!

ثمّ يزيد شخصيتهم قوة الى قوتها... أنهم لا يخافون في الله لومة
لائم!!!

فما هذا السلطان الأشرف ملك دمشق... وما يبلغ في عيني العزّ؟!!
وسوف نرى في هذا الفصل صراعاً عنيفاً غاية العنف يخوضه البطل
عز الدين بن عبد السلام...

ضدّ أراذل فقهاء الخنابلة... يكيدون له عند السلطان... ليسقطوا
العزّ عن عرشه الذي اعتلاه على قلوب الجماهير... ويزحزحوه عن
المكانة التي تكوّنت له عند سلطان دمشق الملك الأشرف!!!
ويتصلّب البطل عن الدين كأعنف ما يكون التصلّب في الله...
ويتهاوون أمامه أذلة وهم صاغرون!!!

وقد يعجب خفاف العقول أن يكون العداء ضدّ عز الدين يأتي
أول ما يأتي من العلماء... والمفروض أن يتناصروا لا أن يتباغضوا!!!
وقد يزول عجب هؤلاء إذا علموا أنّ كلّ ذي نعمة محسود...

فالعزّ في أعين هؤلاء الحاسدين خطر عليهم... فيجب أن يزول!!!
أمّا قصة الحقّ ونُصرة الحقّ فهذا شيء لا وزن له في تفكيرهم!!!
ودائمًا يأتي الحسد بين أصحاب المهنة الواحدة!!!
ولا ينجو من هذا الداء الوبيل إلا مَنْ آتاه الله حظًا عظيمًا من
الأخلاق!!!

فالملوك يحسدون الملوك!!!
والعلماء يحسدون العلماء!!!
والعابرة يحسدون العابرة!!!
وقد عالج القرآن هذا الداء الخبيث علاجًا عبقريًا حيث قال:
﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...
﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا...
﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ...
﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ...
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١).
وهذا أبرع علاج يُتصور...
بدلاً من أن تتمنّى زوال نعمة المحسود... سل الله من فضله فإن
فضله لا نهاية له!!!

اعود فأقول: هلمّ الى البطل عزّ الدين... لنشهد صراعاً جليلاً في
سبيل الله...

قال مؤلف كتاب: «الأئمة التسعة» .
«وفي أحد الدروس وجه أحد الطلاب الى الشيخ عزّ الدين سؤالاً
عن حكم الدين في العلماء الذين يسكون عن الظلم، وهم بعد ذلك

(١) سورة النساء، آية ٣٢ .

يتصدرون بعض الحلقات في الجامع الأموي يعلّمون ويفتون؟!
فأفتى الشيخ عز الدين بأن السكوت عن المنكر منكر... وعلماء
المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... فإن
تخلوا فما أطاعوا الله والرسول... وإن كان سلوكهم طمعاً في الأموال
والهدايا والمناصب أو حرصاً فإثمهم مضاعف... وقد قال الله تعالى:
﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ﴾^(١) وهؤلاء هم العلماء... فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ
بالله!...

وسأل طالب آخر: ألمثل هؤلاء طاعة؟!..

فقال الشيخ: لا طاعة لهم!!!

ورأى ذلك نفر من العلماء في كلام الشيخ عز الدين تحريضاً للطلاب
وللعامة عليهم وعلى السلطان نفسه!..

وتوجه أحد طلاب الحلقات في الجامع الأموي الى شيخ حلقة يسأله عن
حكم الدين في العلماء الذين يتقاضون من الحكام أموالاً وهدايا ثمناً لسكوتهم
عن فساد هؤلاء الحكام؟.

وسأله طالب آخر عن رأي الدين في العلماء الذين لا يأمرُونَ بالمعروف ولا
ينهون عن المنكر!.. وغضب الشيخ غضباً شديداً وسب الطالبين سباً عنيفاً،
وطردهما من الحلقة طرداً غليظاً وحرم عليهما دخول الجامع، وذكر الشيخ عز
الدين بن عبد السلام بالسوء وأنذر أن يوقع به العقاب حتى لا يفتن الشباب!

فأعلن سائر الطلاب سخطهم لمقالة الشيخ وفعلته، فسبهم جميعاً، وانسحب
من الحلقة وهو يصيح ان ابن عبد السلام قد أفسد العامة والطلاب!
وانصرف الرجل فاجتمع ببعض شيوخ الحلقات من المتصلين بالسلطان

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٤.

وذهبوا جميعًا إليه، فطالبوه أن يردع الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأن ينزل به عقاب من يثير الفتنة، ولكن الحاكم طيب خاطرهم، وكساهم حللاً فاخرة وأغدق عليهم الهدايا وصرراً من المال، وطلب منهم أن يمهله في أمر الشيخ عز الدين هذا.

ولكنهم عادوا يطالبون بأن يمنع عز الدين من الفتيا والتدريس والمشي في الأسواق.

غير أن السلطان الأشرف لم يستجب لهم، فالشيخ على أية حال لا يدرس في الجامع الأموي، ولكن في مدرسة صغيرة قليلة الخطر.. فليردوا هم في الجامع الأموي على آرائه.

ولكنهم ما زالوا بالحاكم يغرونه بالشيخ عز الدين حتى صرح لهم بأنه لا يستطيع أن يسيء إلى عز الدين، فالملك الكامل حاكم مصر يجب عز الدين، ويوصي به خيراً، فإن نال سلطانهم من عز الدين فسيغضب له الملك الكامل ولا طاقة له بغضب أخيه الأكبر!

ولم يهدأ كيد الخصوم عن الشيخ عز الدين، وظلوا يتربصون به. وحاولوا أنه يغروا به الطلاب والعامة وأن يسفهاهم آراءه، ولكن حملتهم عليه وشدة عز الدين في نقد ذلك النفر من العلماء، مكنت له في قلوب أهل دمشق، وزادته مكانة في قلب الملك الكامل. فأرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف، يطالبه بأن يحسن صلة الشيخ عز الدين، وأن يعينه شيخ حلقة في الجامع الأموي، لتعم الفائدة من علمه.

أما الصلة فقد ردها الشيخ عز الدين شاكرًا، وأما منصبه في الجامع الأموي، فقد فرح به، لأنه يتيح له الاتصال بعدد أكبر من الطلاب هم أنضج عقلاً وأكبر سنًا من طلاب المدرسة التي يعلم بها.

وكان منصب شيخ حلقة في الجامع الأموي هو أكبر منصب علمي في دمشق.

وتقدم الشيخ عز الدين، بوجهه النجيل الباسم، في ثياب بسيطة نظيفة، فاختر الزاوية الغزالية حيث كان الامام الغزالي يعتكف منذ أجيال، وبدأ يدرس للطلاب علوم الدين.. وتوافد عليه الطلاب حتى ضاقت بهم الحلقة، واقفرت سائر الحلقات من طلابها. وكان يلقي أكثر من درس في النهار والليل في الحديث والفقه والأصول.. غير متقيد بمذهب من المذاهب الأربعة. وشرع يفتي كلما استفتاه أحد، ويشرح عقيدة الأشعري في أصول الدين، وأدلتة العقلية على صحة مذهب أهل السنة. ويأخذ الطلاب باتقان علوم اللغة ليفهموا نصوص الشريعة.

وغاظ التفاف الناس حوله وانصرافهم عن سواه، كثيرًا من خصومه، فعادوا يحاولون الايقاع به، ولكنهم خشوا أن يردهم سلطان دمشق حرصًا على ارضاء أخيه سلطان مصر!

أما الشيخ عز الدين فلم يكن ليباري بهم، بل مضى في طريقه، يقرأ ويدرس ويفتي، وقد اطمأنت به الحياة.. فالراتب الذي يأخذه من المسجد الأموي راتب كبير يكفيه حياة موفورة.

وخاطبته زوجته في أن يغير المسكن الضيق الذي كان قد استأجره وهو مدرس في مدرسة صغيرة!

لقد ضاق بهم المسكن بعد أن أنجب أولادًا. وقال لها انه يعرف أن المسكن الضيق هو الجحيم الأصغر كما قال الامام علي كرم الله وجهه، وهو يتمنى أن يغيره، ولكن لا سبيل...! وعادت الزوجة تلح عليه، وكان حائثًا عليها شديد البر بها، وتمنت لو انه اشترى بيتًا فسيحًا يحيط به بستان جميل، فهو بعد أستاذ وشيخ بالجامع الأموي، وينبغي أن يتخذ له سكنًا مريحًا يليق به، ويتسع لأهله وبنيه، ولضيوفه الذين يتوافدون عليه ملتجئين عنده العلم، والفتيا بعد أن يفرغ من الحلقات...

ووعدها خيرًا، غير أنه لم يستطع، فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته،

ويحسن اكرام ضيوفه، ويتصدق بما بقي، ولا يدخر شيئاً على الإطلاق.
ثم أصابت دمشق أزمة، فهبطت الأسعار وقل المال، وأعنت الناس عنتاً
شديداً.. وصارت البيوت الواسعة بما حولها من البساتين تباع بثمان قليل.
فجاءته امرأته وطلبت منه مرة أخرى أن يشتري بيتاً واسعاً بجديقة
وجعت مصاعاً لها وقالت: اشتر لنا بهذا بستاناً.

فأخذ المصاع وباعه، وتصدق بثمانه.

فلما عاد الى زوجته استقبلته فرحة: يا سيدي.. اشتريت لنا بستاناً!
- نعم، بستاناً في الجنة!. اني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمان
المصاع.

- جزاك الله خيراً.

وكان الناس يتسامعون بفضل الشيخ عز الدين فيزداد مكانة واحتراماً،
ولقد علم الأشرف صاحب دمشق بكثرة صدقاته، فطلبه، وحاول أن يقدم
اليه مالا للتصدق به ولكنه رد السلطان، وأفتاه أنه من الخير أن يتصدق
السلطان نفسه بالمال!..

وقارن السلطان الأشرف بين هذا الرجل الذي يرفض عطاياه الخفية، وبين
الآخرين الذين يرتشون ويجهرون بالالحاح في طلب المزيد من الهدايا والأموال
والمناصب!!

ودخل السلطان الأشرف اكبار خارق لعز الدين، وأدرك أن أخاه الكامل
ملك مصر على حق، فمثل هذا الشيخ جدير بالاحترام. وان له لهيبة!
ولاحظ السلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين لا يطلب مقابلته على
خلاف الآخرين، وكانت سيطرة عز الدين على قلوب الشباب وسائر الناس
تقوى يوماً بعد يوم، وهو لا ينفك يهاجم خصومه من الفقهاء لجمودهم
وتمسحهم بأصحاب السلطان، ولا يكف عن نقد أخطاء الحكام.
ورأى الأشرف أن من الحكمة أن يصطنع الشيخ لنفسه ويدنيه من القصر،

فأخذ يمدح الشيخ عز الدين في كل مكان، ويطلبه لمجالسته فيتناقل عنه الشيخ الى حلقات الدرس ومجالس الفتيا، ولا يبادله مدحاً بمدح.

وانتهز خصومه الفرصة، فزعموا للسلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين قد غره حب الناس له والتفاف الشباب حوله، فسولت له نفسه الامارة بالسوء أن يتعالى على الجميع حتى على السلطان نفسه!

وفي الحق ان السلطان الأشرف، كان يشعر بحرج لموقف الشيخ عز الدين منه، وكان يحس في أغوار نفسه أن الشيخ لا يضمّر له من الاحترام ما يجب على المحكوم للحاكم!!..

وكان في حاشية السلطان نفر من فقهاء الحنابلة المتشددين المضيقين، وكان الشيخ عز الدين ينكر عليهم غلظتهم مع مخالفيهم، ويتهمهم بالحمق والجمود وفساد الرأي، وبالإساءة الى صاحب المذهب الامام أحمد بن حنبل، الذي كان فقيهاً جليلاً عميق النظر واسع الأفق رائع الحكمة.. والذي ترك تراثاً عظيماً يحمل كل طاقات التجديد.

ولكن هذا النفر من فقهاء الحنابلة، كانوا قد خالطوا السلطان الأشرف منذ كان حدثاً صغيراً، وصاغوا عقله على رأيهم الجامد المتحجر حتى اختلط هذا بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن مخالفه كافر حلال دمه.

وقد أتاحت لهم منزلتهم عند السلطان، ونفوذهم عليه أن يصنعوا في البلاد كما يشاءون، فكانوا اذا خلوا بمخالفينهم من الشافعية أو الأشعرية آذوهم وضربوهم!

وما كان ليغمض لهم جفن وهم يرون السلطان الأشرف يخطب ود الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وغدوا الى السلطان ليقعوا بالشيخ عز الدين، قبل أن يتقارب الرجلان، فزعموا للسلطان أن العز عز الدين يخالف السلف ويقول في القرآن قولاً عظيماً.. ويخطئ من يقول في القرآن بالحرف والصوت، وأنه يعتنق رأي

الأشعري: أن الخبز لا يشبع والماء لا يروي والنار لا تحرق!!.. وهذا كله كفر!!

وكان الأشرف قليل الحظ من الثقافة وعلم الدين والاطلاع على آثار السلف.. فما تعلم الا ما علمه ذلك نفر المحيطين به من أراذل فقهاء الحنابلة الذين ينافقونه!

ولم يصدق السلطان أول الأمر أن الشيخ عز الدين يقول هذا وهو العالم الورع عظيم التقوى.. وزجرهم السلطان.. ولكنهم وعدوا السلطان أن يقدموا له الدليل الحاسم.

وأجمعوا أمرهم، وجاءوا عز الدين بن عبد السلام فقدموا اليه ورقة فيها فتيا بأن القرآن حرف وصوت، وطلبوا من الشيخ أن يكتب رأيه في هذه الفتيا، وكان قد علم بكيدهم وهم لا يشعرون!

قال لهم الشيخ عز الدين: «هذه فتيا كتبت امتحاناً لي. والله لا أكتب فيها الا ما هو الحق».

وبدأ الكتابة بتسفيه الفتيا، وتأكيد أن الامام أحمد بن حنبل لا يعتقد أن القرآن حرف وصوت، وقولهم هذا انما هو جهل فاضح برأي الامام أحمد.. واستطرد الشيخ عز الدين فكتب أن الامام أحمد بن حنبل بريء من كل ما يدعون. وأن فضلاء الحنابلة أبرياء منهم. وكذلك سائر السلف: «فهم لا يقولون بالحرف والصوت. فالامام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء السلف الصالح، لا يعتقدون أن وصف الله القديم القائم بذاته هو عين لفظ اللافتين ومداد الكاتبين. مع أن لفظ الله قديم، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل. قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾^(١) والعجب ممن يقول ان القرآن مركب من حرف وصوت ثم

(١) سورة الأنبياء، آية ٢.

يزعم أنه في المصحف ١١ وليس في المصحف الا حرف مجرد لا صوت معه ١١
وانما أتى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله وسخافة العقل وبلادة
الذهن فان لفظ القرآن يطلق في الشرع واللسان على الوصف القديم، ويطلق
على القراءة الحادثة، والقراءة غير المقروءة، لأن القراءة حادثة والقرآن قديم
وهؤلاء القوم يذمون الأشعري لقوله أن الخبز لا يشبع والماء لا يروي والنار
لا تحرق. وقول الأشعري كلام أنزل الله معناه في كتابه: فان الشيع والري
والاحراق حوادث انفرد الرب بخلقها. فليس الخبز هو الذي يخلق الشيع، ولم
يخلق الماء الري، ولم تخلق النار الاحراق، وان كانت أسبابا في ذلك. فالخالق
هو المسبب دون السبب كما قال تعالى: ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله
رمى﴾^(١) فقد نفى أن يكون رسوله خالقا للرمي وان كان سببا فيه.

وعندما ظفروا بجواب الشيخ تمايلوا من الفرح، وأيقنوا أنها القاضية عليه
وأوحوا الى السلطان أن يدعو جميع الفقهاء والعلماء الى سباطه على الافطار
- وكان الوقت رمضان - ففعل، وذهبوا بما كتب الشيخ عز الدين الى
السلطان الأشرف، فانفجر سخطه على الشيخ...! سخط عنيف هائل ينبع من
أعماق نفس امتلأت بالحب والاكبار لشخص رفضت فيه كل الوشائيات
والأقاويل، ثم اذ بها تكتشف بغتة أن هذا الآخر، كان يخدعها ويسخر منها،
ويظن بها الغفلة!!... واختلط غضبه على الشيخ بضيقه المتراكم من سيرة الشيخ
معه، فهو كلما أدناه ابتعد، وكلما قربته هجر، وكلما تألفه نفر...!

وعلى سباط الافطار، ظلت صيحة السلطان تندد بالشيخ عز الدين: «صح
عندي ما قالوه عنه...! هذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد في زمانه في العلم.
والدين، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار... لا... بل من الكفار...!.
ولم يستطع أحد من الفقهاء أو العلماء أن يرد على السلطان الأشرف..

(١) سورة الأنفال، آية ١٧.

وظل صوته يدوي بالوعيد في بهو الطعام بقصره السلطاني. وضيوفه يمشون
طعام الافطار على مهل، ويزدردون المضض، وقلوبهم تدق!!
ما من صوت واحد يرتفع الا أنفاس تلهث، وصراخ السلطان يتصاعد
كحيوان جريح يوشك أن ينقض ليفترس، بكل ضراوة الألم والاهانة وغريزة
البقاء!!

وبعد لأي تجرأ أحد الفقهاء فقال في تذلل: «السلطان أولى بالصفح
والعفو، ولا سيما في مثل هذا الشهر، شهر رمضان». فلم يرد السلطان، وهمهم
آخر ملتصمًا مغفرة السلطان..!

ولم يرد السلطان.. وانصرف الفقهاء والعلماء، وكان معهم على مائدة
الافطار، عدد من العلماء والفقهاء من كل الأقطار.
وتناقل العلماء والفقهاء ما حدث، ولاموا أنفسهم على الصمت في حضرة
السلطان، وهم يعلمون أنه على الباطل، وأن الشيخ عز الدين على الحق الذي
يؤمنون به هم أنفسهم!.

وتحفز الطلاب والمعجبون!

ما عسى أن يصنع السلطان بشيخهم عز الدين؟
أيتهم السلطان الأشرف وهو جاهل بأصول الدين، شيخهم العالم الورع
التقي بالفجر والكفر!!.. أترأه ينزل به عقاب الفجار والكفار وهم
ينظرون!!

واشتعل التوتر في دمشق. وأصبح الناس وما من شيخ من الذين حضروا
المأدبة بالأمس، يستطيع أن يمشي في الأسواق!
احتشد الطلاب حول باب الشيخ عز الدين، وتعهدوا أن يمنعوه اذا حاول
السلطان أن ينزل به أي مكروه.

ولاذ أراذل شيوخ الحنابلة من حاشية السلطان بالقصر، غير أن شيخ
المالكية عمرو بن الحاجب عذبه صمته وصمت الفقهاء الآخرين أمام

السلطان، فركب بغلته وأخذ يطوف المدينة، حتى جمع العلماء في الجامع الأموي بعد صلاة العصر وانقض عليهم يعنفهم: «العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل، وما فيكم من نطق بالحق. وسكتم وما انتصرتم لله تعالى والشرعة المطهرة.

ولما تكلم متكلم منكم قال: السلطان أولى بالعفو والصفح ولا سيما في مثل هذا الشهر!! وهذا غلط يوهم الذنب، فإن العفو والصفح لا يكون الا عن جرم وذنب.. أما كنتم سلكتم طريق التلطف باعلام السلطان بأن ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وأن جمهور السلف والخلف على ذلك، ولم يخالفهم فيه الا طائفة مخذولة يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف الى من يستضعفون علمه وعقله، ومنهم السلطان الأشرف! لقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولام ابن الحاجب نفسه لأنه سكت، وأعلن الندم والتوبة.. ثم اقترح عليهم أن يكتبوا فتيا بموافقة الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وكتبوا الفتيا ووقعوها، وذهبوا الى بيت العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وخاضوا اليه زحام الناس الذين رابطوا عند بيته.

وقبل أن يتدافع الناس لادانتهم على موقفهم أعلن ابن الحاجب، أنهم جاءوا الشيخ بفتيا موقعة منهم توافق رأيه. وهذا هو اعتذارهم له عما فرط أمام السلطان في حق الشريعة وحق ابن عبد السلام.

وفرح الشيخ بموقف ابن الحاجب ومن معه من العلماء والفقهاء.

فأرسل الشيخ الى السلطان يعلمه بفتيا الشيوخ، وأنهم «إذا كانوا قد سكتوا ولم يعلنوا رأيهم على سباط الافطار بالأمس، فما ذلك الا لأن السلطان لم يمكنهم من الكلام لما ظهر من حدة غضبه!»

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

وأنتهى رسالته طالباً من السلطان أن يعقد مجلساً للشافعية والحنابلة يحضره المالكية والحنفية وغيرهم من العلماء لتدور المناظرة أمام الجميع بينه وبين خصومه من فقهاء رجال الحاشية!

ثم ختم رسالته الى السلطان بقوله: «والذي نعتقده في السلطان أنه اذا ظهر له الحق رجع اليه! وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل. فإنه عزز جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيراً بليغاً رادعاً، وبدع بهم وأهانهم».

وذهب ابن الحاجب الى السلطان وسلمه الرسالة. ولم يقرأها السلطان أمامه، ووعد السلطان خيراً ووعد خيراً وداع.

وعندما خلا السلطان الأشرف الى رجال حاشيته من الفقهاء الحنابلة وقرأوا الرسالة أوجسوا خيفة من مجلس المناظرة الذي اقترحه الشيخ عز الدين، فما كانوا يطيقون مواجهته أمام سائر الفقهاء والعلماء. وأجمعوا على ألا تكون مناظرة، ثم وسوسوا في صدر السلطان ألا يقبل عقد المناظرة، فقد يهينه ابن عبد السلام!

وكتبوا ردّاً فوقعه السلطان. واستدعى رسولا يحمل الرسالة الى الشيخ عز الدين ليأتي في الوقت برده.

وفض الشيخ رسالة السلطان وقرأها بصوت مرتفع لسمعها ضيوفه.

«بسم الله الرحمن الرحيم». وصل إليّ ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام أصلحه الله من عقد مجلس وجع المفتين والعلماء، وقد وقفنا على خطه وما أفتى به، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به. ونحن نتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين قال ﷺ في حقهم: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي. وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه، ويتبع الحق، ويتخلص من البدع، اللهم الا ان كنت تدعي الاجتهاد، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى، ولتكون صاحب مذهب

خامس. وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي تغمده الله برحمته، فذلك الحال أنا أعلم به منك، وما كان له سببه الا فتح باب السلامة لأمر ديني:

وجرم جـره سفهاء قوم فحل بغير جانيه العذاب ومع هذا لقد ورد في الحديث: (الفتنة نائمة لعن الله مثيرها). ومن تعرض الى اثارها قاتلناه مما يخلصنا من الله تعالى، ومن يعضده كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

وعندما فرغ الشيخ من قراءة الرسالة طواها وقال للرسول: «قد وصلت وقرأتها وفهمت ما فيها فاذهب بسلام». فرد الرسول: «لقد تقدمت الأوامر السلطانية باحضار جوابها».

والطلاب ومؤيدو الشيخ ما زالوا خارج الدار ينتظرون ما يكون، وقد استبد بهم التوتر والقلق منذ دخل رسول السلطان! وفي داخل الدار يجلس مع الشيخ ابنه عبد اللطيف، وبعض الأصدقاء، وأحد العلماء الفضلاء ممن يغشون مجالس السلطان، وقد أقبل يتوسط بين السلطان والشيخ.. ولكنه لم يكذ يسمع الرسالة حتى تغير لونه وأيقن أنه لا جدوى من وساطته، ودخل في نفسه أن الشيخ يعجز عن الجواب، وأنه هالك لا محالة!

غير أن الشيخ كتب للسلطان مترسلا بلا توقف وهو يقرأ ما يكتبه: «بسم الله الرحمن الرحيم». ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١). أما بعد حمد الله الذي جلت قدرته وعلت كلمته. فان الله تعالى قال لأحب خلقه اليه وأكرمهم عليه: ﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا

(١) سورة الحجر، الآيتان ٩٢ - ٩٣.

يَخْرُصُونَ﴾^(١). وقد أنزل الله كتبه ورسله لنصائح خلقه. فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه. وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملني عليه إلا النصح للسلطان وعامة المسلمين، وقد أدت ما علي في ذلك. والفتيا التي وقعت في هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة، وما يخالف في ذلك إلا رعا لا يعاب بهم! وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب، فإن الأصل واحد، والخلاف في الفروع. والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم...

وختم الرسالة بتوقيعه وطواها وسلمها رسول السلطان.

وقال له العالم الذي جاء للوساطة بينه وبين السلطان: لو أن هذه الرسالة التي وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب، وعدم الصواب، ولكن هذا تأييد من الله.

وتليت الرسالة على السلطان، فألقوا في روعه أن الشيخ يتحداه محتمياً بالعامّة والطلاب وسائر العلماء! فلينزّل بالشيخ عقاب الفجار والكفار! ولكن السلطان لم يستطع فقد وجد كل العلماء حتى فضلاء الحنابلة يؤيدون الشيخ! فما يقف مع السلطان إلا بعض رجال الحاشية من فقهاء الحنابلة وهم الذين أسأهم الشيخ في رسالته: الرعاع، والجهال، واتهمهم بالبلادة والاساءة الى الامام أحمد بن حنبل!

وفكر السلطان ملياً، ثم استدعى وزيره واسمه خليل ليشاوره في الأمر، وكان الرجل من الذين يحبون الشيخ عز الدين ويحترمونّه. وما زال الوزير يخاور السلطان ويوضح له سوء عاقبة البطش بالشيخ حتى هدأ السلطان.

وذهب خليل وزير السلطان الى الشيخ العز يبلغه أمر السلطان: «ألا يفتي، وألا يجتمع بأحد، وأن يلزم بيته».

(١) سورة الأنعام، آية ١١٦.

وحاول الوزير خليل أن يهون على الشيخ عز الدين، فهذا العقاب أخف مما كان معداً له.

غير أن عز الدين ابتدره باسمًا: «ان هذا العقاب من نعم الله الجزيلة علي، الموجبة للشكر على الدوام.

أما الفتيا فاني كنت والله متبرما منها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم. ومن سعادتي لزومي لبيتي وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطئه، واشتغل بطاعة الله».

وأراد الشيخ أن يقدم هدية للرسول شكرًا على هذه الرسالة السارة، فلم يجد إلا سجادة صغيرة.

ولما عاد خليل يروي للسلطان ما قاله الشيخ عز الدين قال السلطان محققًا: «قولوا لي ما أفعل به؟!.. هذا رجل يرى العقوبة نعمة. اتركوه. بيننا وبينه الله».

على أن الذين أحاطوا بدار الشيخ العز عز الدين لحراسته أنكروا عليه طاعته لأمر السلطان، وكلموه في ذلك فقال لهم ان مصلحة قيام الشرع تقتضي وجود السلطان، ومتى وجد وجبت طاعته والا تعطلت الأحكام!! ولكن لا طاعة للسلطان اذا خان عهد الله وأهدر مصالح المسلمين وأمر بمعصية الخالق. أما فيما عدا ذلك فالطاعة واجبة.

وعجب له محبوه،

فأمرهم بالحسنى أن ينصرفوا الى شؤونهم ويدعوه وشأنه، فسيكتف للعبادة.. أما وجودهم حول الدار فسيتيح لأعدائه أن يتهموه باثارة الفتنة! غير أنهم انصرفوا الى الزاوية الغزالية التي كان يدرس بها، وأقسموا ألا يسمعوا لشيخ غيره!.

وجلسوا في حلقة الفارغة متربصين! ولم يجئ اليهم أستاذ غيره يعلمهم

مكانه!!

على أن سائر العلماء والفقهاء أضمرُوا السخط على ما أصاب الشيخ، ولكنهم رضوا به لأنهم كانوا يتوقعون عقاباً أشد ودعوا الناس إلى الصبر. وقضاء أخف من قضاء!!

أما الشيخ جمال الدين الخضيري شيخ الحنفية فما كان ليستطيع على ما جرى صبراً!! وكان عالماً ورعاً فاضلاً صاحب نفوذ على قلوب الناس جميعاً، وكان السلطان يحسب له ألف حساب!

وما هي الا ثلاثة أيام قضاها عز الدين في بيته، ممثلاً للأمر السلطاني، ممتنعاً عن لقاء من سعوا إلى لقائه، حتى كان الشيخ الخضيري يركب حماره إلى السلطان، ومعه ابن الحاجب شيخ المالكية. ولم يكذ السلطان يعلم أن الشيخ الخضيري شيخ الحنفية قادم إليه حتى أمر كبير وزرائه وكبار حاشيته أن يستقبلوا الشيخ خارج القصر، وأن يدخلوه القصر راكباً حماره تكريماً له.

ودخل الشيخ ساحة القصر، فاستقبله السلطان وأنزله بنفسه عن حماره، وأدخله القصر وأجلسه إلى جواره وهش له، وجلس ابن الحاجب وفي يده ورقة فيها توقيع العلماء على تأييد موقف الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

وحين أذن لصلاة المغرب وبسطة المائدة للافطار، أم الشيخ الخضيري السلطان والحاضرين في الصلاة!

وبعد الصلاة دار الشراب عليهم وهم جلوس قبل أن ينتقلوا لمائدة الطعام. وكان الحاضرون هم حاشية السلطان من أراذل فقهاء الحنابلة أعداء العز بن عبد السلام.

وقدم السلطان للشيخ قدح الشراب، فنحاه بإشارة غاضبة قائلاً: «ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك».

فقال السلطان: «يرسم الشيخ ونحن نمتثل لمرسومه».

الشيخ: «أيش بينك وبين ابن عبد السلام؟.. هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي على السلطان أنه يسعى في حلوله في بلاده،

ويفخر به على سائر الملوك».

السلطان: «عندي خطه باعتقاده في فتيا، وخطه أيضاً في رقعة جواب رقعة سيرتها اليه. فيقف الشيخ عليها ويكون الحكم بيني وبينه».

فلما قرأ الشيخ الخضيري رسالتي عز الدين بن عبد السلام رد الورقتين للسلطان وقال: «هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين، وكل ما فيها صحيح ومن خالف ما فيها وذهب الى ما قاله الخصم من اثبات الحرف والصوت فهو حماراً».

ويهب الجميع فالشيخ يتهم السلطان بأنه حمار.. وريع السلطان من حدة الشيخ الخضيري، ونظر الى ابن الحاجب المالكي، فقدم اليه ورقة يؤيد فيها العلماء رأي ابن عبد السلام! ونظر الى الحاشية من فقهاء الحنابلة ووجدتهم قد اسودت وجوههم وعراهم الاضطراب. فقال السلطان الأشرف: «نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارط في حقه!.. والله لأجعلن ابن عبد السلام أغنى العلماء».

وقاموا الى الافطار، ثم أرسل السلطان الى الشيخ عز الدين، فترضاه وأجلسه الى جواره وسأله أن يطلب ما شاء ترضية له، فلم يطلب عز الدين شيئاً. ولكن السلطان ظل يستعبه ويسترضيه، حتى رضي الشيخ وعاد اليه مرحة.. وانزوى الأراذل من خصومه، وأذن للعشاء فأهمهم الشيخ عز الدين لصلاة العشاء استجابة لدعوة الخضيري وابن الحاجب.

وقبل أن ينفض المجلس أمر السلطان ألا يخوض أحد في الكلام في أمر الخلاف مرة أخرى.

وفي اليوم التالي عاد الشيخ عز الدين الى الزاوية الغزالية بالجامع الأموي يدرس ويفتي، واستقبله محبوه هاتفين.. «الله أكبر.. الله أكبر.. ظهر الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً».

وعلم الملك الكامل سلطان مصر بما كان، فأرسل يسأل العز ويبدى استعداداه لنصرته.. فشكره الشيخ ولم يحك له ما جرى.

وجاء الملك الكامل سلطان مصر، لزيارة أخيه الملك الأشرف سلطان دمشق. وسأل الملك أخاه عما حدث من خلاف بين الشافعية وبعض الحنابلة فقال الأشرف إنه قد أمر الفريقين بأن يكفيا عن الكلام سداً لباب الخصام. فقال الملك الكامل ناهراً أخاه الأصغر: «والله مליح..! ما هذه الا سياسة وسلطنة..!! تساوى بين أهل الحق وأهل الباطل، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ كان الطريق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم، وأن يظهروا دين الله تعالى، وأن تشق من هؤلاء المبتدعة عشرين نفساً ليرتدع غيرهم، وأن تمكن الموحدين من ارشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين».. وذاب الملك الأشرف خجلاً، وظل يعتذر عما بدر منه. فاتهمه أخوه الأكبر بالجهل، ونصحه أن يجلس الى الشيخ عز الدين ليعلمه أصول الدين، وما زال به حتى أقنعه بصحة رأي الأشعرية وفساد رأي حاشيته. وأوصاه بعز الدين خيراً فأرسل الأشرف في استدعائه. وأخذ الملك الكامل يتلطف مع عز الدين أمام أخيه الملك الأشرف، ويسأله أن يتمنى عليه ما يشاء، وعز الدين يشكره ويحمد الله اليه ولا يطلب شيئاً.

ووقع الأشرف مرسوماً بتعيين الشيخ عز الدين خطيباً للجامع الأموي ليزيد النفع بعلمه.

وقال الأشرف لأخيه الكامل: «لقد غلطنا في حق الشيخ عز الدين بن عبد السلام غلطة عظيمة. ولكنني أترضاه ولن أعمل الا بفتاويه».

اقتنى السلطان الأشرف رسالة كتبها الشيخ عن مقاصد الصلاة، فكانت تقرأ عليه في اليوم ثلاث مرات، ولا يدخل عنده أحد الا طلب منه أن يقرأها لينفعه الله بها. وكان يقول لبعض خاصته: «انسخوها وطرزوا بها مجالسكم».

اطمأن الكامل الى أن أخاه الأشرف قد أصلح عقيدته، وأبعد من حاشيته الفقهاء المتملقين المنافقين البلداء المرتشين من أراذل الحنابلة.

وأصبح له مجلس أسبوعي من فضلاء الحنابلة وعلماء المذاهب الأخرى

يتدارسون فيه الفقه وأصول الدين .

وجاءه الشيخ عز الدين مستجيباً لدعوته، وكان من قبل يجيبه، فاقترح عز الدين أن يرفع السلطان الضرائب التي تثقل الصناعات والتجار والفقراء، وأن يعوضها بضرائب على الأغنياء، واقترح عليه أن يغلق المواخير والحانات ودور الفساد، فاستجاب السلطان الأشرف من فوره لما طلبه الشيخ.

أشار الكامل على أخيه الأشرف أن يعين عز الدين قاضياً للقضاة ليصلح له أمور الرعية، فتردد الأشرف، على الرغم من أن إشارة أخيه الأكبر كانت أمراً بالقياس إليه !.

وقال الأشرف إنه يخشى من عناد عز الدين وشدة إذا هو تولى أمر القضاء وأصبحت أحكامه واجبه النفاذ!!.. فضحك الملك الكامل، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء الا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخافون في الله لومة لائم. لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنارات العدل، وهم أخرى بأن يجعلوا السلطان قوياً وفاضلاً ومحبباً عند الرعية، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزرون بهيبة الدين !!

وروى الكامل لأخيه قصته مع قاض مصري ورع شديد في الحق: ذلك أن الملك الكامل وهو الملك المهذب الصالح، كان قد هفا قلبه الى مغنية قاهرية بارعة الجمال ذات صوت لم يسمع أعذب منه اسمها عجبية. وكانت عجبية تذهب الى الملك، فتغني له ولخاصته حتى قبيل الفجر، على قرع الدف، ورنة عود تتقن العزف عليه، فعرضت أمام القاضي دعوى كان أحد طرفيها رجل من خاصة الملك يسمع معه الى غناء عجبية وجواربها. وأراد الملك أن يشهد في تلك القضية. فرفض وقال للكامل: «السلطان يأمر ولا يشهد». ولكن الملك الكامل لم يقتنع برأي القاضي، وعاد يطلب منه أن يؤدي الشهادة، وكرر القاضي الاعتذار، وأدرك الكامل أن القاضي لا يقبل

شهادته، فسأله: «أريد أن أشهد. أتقبلني أم لا؟»، فقال القاضي: «لا. ما أقبلك، وعجبية المغنية تطلع اليك كل ليلة، وتنزل ثاني يوم بكرة تتأيل سكرًا على أيدي الجواري».

فغضب الكامل وقال له: يا كنواج «وهي شتمة فارسية» فقال القاضي: «ما في الشريعة يا كنواج! اشهدوا على أني عزلت نفسي». ومضى ينشد في الناس:

وليت القضاء وليت القضاء لم يك شيئًا توليته
وقد ساقني للقضاء القضاء وما كنت قبل تمنيته
وفكر الملك فيما عسى أن يقول الناس عن سبب عزل القاضي. فأرسل اليه يترضاه، وعدل عن طلب الشهادة. ولم يعد يستقبل المغنية ولا يقيم مجالس طرب. وسار في رعيته منذ ذلك اليوم سيرة تقية فاضلة، وهكذا أصبح وعظما ورع قاض حازم عادل، فأصبح الملك باتعاظه مهابة محبوبًا.

روى الملك الكامل لأخيه الأصغر الملك الأشرف هذه الحكاية، وأقنعه أن وجود عالم فاضل عادل قوي الى جوار الملك انما هو أقوم للسلطان والرعية جميعًا.

ولكن السلطان الأشرف وعد بتعيين الشيخ عز الدين قاضيًا للقضاة، ثم تراخى.

وأراد الملك الكامل أن يؤكد لأخويه الأشرف والصالح اسماعيل، ما للشيخ العز من مكانة وتقدير. فدعاه في حضورهما وبالغ في حسن استقباله، وأجلسه الى جواره وأخذ يستفتيه. وكلما أفق الشيخ أبدى الملك اعجابه بالفتيا، وسأله الرضى والدعاء. ثم قال له مشيرًا الى أصغر الاخوة الصالح اسماعيل: «ان هذا له غرام برمى البندق، فهل يجوز له ذلك؟»، فقال الشيخ: «بل يحرم عليه. فان رسول الله ﷺ نهى عنه لأنه يفقأ العين ويكسر العظم ويحرم عليه»، والبندق كور صغيرة من الرصاص أو الحجر تستعمل في الصيد!!!

العِزّ يعلن الثورة...
على السلطان...
الصالح إسماعيل...
ويدمغه بالخيانة العظمى...؟!!

شخصية جميلة... غلابة... قاهرة!!!
ففي الوقت الذي أصبح فيه العزّبن عبد السلام... متربعا على
أعلى مناصب الدولة... قاضي القضاة...
إذا به يُضَحّي بأوضاعه كلها... ويعلن خيانة السلطان الصالح
اسماعيل... ملك دمشق... لأنه حالف الفرنج وفتح لهم دمشق ليشتروا
منها السلاح!!!
لم يحرص على مناصبه... أعلى المناصب... ولكن سُحِّقا
للمناصب... وسُحِّقا للدنيا بزيتها... اذا تعارضت مع ما يُرضي الله
تعالى!!!
وها هنا العظمة من هذا العالم الجليل الرائع!!!
فلو أنَّ عالما من علماء اليوم ووجه بهذه الفتنة... لتَلَوَّب من حولها
إيثارا لمناصبه...
ولكن العزّ طراز من العلماء رفيع... إمّا انتصار الحق... وإمّا
التضحية بكل شيء!!!
سوف نرى في هذا الفصل... روائع العزّ... وبدائع نضاله ضد
خيانة السلطان...

قال عبد الرحمن الشرقاوي ... رحمه الله ... في كتابه «الأئمة التسعة» :

★ ★ ★

«وعاد الملك الكامل الى القاهرة، ومرض الملك الأشرف، فأبواب عنه ولي عهده الصالح اسماعيل. وكان الشيخ عز الدين كما تعود من قبل يغشى مجالس السلطان ولا يزوره، ولكنه عاده في المرض، فبلغ التأثير من نفس السلطان أعظم مبلغ حتى بكى، وسأل الشيخ أن يعفو عنه لما فرط منه في حقه، فدعا له الشيخ وأمر السلطان ولي عهده الصالح اسماعيل ألا يستفتي غير الشيخ عز الدين وأن يستهدي بآرائه.

غير أن الصالح اسماعيل، لم يقرب الشيخ ولم يدعه اليه.. ففتيا الشيخ بتحريم الرمي بالبندق آلمته!

على أنه أهدر هذه الفتيا منذ أصبح سلطانا، وجمع حوله خصوم الشيخ من الأراذل والبلداء الذين ينتحلون الفقه الحنبلي ويشوهونه!

وأقصى الصالح اسماعيل غنه الفضلاء من العلماء الحنابلة، وانصرف الى اللهو، وأعاد ما أبطله أخوه من المنكرات: ففرض على التجار والصناع وأرباب الحرف والفقراء كثيرا من المكوس والضرائب التي كان أخوه الأشرف قد رفعها عنهم!

وأحاط به النخاسون الكبار وأغنياء تجار الرقيق، فأعاد فتح الخانات والمواخير!..

وأحيا كل المفاسد والبدع التي كان أخوه الأشرف قد أماتها استجابة لطلب عز الدين!..

وكان الصليبيون الفرنجة والتتار الطامعون في الاستيلاء على أرض العرب

قد عرفوا ولع الصالح اسماعيل بالنفائس وبالتحف الفاخرة والخمرة الغالية والجواري الحسان، فطفقوا يقدمون اليه الهدايا النادرة، حتى بادهم الهدايا ونشأت بينه وبينهم ألفة ومودة.. ولقد دسوا اليه من الجواري الحسان مَنْ أصبحن غيونا عليه، فكن لا يبرحن مجالسه في لهو أو جد، ويطلعن على كل أسرارهم، وهو بهن سعيد!

وفسد الأمر في دمشق، فأرسل أهل الغيرة فيها يشكون الملك الصالح اسماعيل الى أخيه الأكبر الملك العادل سلطان مصر. فسار على رأس جيش الى دمشق، وأبطل المفسد ورفع المكوس والضرائب الظالمة عن كاهل الصانع وأرباب الحرف والفقراء والتجار، وعين الشيخ العز بن عبد العزيز بن عبد السلام قاضيا، صونا للعدل، وحفظا للشريعة، وضمانا لصلاح الأمر، وأذعن الأشرف لأمر أخيه الأكبر.

وكان على الشيخ عز الدين، أن يضع على رأسه أكبر عمامة في الدولة: عمامة قاضي القضاة، صاحب أكبر منصب ونفوذ.. الرجل الذي يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه!

ورأى الشيخ عز الدين أن يتحلل من التقاليد، فطرح العمامة كبيرها وصغيرها، ووضع على رأسه طاقية من لباد مصر وهي غطاء الرأس الذي لا يستعمله الا فقراء الناس في مصر والشام. وكان من قبل عندما عين خطيبا للجامع الأموي، قد طرح الرداء الأسود الذي ألف خطباء الجامع ارتدائه وعدل عن صعود المنبر بالسيف، وعن ترصيع الخطبة بالسجع.

ها هو ذا الشيخ عز الدين، يجمع كل وسائل النفوذ وأدواته: فهو خطيب الجامع الأموي، وأكبر المفتين، وهو شيخ حلقة، يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة، ثم هو الى كل ذلك قاضي القضاة، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضي به، والا أثموا شرعا، واختل ميزان الأمور، فتهرأت الدولة!

والشيخ يجد ويصطنع الاجتهاد في دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وينشط في قضائه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة واجماع الصحابة، والقياس الصحيح وتحري مصالح الأمة التي هي مقصد الشريعة، حتى لقد صح عند الشيخ ابن الحاجب المالكي وهو واحد من أفاقه علماء دمشق أن يقول «لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفاقه من الغزالي، الا الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام».

وظل الشيخ عز الدين يعمل على اماتة البدع، واحياء السنن في كل ما يصدر من أحكام، وما يلقي من دروس وخطب، وما ينشئ من فتاوى. وقال: «طوبى لمن ولي أمرا من أمور المسلمين، فأعان على اماتة البدع واحياء السنن».

وكان الصالح اسماعيل عندما أحس أن أخاه سيعزله، قد لاذ بالشيخ عز الدين معلنا التوبة، متعهدا بحسن السيرة ان هو بقي على عرش دمشق. وما زال بالشيخ يستعطفه ويستشفعه والشيخ يشترط عليه شروطا حتى قبل الشيخ أن يتوسط له، وضمنه الشيخ عند الملك الكامل فأبقاه سلطانا على دمشق.

ولكنه لم يكذ يستقر على العرش حتى عزل الشيخ عز الدين عن منصب قاضي القضاة.. فقد مات الملك الكامل!!

وخلف الملك الكامل على ملك مصر ابن له، ولكنه أساء السيرة في الناس، وخضع لحاشية من الجوارى والمماليك والعلماء، وغلبه الضعف، ولعبت به الأهواء، فوثب عليه أخوه نجم الدين وهو رجل صارم وتولى ملك مصر باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ما برح التتار والصليبيون يراقبون في يقظة كل ما يجري في دولة صلاح الدين التي حولها ورثته من الأبناء وأبناء الأخوة ضياعا خاصة لهم، فوهنت وتداعت وتمزقت! فطمع التتار في العراق، وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر والشام وفلسطين، وبصفة خاصة بيت المقدس!.. واضمحلت برقة

والجزيرة العربية.

وحصن الملك الصالح نجم أيوب مصر وسد ثغورها بعسكر كثيف، ودعم فيها القلاع، وأرسل الى عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق، يطالبه بأخذ العدة لمواجهة ما عسى أن يفعله الصليبيون الفرنج، ولكن اسماعيل كان مشغولا بمراسلتهم وتبادل الهدايا معهم، والاستمتاع بأموالهم وجواريهم.. فأنفذ الملك الصالح نجم الدين أيوب حملة الى الشام ليضمها الى مصر.

وهرع اسماعيل سلطان دمشق الى الفرنج، فحالفهم وفتح لهم دمشق ليشتروا منها السلاح، وكان سلاح دمشق معروفا بأنه أمضى سلاح - ومضى الى سائر أمراء الشام ليضمهم الى حلفه ضد ابن أخيه ملك مصر، فحالفه صاحب حصص..

واضطرب الناس في دمشق مذ رأوا الصليبين يدخلونها ويتجولون في أسواقها يشترون السلاح. وترك الشيخ عز الدين حلقة في الجامع الأموي، ومضى يخوض في الشعب المتزاحم في الطرقات ويفتيهم أن بيع السلاح للفرنجة حرام، وكل بيع لهم حرام. فمن ارتكب من ذلك شيئا فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له، ودمه مهدر، وماله مباح!..

ومضى الشيخ ابن الحاجب المالكي يفتي بمثل ذلك. وطلق الشيخان يحرضان التجار على الامتناع عن البيع للفرنجة، ويحرضان الناس على قتال من يبيعهم السلاح فأصبح الفرنجة وهم لا يجدون من يتعامل معهم من تجار دمشق، وحتى الذين تعاملوا معهم من قبل آثروا العافية ورفضوا التعامل بعد!..

وغدت دمشق ذات صباح تتناقل أنباء ما صنعه سلطانها مع الفرنج، فقد جيش معهم الجيوش، وقرروا أن يسيروا معا الى مصر ليكسروا الحملة التي أنفذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأن يواصلوا الزحف فيستولوا على مصر كلها.

وفي مقابل مساعدة الفرنج لسلطان دمشق، نزل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدنا أخرى..!!
وعندما تحققت هذه الأنباء، وقف الشيخ عز الدين يخطب الجمعة فأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام. وختم خطبته داعيا:
«اللهم أبرم لهف الأمة ابرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك».
وهدرت حناجر المصلين: «آمين.. آمين».

والتقى الشيخ عز الدين بالشيخ ابن الحاجب، فأصدرا فتيا بخيانة السلطان وبخلع طاعته.

ولم يطلبوا من أحد التوقيع معها على الفتيا حفظا لسائر العلماء من أن يؤذيهم السلطان.. اذ كان قد أنذر مخالفه بعذاب عظيم، ووعد مؤيديه بحسن الجائزة ووفرة المال وعلو الشأن!. على أن الخطباء والعلماء امتنعوا عن الدعاء للسلطان من على المنابر بعد خطبة الجمعة. وهكذا تجاهلوا وجوده..!
وأرسل بعض حاشية السلطان اليه وهو غائب عن دمشق بما كان من أمر الشيخ العز والشيخ ابن الحاجب، فأمر بسجنهما وأمر حاشيته من أراذل الخنايلة باسقاط شأنهما في عيون الرعية.

وسجن الشيخان، وأصدر بعض هؤلاء الأراذل فتيا ضد الشيخين واتهموا كليهما بآثارة الفتنة، وطالبوا الرعية بالطاعة السلطان لأن معصيته خروج على الشرع، وهو أدري فيما يأخذ وما يدع بمصالح المسلمين. واتهموا الشيخين بالغرض والحسد وسوء النية والحقده على السلطان: فأما الشيخ عز الدين فلأن السلطان عزله عن منصب قاضي القضاة، وأما الشيخ ابن الحاجب فلأنه طمع في المنصب ولم ينله..!!!! فكلاهما موتور لأنه حرم من المنصب الكبير والراتب الوفير..!

ولم يكن أي الشيخين يملك الدفاع عن نفسه في السجن، ولكن الناس لم

يصدقوا، واشتعل غضبهم على السلطان وحاشيته، ومضوا يسألون في الأمر
شيوخهم، فأيد الشيوخ بمن فيهم الحنابلة، رأي الشيخين، لم يشذ عنهم أحد،
الا البلداء منتحلو الفقه الحنبلي من أراذل حاشية السلطان!

وعاد السلطان الى دمشق بجيش كبير، فوجد عددا ضخما من الناس
يحيطون بالسجن ويحاولون تحرير العز وابن الحاجب من وراء الأسوار، فأمر
باطلاقها، وملأ طرقات دمشق بالعسكر، وبث الجواسيس في كل مكان حتى
المساجد!

وهدأت الثورة عن السلطان، فأمر باقالة العز من كل مناصبه، من
التدريس والخطابة، وأمره «بملازمة داره، وألا يفتي، ولا يجتمع بأحد البتة».
وتقدم أحد العلماء من أصدقاء السلطان والعز معا فاستأذن للعز «في صلاة
الجمعة - وكان العز لا يترك صلاة الجماعة - وفي أن يعبر اليه طبيب أو مزين
إذا احتاج اليها، وأن يعبر الى الحمام، فأذن له السلطان».

وكان العز في معتقله بداره يقرأ القرآن ويكرر تلاوة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾^(١).

فأرسل الى السلطان صديقها المشترك، وهو ذات الصديق الذي حاول أن
يصلح بينه وبين السلطان الأشرف خلال فتنة الحنابلة. أرسل العز هذا
الصديق الى السلطان ليأذن له بمغادرة دمشق ومملكته جميعا.

وأطربت السلطان فكرة الخلاص من الشيخ، ولكنه لم يستجب لطلبه
بسهولة، وذهب الوسيط وعاد مرات في ذات اليوم، والسلطان يتشدد ويلين
ويشترط ويتنازل، حتى أذن آخر الليل للشيخ بالهجرة، على أن ينهض من
فوره فيكون خارج دمشق قبل الفجر!!

ورش السلطان جنوده وبث عيونهم في كل الطرقات المؤدية الى دار الشيخ

(١) سورة النساء، آية ٩٧.

والى خارج دمشق تحرزا من معرفة الناس بهجرته والاحتشاد لوداعه .
وأحضر الصديق للشيخ بعض الدواب ، فحمل عليها أهله وكتبه ، وركب
في الطريق الى القاهرة .

ولقي الشيخ في سفره هذا نصبا وكثيرا من الخطوب . فقد مر ببلاد
يحكمها حلفاء للسلطان من أمراء بني أيوب ، وبلاد أخرى يحكمها أنصار لملك
مصر نجم الدين أيوب .

كابد الشيخ في رحلته صنوفا من الإنكار والتهديد ، وألوانا من الخفاوة
والترحيب . وهو لا يفتأ كلما اجتمع بأحد من الخصوم والأنصار قائما يدعو
الى الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين الفرنج وحلفائهم من الأمراء المسلمين ،
منكرا موقف صاحب دمشق ومن والاه من الأمراء ، ودور منتحلي الفقه ،
مزريا بصمت الصامتين عن هذا كله ، متهاياهم بالبلادة والخور والنذالة !

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما كان من أمر أبيه : « انتزع منها
(دمشق) الى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه
الطريق ، وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل
الى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الملك الصالح اسماعيل والملك المنصور
صاحب حصص - حليف اسماعيل ضد نجم الدين أيوب - ، وملوك الفرنجة
بمسأكرهم وجيوشهم الى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح
اسماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله وقال له : تدفع منديلي الى الشيخ ،
وتتلف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعدده بالعودة الى مناصبه على أحسن
حال ، فان وافقك فتدخل به علي ، وان خالفك فاعتقله في خيمة الى جانب
خيمتي ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له :
« بينك وبين أن تعود الى مناصبك ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان
وتقبل يده لا غير » . فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي
فضلا عن أن أقبل يده .. » يا قوم أنتم في واد وأنا في واد . والحمد لله الذي

عافاني مما ابتلاكُم به». فقال: «قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك والا اعتقلتك». فقال الشيخ: «افعلوا ما بدا لكم». فأخذه واعتقله في خيمة الى جانب خيمة السلطان. وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه فقال يوما للملك الفرنج: «تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن». قالوا: «نعم». قال: «هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لانكاره تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء الى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم». فقال ملك الفرنج: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله وشربنا مرقتهما».

ثم جاءت العساكر المصرية، ونصر الله الأمة المحمدية، وقتلوا عساكر الفرنج.

أطلق سراح الشيخ، فانطلق في طريقه الى القاهرة فبلغها عام ٦٣٩ هـ بعد عام كامل من الأهوال والخطوب في الطريق إليها.

السلطان الملك الصالح ...
نجم الدين أيوب ...
يخرج على رأس الكبراء ...
لاستقبال البطل في القاهرة...؟!!

ما أعظم هذا !!!
هذا يوم من أيام الله !!!
لقد خرج العزّ بن عبد السلام من بيته بدمشق مهاجرا الى الله ...
فعَلِمَ الله ما في قلبه ... فأثابه نصرا عزيزا ... وفتحنا مينا !!!
ها هي القاهرة ... العاصمة العظمى ... تهتز في زينتها ... استعدادا
لاستقبال البطل الأسطوري !!!
الرجل الذي قال لسلطان دمشق: مكانك أيها الخائن ... كيف تتفق
مع الفرنج ضد المسلمين؟!
- أمّا هذه المناصب التي أشغلها ... فما هي أقذفها في وجهك القبيح
غير آسف على فقدانها !!!
إنّ الشعب المصري أحسنّ بغريزته الصادقة ... أنّ العزّ كان
رجّلا !!!
فخرج يحمي في شخصه القيم العليا ... والصفات الحُسنَى التي يحبها
الله !!!
وإنّ أعظم صفة تكون في انسان ... أن يُحب ما يُحب الله ...
ويكره ما يكره الله !!!

وكان هذا متحققا في شخصية العزّ بن عبد السلام... حيّاه الله...
وأكرمه في مثواه!!!
قال عبد الرحمن الشرقاوي:

★ ★ ★

وكان مقدم الشيخ عز الدين الى القاهرة يوما من أيام الزينة، فقد احتشد الناس الذين سمعوا به في أبهى ملابسهم، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ على الباب الشرقي للقاهرة، وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبنائوه بدل المطايا المنهكة..

وعجب الناس للشيخ عز الدين: فهذا العالم الذي تحدى أمراء بني أيوب وملاً أطباق الأرض بأرائه وفتاواه، ليس ضخماً ولا خفيفاً بل هو نحيل خشن الثوب، وما على رأسه عمامة الفقهاء والعلماء بل اللبدة التي يرتديها العامة والفلاحون في مصر! انه لشديد الحياء خفيف الصوت..!

وسار الموكب يزف الشيخ بالتهليل والتكبير، والسلطان الى جواره ومن خلفه أمراء الدولة والأعيان والعلماء.

وانتهى الموكب الى حديقة واسعة غنّاء فيحاء تتوسطها دار فسيحة.

وودعه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلاً: « هذه هي دارك يا شيخ عز الدين بن عبد السلام. وهي ليست هبة مني ولا من بيت المال، ولكن أهل مصر اشتروها لك نفعهم الله بك، ونفع بك الاسلام والمسلمين أيها الامام ».

وتجولت الزوجة في الدار وهي لا تستطيع أن تغالب فرحها... أخيراً ها هو ذا البستان الذي حلمت أن تعيش فيه.. ولكنه أجل مما حلمت به

وأفسح. وهو، بعدُ، يقع على النيل ١١

وفرّح الجميع بالأثاث الفاخر، ورقائق الزجاج الملون، والمصابيح الجميلة المتناثرة.

وشعر الشيخ أن هذا المكان الهادئ، يمكن أن يمنحه من صفاء الذهن وراحة البال ما يتيح له كتابة ما لم يستطع أن يكتبه في دمشق. استراح في البيت يوما وليلة.. ثم بدأ يستقبل الزوار. وتعرف على علماء مصر وفقهائها وشيوخها، وتبادلوا الرأي.

وجاءه رسول السلطان يبشره بصدور الأمر بتعيينه اماما وخطيبا لجامع عمرو. فأثنى الحاضرون على قرار السلطان. وكان جامع عمرو قد أصبح منذ عهد صلاح الدين بديلا للأزهر الذي عطل صلاح الدين التدريس فيه في حربه على الشيعة الذين بنوا الأزهر.

وخلال زيارة رسول السلطان للشيخ العز بحضور عدد من الفقهاء والعلماء منهم شيوخ المذاهب الأربعة، قال الشيخ المنذري. مفتي مصر للحاضرين: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتي أحد وهو بيتنا». وهكذا أصبح الشيخ عز الدين مفتي مصر.

وأراد السلطان أن يعينه قاضيا للقضاة على أن يختار الشيخ نوابا له. فطلب الشيخ أن يمهله بعض الوقت حتى يحسن التعرف على العلماء والقضاة وأحوال الناس في مصر. ولكن السلطان كان يلح عليه. وبعد فترة وجيزة قبل الشيخ منصب قاضي القضاة وعين نوابه بنفسه.

ولم يكد يتولى المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر، وليسوا أحرارا على الإطلاق، بل هم مجلوبون، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات، وعندما شبوا عينهم في مناصبهم. فهم أمراء مماليك أرقاء اذن، وليس لهم حقوق الأحرار. ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر

النساء - وكانوا قد تزوجوا من حرائر نساء مصر - وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا الا كما يتصرف العبيد ا.

وبدأ قاضي القضاة يطبق عليهم من أحكام الشريعة ما يطبق على العبيد ا
وبهت الملك بما صنعه الشيخ، فذهب اليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه،
فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء فليس هذا للسلطان، فان شاء أن
يتدخل فالشيخ يقبل نفسه ا.

وكان السلطان رجلا قوي الشكيمة، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بالأمر ا.
لقد أبطل الشيخ كل ما أبرمه الأمراء المماليك من عقود البيع والاجارة..
وحتى عقود الزواج اا.

واضطرب الأمر بالمماليك: فالزوجات يهجرن فراش الزوجية، ويغاملن
أزواجهن كالغرباء، والتجار يعودون في الصفقات، والصبية يطاردون الأمراء
المماليك بكل هيبتهم ويعيرونهم بأنهم عبيد ا.. وكان الناس يذوقون الأهوال
من صلف الأمراء اا.

وصف السيوطي في « حسن المحاضرة » تلك الحالة بقوله: « تصدى - الشيخ
عز الدين - لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم
أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فعظم الخطب
عندهم، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا (زواجا)،
وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جللتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبا،
فاجتمعوا وأرسلوا اليه فقال الشيخ: « نعقد لكم مجلسا وننادي عليكم (بالبيع)
لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر الى السلطان، فبعث اليه فلم يرجع، فأرسل
اليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب وقال: « كيف ينادي
علينا هذا الشيخ، ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا ». فركب
بنفسه في جماعته، وجاء الى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب،
فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، وشرح له الحال، فما

أكثر ذلك، وقال: «يا ولدي. أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله»، ثم خرج فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال: «يا سيدي ايش تعمل؟»

- أنادي عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

- فم تصرف ثمننا؟

- في مصالح المسلمين.

- من يقبضه؟

- أنا.

انصرف نائب السلطنة الى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ.

ولم يذعن السلطان، فأرسل الى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لم يسمح ببيع الأمراء، وأمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين! وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل في أمور الدولة فشؤون الأمراء لا تتعلق به. بل بالسلطان وحده!!

البطل يغادر مصر ...
والجماهير تحاول منعه ...
والسلطان يعتذر إليه ...
« لا تُفارقنا » ؟!...

هل هو أسطورة من أساطير الأولين؟!
كلا... وإنما هو الحق في صورة رجل!!!
لقد أصبح حديث الناس في مصر... لقد قام في مصر بطل يخاف
الله... ولا يخاف أحداً إلا الله!!!
قال عبد الرحمن الشرقاوي:

★ ★ ★

« وأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء وقام فجمع أمتعته ووضعها على
حمار، ووضع أهله على حمار أخرى، وساق الحمير ماشيا...
الى أين يا شيخ؟..
قال: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾^(١)!..
فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة، ويعتدى فيها على القضاء؟
وتجمع الناس وراءه.. وكلما سار في طريق تزاحم الناس عليه يحاولون منعه

(١) سورة النساء، آية ٩٧.

من الهجرة، فهو أملهم في مواجهة مظالم الأمراء المماليك، فلکم عانى التجار والصناع وسائر الناس من صلفهم، وما هم أولاء يرون فيهم يوما من أيام الانكسار على يد هذا الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام.. فلماذا يتركهم الشيخ..؟ ولمن يكلهم..؟ الى هؤلاء الأفراد العبيد المتغطرسين من جديد..؟ أحاط الناس بموكب الشيخ وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم، فقد عرفوا في قضائه قوة الانتصار للمظلوم، وهيبة العدالة، خلال تلك الأشهر القلائل التي ولي فيها المنصب..

ولكن الشيخ مضى في طريقه لا يبالي..

سار الشيخ أميالا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحين ساخطين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء اذ لم يتخلف عن اللحاق به «امرأة ولا صبي ولا رجل ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم».

وبدا أن هذه الجموع ستذهب في تحدي السلطان الى أبعد مدى.. ولئن هي رجعت بغير الشيخ لتثيرن الدنيا على السلطان حتى الذين هم تحت التراب! وعلم السلطان بما يجري، وقال له أحد ناصحيه: «تدارك ملكك والا ذهب بذهاب الشيخ».

فأسرع السلطان الى فرس سريع فامتطاه على عجل وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين، وشهد الناس من حوله وعاین سخطهم، فنزل عن فرسه، وتقدم متلطفا معذرا الى الشيخ عز الدين، وقال له: «لا تفارقنا. عد يا امام واصنع ما بدا لك».. وقدم للشيخ فرسا فامتطاه وعاد الشيخ.

عاد الشيخ والناس يهللون من حوله ومن خلفه.

وجمع السلطان كل الأمراء في القلعة بأمر الشيخ، ثم عرضوا في مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى في ثمنهم. حتى اذا امتنع الحاضرون عن المزايدة في الثمن لارتفاعه الفاحش، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من

بيت المال، حتى اشترى جميع الأمراء الممالك وأعتقهم لوجه الله، فأصبحوا أحرارا.

وصحح الشيخ عقودهم بما فيها عقود الزواج. أما ما قبضه الشيخ من ثمنهم الفاحش فقد وزعه على الفقراء وأصحاب الحاجات وبصفة خاصة أهل العلم وطلابه، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة.

وازدادت مكانة الشيخ في قلوب الناس، وتزاحوا عليه وما كانوا يتركونه بعد صلاة الجمعة في جامع عمرو حتى يؤذن لصلاة العصر.

أما السلطان، فقد أضمّر أن يتخلص من الشيخ، فقد خافه على ملكه! ان هذا الشيخ الخجول النحيل ليستطيع أن يحرك الناس ضده كيفما يشاء! على أن أمراء الممالك لم يعودوا بعد لصلفهم واستبدادهم بالناس كما كانوا من قبل بيعهم في المزاد!

واستمر عز الدين في القضاء حازما حاسما لا يخشى الا الله ولا يأبه الا بالحق، ولا يراعي الا مصلحة الأمة. لقد تأتته الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان، فيسوي بينهما في المجلس، ويتحرى العدل وحده.. ولكم أذان خواص السلطان!

لم يعد السلطان يتوقع منه مجاملة، وتمنى أن يزيحه من مكانه، ولكنه خشي غضب الناس!

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب، سلطانا قويا واسع الحيلة، ولكنه وجد نفسه مع الشيخ عز الدين بلا حيلة!

وفي الحق أن الشيخ عز الدين، لم يجهر بعداء السلطان، ولا حتى بنقده، ولكنه مضى في طريقه يفتي، ويخطب الجمعة في جامع عمرو، ويقضي بما يهديه اليه فهمه لنصوص الشريعة أو اجتهاده ان لم يجد حكما في النصوص، ثم يخلص الى بيته ليكتب.. ولكنه على انفساح بيته وهدوئه وجاله لم يكن يجد

الوقت الكافي للكتابة، فالتاس يتزاحون حيث يكون، ومنهم من لح عليه بالزيارة..!

ولم يشأ أن يتخذ حاجبا يمنع عنه الناس، كما كان يصنع الفقهاء من قبله حين يخلون الى الكتابة..

وكان كثير الصدقات ينفق معظم رواتبه خفية على أصحاب الحاجات، فكان كثير من أصحاب الحاجات يطرقون بابه.

وكان يلح بالدعوة الى المعروف والنهي عن المنكر، ويعتبر القيام بهما واجبا شرعيا يأثم تاركه، فيأتيه الناس يستفتونه في المعروف والمنكر.

ووجد بعض الأقوياء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن ينتزعوا ما اغتصب منهم، ولا عقاب عليهم، فهذا حقهم الشرعي.

فان هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة، فعليهم استردادها بأنفسهم، والا أثموا شرعا!

وأثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا بعض التجار والصناع والحرف، ويغصبون منهم خفية بعض البضائع أو الأجور!! وكان يعتبر من الحقوق المغصوبة انقاص أجر العامل، أو قهر البائع أو تخويفه فيبيع بثمن أقل من الثمن المعروف! ثمن المثل!

وسخط السلطان نفسه عليه، فقد رآه في أحكامه وفتاويه يفرض أوامره على الشرطة، وليس هذا لأحد غير السلطان، فان لم تستجب الشرطة حرض الناس على الدولة!!

ثم اصطدم الشيخ عز الدين بأقرب أعوان السلطان وأعزهم عليه. وهو استادار أو استاذ دار السلطان: الرجل الذي يتولى شؤون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصة.

ذلك أن «الاستادار» فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان مولعا بالغناء

والرقص، قصد الى مسجد وسط حديقة واسعة مطلة على النيل، فصعد الى سطح المسجد فأفتن بجمال المنظر، فبنى فوق المسجد « طبلخانة » أي خانا أو داراً للطبل والغناء، وتعود السهر فيها مع صحبه يسمعون الى الجواري المغنيات الراقصات...!

ولم يجرؤ أحد على أن يشكو الأستاذار الى قاضي القضاة، ولكنه ذهب حتى تحقق مما سمع، فعاد وعقد مجلس القضاء، وأصدر الحكم بإزالة البناء .
غير أن الشرطة لم تزل الملهى من على سطح المسجد، فنهض الشيخ عز الدين يقود أبناءه وبعض الشباب من مريديه، وأخذوا المعاول والفؤوس، وأزالوا البناء .. ثم أعلن الشيخ أنه يقبل نفسه من منصب قاضي القضاة، فما عاد يطيق أن يقضي بقضاء فتنتظر الشرطة اذن رئيس الشرطة أو السلطان لتنفيذ الأحكام، وقد لا تنفذها...!

ولم يكد السلطان يسمع بما حدث من الشيخ حتى اضطرم غيظا، ثم جاءه من يخبره بأن الشيخ قد أقال نفسه، فصفق السلطان طربا، وحمد الله لأن الشيخ أعفاه من حرج كبير، فأقال نفسه بنفسه! وأرسل السلطان رسولا الى الشيخ بموافقته على استقالته، وفرح الشيخ، وحل سجادة من على أرض بيته وأهداها رسول السلطان تعبيرا عن الفرح، معذرا اليه بأنه لا يجد هدية أثن منها...!

ها هو عبء ثقل انزاح عن قلب الشيخ!
صمم الشيخ على أن يخصص أكثر وقته للتأليف، ضاع منه عمر طويل وما كتب بعد شيئا. ! غير أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاره وطلب منه أن يدرس الفقه الشافعي في المدرسة الجديدة التي أقامها السلطان لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة فقبل الشيخ ونهض بتدريس الفقه، والتفسير . وكان هو أول من ألقى درسا في التفسير بمصر منذ عهد بعيد . ولقد قام الشيخ بتدريس الفقه الشافعي في هذه المدرسة .

وخطط دروسه لكي تكون كتباً ينتفع بها الناس، فدرس أصول الفقه والتصوف، بهذه المدرسة الجديدة التي أسماها السلطان باسمه.. المدرسة الصالحية.. وحزن الناس لأن الشيخ ترك القضاء وما عرفوا في زمانهم قاضياً أكثر حسماً وأعمق نظراً ولا أنهض منه للأمر، ولا أشد تقى وورعاً وروعة من هذا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام!

وعبر عن ذلك شاعرهم الجزار:

سار عبد العزيز في الحكم سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز^(١)
عمنا حكمه بعدل وسينط شامل للورى بلفظ وجيز
لقد أراح الشيخ واستراح. ولكن حكمه على «الأستادار» قد وصم الرجل
في مصر وسائر بلاد الاسلام. فقد جاء في كتاب «حسن المحاضرة» بعد
الحديث عن حكم الشيخ في أمر الملهى، كما جاء في تاريخ ابن اياس: وظن
فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتأثر به في الخارج، فاتفق أن جهز
السلطان رسولا من عنده الى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول الى
الديوان، ووقف بين يدين الخليفة، وأدى الرسالة له، خرج اليه، وسأله:

- هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟

- فقال الخليفة لا. ولكن حملنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ

الشيخ استاداره.

- فقال الخليفة: ان المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل

روايته.

فرجع الرسول الى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد الى بغداد،

وأداها.

استقر الشيخ في داره، يؤلف الكتب، مستفيدا من كل ما مر به: ألف

(١) يعني عمر بن عبد العزيز.

نحو أربعين كتابا في الفقه والتفسير وأصول الفقه والتصوف.. حصاد تجاربه وقراءاته وتأملاته وفتاويه.

على أن الشيخ لم يكد يسيطر على وقته وينظمه، ويستقر في داره ليكتب، حتى هاجمه جماعة من الأشقياء ذات ليلة مظلمة فتسوروا عليه الحديقة، وتقدموا الى باب الدار يحاولون كسره، والشيخ مستغرق في عمله لا يشعر بهم.. ١٠٠

وهب أهل الدار من نومهم فزعين، خاف كل من في الدار الا الشيخ! وحاول أحد ابنائه أن يخرج من باب خلفي فيستدعي العسس، ولكن الشيخ رفض وتقدم نحو الباب الذي حاول اللصوص اقتحامه، فتأخروا الى الحديقة، وتقدم هو اليهم قائلا: «أهلا بضيوفنا».

وعلى ضوء النجوم تبين الشيخ أنهم جماعة من الفتاك ممن كان يستأجرهم بعض أمراء المماليك للفتك بأعدائهم!! وتعرف على رئيسهم، وتذكر أنه وثيق الصلة بأمر كان يصرخ ويكي ويتوعد الشيخ عندما نادى على الأمراء في المزاد!.. وكانت تفلت من الأمير حركات أنثوية!

وكان هذا الفتاك يدلف الى الأمير ويهون عليه.. فأبدى من آيات المودة والتعاطف المريب ما أثار سخرية الذين شهدوا المزاد!!.

مثل أمامه هذا الفحل الفتاك فيما بعد متها في نهب المتجر، وشهد الأمير له زورا، وأثنى عليه في رقة.. فحكم الشيخ عز الدين على الأمير بغرامة لشهادة الزور، وبمبلغ من المال تعويضا للتاجر المعتدى عليه، وحكم على الناهب بالسجن. غير أن الشرطة لم تسجنه وزعمت أنه فر الى جبل في صعيد مصر!

ان الشيخ يعرف أن هذا الأمير وغيره يتخذون من بعض السوق ضعاف العقول أشداء الأجسام، عصابات يؤدبون بها من يرفض لهم طلبا، فاذا سقط أحدهم فهو مصري اعتدى على مصري ولا شأن للأمراء المماليك بالأمر كله!

وطلب الشيخ عز الدين عشاء لضيوفه، فالضيف ينبغي أن يكرم في أي وقت جاء. وذهل رجال العصابة... ثم أخذ يعظهم، حتى ألقوا تحت قدميه ما أخفوه وراء العباءات من أسلحة. وفاض الدمع من أحدهم فاعترف من خلال الدمع أن ذلك الأمير المخنث الشرس جرضهم على قتل الشيخ ونهب بيته ووعدهم بأموال طائلة، وقد أقسم ألا يبقى الشيخ على وجه الأرض، بعد أن نادى على الأمراء المالك في المزاد العلني وهم ملوك الأرض كما ينادي على الجوارى والعبيد!!

فدعا الشيخ لضيوفه وللأمير بالهداية بعد الضلال. وقام الفتاك، فقبلوا يد الشيخ، وظلوا يقبلونها حتى غسلوها بدموع الندم... وطلبوا منه الدعاء، فطلب منهم أن يتوضأوا ليصلي بهم. وحين فرغوا من الوضوء أمهم الشيخ في صلاة توبة على خضرة الأرض، تحت شعاع النجوم... وطلب أبناء الشيخ منه أن يبلغ السلطان، فأبى.

حتى إذا جاء يوم العيد، وخرج السلطان في أبهة الملك الى القلعة، وحوله الأمراء يتشახون - وفيهم ذلك الأمير - واجه الشيخ سلطانهم بما روع الأمراء وألقى الهية من الشيخ في قلوبهم. ويصف السبكي ذلك المشهد في طبقات الشافعية: «طلع شيخنا عز الدين مرة الى السلطان في يوم عيد الى القلعة، فشهد العسكر مصطفى بن يديه ومجلس المملكة وما السلطان عليه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينة على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ الى السلطان وناداه:

«يا أيوب.. ما حجتك عند الله اذا قال لك ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيع الخمر؟»

فقال السلطان: «هل جرى ذلك؟»

قال: «نعم الحانة الفلانية تبيع الخمر وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب

في نعمة هذه المملكة .

وأخذ الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون .

فقال السلطان : « يا سيدي هذا أنا ما عملته . هذا من زمان أبي » .

فقال الشيخ : « أنت من الذين يقولون ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ ^(١) ؟ ! »
فأمر السلطان باغلاق الحانة .

وبعد أن انصرف سأله أحد تلاميذه عما فعله ، فقال الشيخ :

- رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهيئه لكيلا تكبر نفسه فتؤدي .

فقال التلميذ : أما خفته ؟

قال الشيخ : والله يا بني لقد استحضرت هبة الله تعالى فصار السلطان

أمامي كالقط .

وعاد الشيخ من القلعة ، فطاف ببيوت بعض أصدقائه وتلاميذه يهنئهم

بالعيد ، ثم عاد الى بيته يستقبل المهنيين .

(١) سورة الزخرف ، آية ٢٢ .

العِزّ .. يعبئ الجماهير ...
فتنتزع النصر ...
في معركة المنصورة...!؟

حتى إذا كانت السنة الثامنة والأربعين بعد الستائة ...
وكان العزّ بن عبد السلام في السبعين من عمره ...
جاءت الأخبار بغزوة صليبية كبرى بقيادة ملك فرنسا لويس
التاسع ... الامبراطور القديس ... وكانت وجهتها الاستيلاء على
دمياط ... ثم الاستيلاء على مصر ... قاعدة مقاومة الصليبيين !!!
فماذا كان من العز بن عبد السلام ؟!
كان منه ما ينبغي أن يكون من زعيم مخلص غيور على دينه
وطنه ...

وكان قائد الحملة الصليبية الملك لويس التاسع وقحاً غاية
الوقاحة ... مغروراً غاية الغرور ... مُصِراً على إبادة أي مقاومة
تعرض جيوشه الزاحفة !!!

تجد ذلك واضحاً في انذاره الوقح الذي أرسله إلى ملك مصر ...
وها هي رسالة ملك فرنسا لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين
الأيوبي ... لما أتى إلى مصر محارباً له :
« أما بعد :

« فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ...

« كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية ...
« وإنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا
الأموال والهدايا ...

« ونحن نسوقهم سوق البقر !!!
« ونقتل الرجال !!!
« ونرمل النساء !!!
« ونستأسر البنات والصبيان !!!
« ونخلي منهم الديار !!!
« وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ... وبذلت لك النصح إلى
النهاية ...

« فلو حلفت لي بكل الأيمان ... ودخلت على القسوس والرهبان ...
« وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان ... ما ردّني ذلك عن الوصول
إليك ...

« وقتلك في أعز البقاع عليك !!!
« فإن كانت البلاد لي فهي هدية حصلت في يدي ...
« وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ ...
« وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ
السهل والجبل ... عددهم كعدد الحصى ... وهم مرسلون إليك بأسياف
القضا !!!

هذا هو إنذار القديس لويس التاسع ... وكان جلفًا ووقحًا !!!
فماذا كان جواب الملك الصالح نجم الدين إلى الملك الفرنسي ؟!
« أما بعد :

« فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ...
« فنحن أرباب السيوف ... وما قُتل منا قرن إلا جددناه ... ولا

بغى علينا باغ إلا دمرناه...
« فلو رأت عيناك... أيها المغرور... حد سيفنا... وعظم
حروبنا... وفتحنا منكم الحصون والسواحل... وإخربنا منكم ديار
الأواخر والأوائل... لكان لك أن تعض على أناملك بالندم... ولا بد
أن تزل بك القدم...
« في يوم أوله لنا وآخره عليك...
« فهالك تسيء بك الظنون... وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
ينقلبون... » الخ...
كيف كانت معركة المنصورة... وكيف انتهت؟!!

الحملة الصليبية السابعة؟!!

أبحر الملك لويس التاسع من مرسيليا على ألف وثمانمائة سفينة...
وخرج الأسطول الصليبي وعلى رأسه ملك فرنسا...
وطار النبا في الأرجاء وبلغ مسامع سلطان مصر الملك نجم الدين
أيوب وهو بدمشق... فأسرع عائداً إلى القاهرة مقر ملكه ليصد عنها
الغزاة...
وفي قبرص استكمل لويس عدته...
ووقف يعد جيشه فإذا به:
تسعة آلاف وخمسمائة فارس...
ومائة ألف وثلاثون ألف جندي!!!
سوى الغلمان والسوقة والبحارة...
واطمأن لويس إلى قوته... وأمر بالتحرك إلى غزوته!!!

سقوط دمياط ؟!

وأقبلت مراكب الفرنج سنة سبع وأربعين وستائة من الهجرة ...
ثم شرعوا من الغد في النزول إلى البر الذي فيه المسلمون ...
وناوشهم المسلمون القتال ...
واستولى الفرنجة على دمياط بلا كبير عناء !!!

التعبئة العامة ؟!

وأمر الملك الصالح بالتعبئة العامة ...
فاجتمع جيش لا يحصى من العربان والمطوعة علاوة على الجيش
النظامي ...
وشرعوا في الاغارة على الفرنج وتخطفهم ومناوشتهم ... واستمر
ذلك شهراً ...
والسلطان يتزايد مرضه ...
وقضت البلاد أشهراً من الحياة القلقة ... أشهراً من الكر والفر ...
يهجم فيها المصريون على خطوط الفرنسيين على طول الجبهة ...
فيقتلون منهم ويأسرون كثيراً .
وها هنا يأتي دور العزّ بن عبد السلام على رأس علماء مصر
والشام ...
كان يشعل في الجماهير نار الجهاد المقدسة ...
فيخرجوا لإحدى الحسينين ... إما الشهادة وإما النصر ...

موت الملك الصالح ؟!

وفي شعبان سنة ستماية وسبعة وأربعين من الهجرة أسلم الملك روجه
في سكون ليلة النصف من شعبان ...

نائب السلطان ؟!

وأبقت شجرة الدر موت السلطان سرًا .
على أن يكون الأمير فخر الدين نائبًا للسلطان يدبر الأمور ...
ومن ورائه شجرة الدر !!!

استدعاء السلطان الملك المعظم تورانشاه ؟!

وتم استدعاء تورانشاه من الشام ابن الملك الصالح ليتولى الملك بعد
أبيه ...
وبينا كان تورانشاه في طريقه إلى مصر ... كان الملك لويس التاسع
يصدر أوامره إلى قواده بالتأهب للمعركة الفاصلة ...
وما أن استوثق لويس من صدق الأنباء التي حُملت إليه عن وفاة
الملك الصالح ... حتى أمر بالهجوم العام على المنصورة ... التي اتخذها
المصريون مقرًا لدفاعهم عن البلاد !!!

الهجوم العام على المنصورة؟!!

أصدر الملك لويس أمره ببدء الهجوم...
وعلى شاطئ البحر الصغير المقابل للمنصورة احتشدت قوات لويس
التاسع... واستعدت لعبور البحر، ثم دخول المنصورة...
كانت نحوًا من مائة عشر ألفًا...
أما باقي الحملة... الأربعين ألفًا فقد تركهم لويس التاسع في
دمياط... يحمون المؤخرة...

وصول المعظم تورانشاه؟!!

ألقت شجرة الدر مسئوليات الحكم إلى السلطان تورانشاه...
وأصدر المعظم أمره... أن يوضع الشعب كله تحت السلاح!!!
ولنذكر هنا أن العزّ بن السلام كان على رأس الداعين إلى التعبئة
العامة للرجال والنساء!!!
ثم ماذا؟!!

معركة المنصورة؟!!

ولنستمع إلى وصف المعركة في رسالة الملك المعظم تورانشاه بن الملك
الصالح... إلى نائبه في دمشق... يبشره باستسلام الصليبيين... وظفر
المنصورة...

« ... ولما كان يوم الاثنين ... مستهل السنة المباركة وهي سنة ثمان وأربعين وستائة ...
« تمم الله على الإسلام بركتها ...
« فتحنا الخزائن ... وبذلنا الأموال ... وفرقنا السلاح ...
« وجعنا العربان ... والمطوعة ...
« وخلقنا لا يعلمهم إلا الله ... جاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق ...
« فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل ... فأبينا ...
« ولما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين ...
« فسرنا في آثارهم طالبين ...
« وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ... وقد حلّ بهم الخزي والويل ...
« فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج ...
« أما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ...
« والتجأ الفرنسيين إلى المنية وطلب الأمان ... فأمناه وأخذناه وأكرمناه ...
« واستلمنا دمياط بعون الله تعالى ... »

★ ★ ★

هذه كلمات قليلة عن معركة المنصورة التي أبيدت فيها الحملة
الفرنسية التي جاءت بقيادة لويس التاسع تنوي إبادة مصر!!!
واستسلم فيها القديس المغرور لويس التاسع... استسلام الأذلة
الصاغرين!!!

وليس ها هنا مجال الافاضة في شئون هذه الحملة...
وإنما المراد أن نعلم أن مصر حين نزل الغزاة بأرضها... كان
العزّ بن السلام أسدًا يزأر... وصوتًا يدوّي... الله أكبر...
الله أكبر... اخرجوا جميعًا... رجالًا ونساء... شيبًا وشبانًا... إلى
قتال الأعداء!!!

وهذا هو الصنف من العلماء الذي نحتاج إليه اليوم... وفي كل
يوم...

أما هؤلاء الموتى... الذين يتشاءبون على المنابر... كأنهم أشباح
قادمة من عالم الموتى...

فلسنا في حاجة إليهم... بل هم شر على الناس... إذ يُنيمونهم...
ويُميتون في الناس أعلى صفاتهم... صفات مقاومة الظلم والظالمين!!!

هُولا كو...

يُدَمَّر بغداد تدميراً...

ويقتل الخليفة...

ويُلغى الخلافة...؟!

فلمّا كانت السنة السادسة والخمسين بعد الستائة ...
وكان العزّ بن السلام في نحو الثمانين أو اقترّب من الثمانين ...
وقعت الواقعة ... ونزلت الداهية الدهياء ...
حيث هاجم التّار بقيادة هولّاكو بن طلّوخان بن جنكزخان مدينة
بغداد ... وقتل الخليفة المستعصم بالله ...
وفعل ببغداد من الأفاعيل ما لم يحدث في التاريخ ...
قالوا:
« وبذلوا السيف في بغداد ...
« وهجموا دار الخلافة ...
« وقتلوا كلّ من فيها من الأشراف ...
« ولم يسلم منهم إلاّ من كان صغيراً فأخذ أسيراً ...
« ودام القتل والنّهب في بغداد أربعين يوماً حتى صار الدم في الأزقة
كأكباد الإبل ... »
وقالوا:
« ولما قتلوا هؤلاء السادات مالوا على البلد ... فقتلوا جميع من
قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايع والكهول والشبان ...

« ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش يكمنون فيها ولا يظهرون... »

« وعادت بغداد ... بعدما كانت أنس المدن كلها ... كأنها خراب ... ليس فيها أحد إلا القليل من الناس ... وهم في خوف وجوع وقلة ... »

« وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين ... »

« ف قيل : ألف ألف وثمانمائة ألف ... »

« وقيل : بلغت القتل ألفي ألف نفس ... »

« وقتل مع الخليفة ولده الأكبر أبو العباس أحمد ... وله خمس وعشرون سنة ... »

« ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن ... وله ثلاث وعشرون سنة ... »

« وأسر ولده الأصغر مبارك ... »

« وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم ... »

« وأسير من دار الخلافة من الأبيكار ما يقارب ألف بكر !!! »

« وقتل استادار الخلافة ... وقتل أولاده الثلاثة ... »

« وأكابر الدولة واحداً بعد واحد !!! »

« وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس ... »

« فيخرج بأولاده ونسائه ... فيذهب به إلى مقبرة الحلال تجاه المنطرة ... »

« فيذبح كما تذبج الشاة ... ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه !!! »

« وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة ... »

« وقتل الخطباء والأئمة وحمل القرآن ... وتعطلت المساجد »

« والجماعات والجمعات ... »

« ولما انقضى أمد المدة المقدرة ... وانقضت الأربعون يوماً ... بقيت »

بغداد خاوية على عروشها... ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس...
والقتلى في الطرقات كأنها التلول...
وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم... وأنتنت البلاد من
جيفهم...

« وتغير الهواء... فحصل بسببه الفناء والوباء الشديد...
« ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من كان تحت الأرض كأنهم الموتى
إذا نُبشوا من القبور...
« وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سلف من القتلى...
« ويقال: إن هلاون (هولاكو) عزم على إحراق مدينة بغداد لما
أراد الرحيل عنها!!!
« فقال له كتبغا نُوين: إن هذه المدينة أم المدن ومقصد التجار...
فإذا أبقاها الملك حصل له منها مال جزيل...
« فأبقاها... وسار عنها إلى الفرات...!!!

★ ★ ★

ماذا أريد أن أقول؟!
أقول: كان العزّ بن عبد السلام في نحو الثمانين...
حين جاءت الأخبار إلى مصر عن هجوم التار على عاصمة الخلافة
العباسية العتيدة...
وإبادتهم لكل شيء... بدءًا بالخليفة إلى آخر رجل في بغداد...
واستيلائهم على كل شيء!!!
واستباحتهم كل شيء!!!
فالرقاب تُذبح... والنساء تستباح... فمن شاءوا قتلوا... ومن

شاءوا استباحوا أو أسروا ...
الجثث بمئات الألوف كالتلال وقد انتنت !!!
والدماء تسيل كالأنهار !!!
واهتز العالم الإسلامي بسقوط بغداد ... وسقوط الخلافة ... اهتزازاً
عنيفاً !!!
ولم يبقَ أمام جحافل التتر إلا أن يزحفوا فيستولوا على بلاد
الشام ... ثم على مصر ...
وبذلك ينتهي كل شيء !!!
وتذهب الدول الإسلامية إلى الأبد !!!
كان كل إنسان لا يدري: متى يؤمر به فيُسحب ثم يُذبح !!!
هذا هو الحال حين ذُبح الخليفة وذُبحت بغداد ...
فأين كان العزّ بن عبد السلام من هذه الأحداث ؟ !!
كان يحمل في قلبه هموم الناس جميعاً ... ويشعر بمرارة الهزيمة
والياس الذي استولى على نفوسهم !!!
ولكن ماذا يفعل العزّ بن عبد السلام وآلاف من مثله معه ؟ !!
ماذا يفعل وقد بُحَّ صوته من طول ما صرخ في وجوه سلاطين
المسلمين أن انبذوا خلافتكم أيها الملوك الصعاليك ... فإن التتار
يتربصون بكم شرقاً ... والصليبيين يتربصون بكم غرباً !!!
ولكن هيهات هيهات !!!
فكل مَلِك أو سلطان ... من ملوك المسلمين يعيش في وَهْم الملك
وغرور السُلطة !!!
لا يعنيه إلا أن يبقى على عرشه ... يتلذذ وتراقص الغواني بين
يديه !!!
مظالم هنا وهناك ...

مفاسد هنا وهناك ...
المخلال خلقي رهيب يدوس كل القيم العليا ...
النتيجة الحتمية أن تُدمّر هذه الدول تدميرًا ...
وقد كان ابتلع التتار نصف العالم الإسلامي شرقًا ... ثم زحفوا
لابتلاع النصف الباقي ... بدءًا ببغداد أم البلاد !!!
هذا فضلًا عن العدو العتيد ... الصليبيين ... الذين جاءوا من
الغرب فانتهبوا بقاعًا ببلاد الشام وأسسوا فيها الإمارات الصليبية !!!
ماذا يستطيع أن يصنع العزّ بن عبد السلام ... وقد سقطت
بغداد ... وها هم التتار يهاجمون الشام ... ويستولون على حلب ...
لينفذوا منها إلى مصر !!؟

العزّ بن عبد السلام...

يلعب أخطر...

لعبة سياسية...؟!!

جاءت رُسُل هولاكو... إلى مصر... تحمل إنذارًا إلى ملك
مصر... إما التسليم وإما الإبادة!!!
وكان من المضحكات أن كان على عرش مصر... طفل لم يتجاوز
الخامسة عشرة من عمره!!!
قالوا:
«وأما مبدأ أمر قُطز فإنَّ السلطان الملك المعزَّ أيبك اشتراه وهو
أمير...
«فرباه وأحسن تربيته...
«ولما قُتل أستاذه... قام في تولية ابنه الملك المنصور «نور الدين
علي» ابن المعزَّ...
«وكان حينئذ أتابك العساكر بالديار المصرية...
«ولما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة بسبب صغر ابن
استاذة...
«فعزله... ودعا إلى نفسه...
«فبيع له في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستائة...
«فقدَّر الله على يديه نصره الإسلام بعين جالوت...»!!!

أقول: هذا النور الدين عليّ... الطفل... الملقب بالملك المنصور...
كان على عرش مصر.. حين جاء رُسُل هولاكو يحملون إنذارهم إلى
مصر... إما أن تركع وإما أن تُباد!!!

وكان الأمير سيف الدين قُطز... نائباً للسلطنة...
هو الحاكم الفعلي... أمّا هذا الطفل فمجرد ديكور!!!
فأين هي لعبة العزّ بن عبد السلام التي لعبها بمهارة فائقة؟!!!
اللعبة أنه شجع الأمير قُطز على الإطاحة بهذا الغلام عن العرش...
وأن يتولى هو مكانه...

حيث آنس بشفافية رجال الله... أنّ هذا الأمير يصلح ليقوم بدور
انقاذ المسلمين من هلاك محقق ينتظرهم على يد التتار!!!
فكيف كان ذلك؟!!!

قالوا:

«قدم ابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق
يستنجد المصريين على قتال التتار... وأنهم قد اقترب قدومهم إلى
الشام...»

«فعند ذلك عقدوا مجلساً بين يدي المنصور بن المعز...»
«وحضر قاضي مصر بدر الدين السنجاري...»
«والشيخ عزّ الدين بن عبد السلام...»
«وتفاوضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال العامة لمساعدة
الجند...»

«وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام...»
«إنّ نائب السلطنة دعا إلى اجتماع عاجل طارئ...»
«وأحضر نائب السلطنة قُطز كبار العلماء...»
«وكان الاجتماع بين يدي الملك الطفل المنصور بن المعز...»

وأفتى العزّ بن عبد السلام فتواه الخالدة... ونقّذها قُطز
بجذافيرها...

وكان لسان حال الأمور كلها أنه لا بد من رجل الساعة ليعتلي
العرش بدلًا من هذا الطفل الذي لا يعقل شيئًا من أمور السياسة
والملك...

وكلّ الحاضرين يريدون هذا...
وعلى رأسهم العزّ بن عبد السلام...
فلا يعقل أن يقود هذا الطفل معركة على رأسها جبار الحروب
هولاكو حفيد جنكيزخان!!!
ولكن مَنْ هو رجل الساعة... وأين هو... وكيف يُدفع إلى
العرش؟!

وقد كان... وقام نائب السلطنة الأمير قُطز باعتقال الملك
الطفل... وأرسله هو وأمه وابناه وإخوته إلى بلاد الروم!!!
وتسلطن هو وسمّى نفسه بالملك المظفر...

«فإنه قال: لا بد للناس من سلطان قاهر... يقاقل عن المسلمين
عدوهم... وهذا صبيّ صغير لا يعرف تدبير المملكة»!!!
ولولا أنَّ الأمير قُطز آنس من عظماء العلماء رغبة أكيدة أن يتولى
رجل عظيم مكان هذا الصبيّ ما جرؤ أن يعتقل الملك الطفل وأسرته
ويُسَيِّرهم إلى بلاد الروم... وينادي بنفسه سلطانًا على مصر!!!
لأنه يعلم أن سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام... يؤيد هذا...
ويرغب فيه...

ومتى أراد سلطان العلماء شيئًا... فسائر العلماء من ورائه!!!
وهذا ما شجّع الأمير قُطز على أن يتخذ قراره الخطير...
ويتسلطن على عرش مصر...

ليقود الشعب إلى معركة المجد ... معركة عين جالوت!!!
هذه هي اللعبة السياسية الخطيرة التي لعبها العزّ بن عبد السلام
بمهارة فائقة ...
إنه كان يرى بعيني قلبه ... أن هذه اللحظة ليست لحظة ملك عابث
يلهو هو الملوك الصغار ...
وإنما هي لحظة تحتاج إلى بطل ... بل بطل من نوع فريد ... ذي
عزيمة أمضى من الحديد ...
وأنس العزّ بن عبد السلام ... في الأمير قُطز هذا الاستعداد ...
فدفعه تصرّيحاً أو تلميحاً إلى العرش ...
ليدفع به عن الأُمَّ كلها عار التتار!!!
وها هنا نسجل للعزّ عبقرية فذة ...
في اختيار الرجال ... وصناعة الأبطال ...
قد يظنّ الغافلون أن عظمة عين جالوت ... إنما انتزعها قُطز
وحده!!!
كلا ... وإنما هؤلاء العلماء العاملون العظماء من ورائه ... وعلى
رأسهم سلطان العلماء ...
هؤلاء دفعوه إلى العرش ...
ودفعوا الجماهير كلها من ورائه ... فدمّروا التتار تدميراً!!!

العِزُّ يُفْتِي فتواه...
والملك المظفر قُطِر...
يُنَفِّذ فتواه...؟!!

ما هي هذه الفتوى الخالدة... التي أعلنها سلطان العلماء...
فزلت جبابرة أمراء المماليك... وطأطأت رؤوسهم للحقّ
الصريح؟!!

قال صاحب كتاب «سلطان العلماء - عر الدين بن عبد السلام»^(١)

بين عزّ الدين وقُطْرُ؟!!

«دمر التتار بغداد في سنة ٦٥٦ هـ... وبدأ المد التتري المخرب
يزحف نحو الشام.

«يقول ابن الأثير:

«لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد
من الأمم، منها ظهور هؤلاء التتار قبحهم الله. أقبلوا على المشرق
ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها...»
«ويقول:

(١) هو محمود الشرقاوي.

« لقد بقيت عنده سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها
كارها لذكرها، هانا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل
عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين... ثم رأيت أن ترك ذلك لا
يجدي .

ان هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي
عقمت الأيام والليالي عن مثلها . عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو
قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتل
بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقارمها ولا ما يدانيها .

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى
الدنيا إلا ياجوج وماجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك
من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال
والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الاجنة .

فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ثم منها
إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرها، فيملكونها
ويفعلون بأهلها ما نذكروه، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون
منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد
الجل وما فيه من البلاد إلى حد العراق.. في أقل من سنة، هذا ما لم
يسمع بمثله .

ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها
من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد،
هذا ما لم يطرق الاسماع مثله .

فإن الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في
هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً، إنما رضي
من الناس بالطاعة، وهؤلاء (أي التتار) قد ملكوا أكثر المعمورة من

الأرض وأحسنه واكثره عمارة وأهلًا، وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة، في نحو سنة ولم يبت احد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف ويتوقعهم ويترقب وصولهم...

وقد رأت الغالبية العظمى من أمراء المدن الشامية الكبرى التقرب الى التتار، والمبادرة بالاتصال بهم ليحصلوا منهم على عهود أمان، ثم عاد نفر من أولئك الأمراء، وتطلع إلى مصر التي خرجت ظافرة منتصرة من حروبها ضد الصليبيين يلتمس عندها النجدة والإرشاد. كانت أول مشكلة تصدت مصر لحلها هي: ان الملك الناصر صاحب دمشق أرسل ابنه إلى هولاكو عقب انتصاره في بغداد يطلب منه تفويضًا بالأمان وكان السبب في إقدام صاحب دمشق على تلك الخطوة هو الرهبة التي سادت عن التتار، وعدم قدرته على تدبر الموقف في هدوء وتؤدة وأناة، ذلك ان التتار لم يضربوا مثلاً واحداً منذ هجومهم على الشرق العربي على احترامهم للعهود والمواثيق، لأنهم أهل غدر، ويتخذون من كتب الأمان وسيلة لإرهاب الناس وتدعيم سيطرتهم عن أسهل طريق وأقربه، ومن ذلك ان ابن الملك الناصر عاد برسالة من هولاكو كلها وعيد وتهديد فقد جاء في الرسالة ما يلي:

«الذي يعلم به الملك الناصر.. أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها وأسرنّا سكانها. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١). واستحضرنا خليفها (صيغة تحقير للخليفة) وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان

(١) سورة النمل، آية ٣٤.

قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيصة فجمع المال، ولم يعبا بالرجال، وكان قد نمي ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التهام والكهال.

إذا تم امر دنا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة فلم يدر بالموت حتى هجم
إذا وقفت على كتابي هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (أي هولاءكو) .. تأمن شره وتتل خيره. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَأَنَّ لِّبَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾^(١).

ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل .. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحریمهم إلى كروان سراي (وهي كلمة معناها فندق المسافرين ومحط الرحال، كناية عن أرض مصر التي عرفها التار بهذا الاسم) فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها.

اين النجاة ولا مناص لهارب ولي البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء
وقد أثار هذا الخطاب الفزع في نفس الملك الناصر وأهل دمشق كذلك، وبادر بالالتجاء إلى مصر بعد أن عجز عن تحقيق أمان مع هولاءكو، وبعث بسفير له إلى القاهرة، هو صاحب كمال الدين عمر بن العديم، يستنجد بعسكرها، ولما قدم السفير إلى القاهرة عقد

(١) سورة النجم، الايات ٣٩ - ٤١.

مجلس بالقلعة حضره الملك الطفل المنصور علي بن المعز أيبك، ووصيه الأمير قُطز، وقاضي القضاة والفقهاء والأمراء من رجال الجيش.

« فلما تكامل المجلس قام مدع، وذكر هيئة سؤال في أمر هولاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب، وأن بيت المال خال من الأموال، والسلطان صغير السن وضاعت مصالح الرعية، وإن الوقت محتاج إلى إقامة سلطان كبير تخشاه الناس، ويدفع العدو، وإن بيت المال محتاج إلى المساعدة بشيء من أموال الرعية لإقامة الجند، وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام هو رجل الموقف الخطير، فتكلم، وأحسن الكلام. قال ابن تغري بردي:

« وأفاضوا في الحديث فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام. »

وقال ابن أبياس:

« وكان المشار إليه في ذلك المجلس شيخ الإسلام العزبن عبد

السلام. »

سكت الأمراء والقضاة والعلماء على كلام مدعي السلطان، ولم يجرؤ أحد على أن يعترض على ما عند الملك الجديد المظفر قُطز وعزمه على فرض ضرائب جديدة على الرعية لتمويل الحرب. وكادت جماهير الشعب أن تترشح وحدها تحت وطأة الضرائب الفادحة، وتكابد الشدة دون الأعيان والأمراء وبيت السلطان، لو لم يستدرك الشيخ عز الدين الأمر بموقفه الجريء الصريح، موقف المرشد المخلص، فقام وقال:

إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية، والكبابيس المزركشة واسقاط السيوف والفضة وغير ذلك. وتبيعوا ما لكم من

الحوائص الذهبية والآلات الذهبية، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ..

وانفض المجلس على كلمته هذه التوجيهية الرشيدة، وطبق قطر ما قاله الشيخ عز الدين، وكان لحسن توجيهه، وتشجيعه، ودعائه أثر كبير في رفع نفسية السلطان والقواد والجنود وجاهير الشعب، فخاضوا المعركة، وهم واثقون مطمئنون إلى نصر الله. فهزم التتار في « عين جالوت » وانتصر المسلمون نصرًا عزيزًا كريمًا .

كان يوم عين جالوت عظيمًا، لا في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام فحسب، ولكن في تاريخ المدينة بأسرها، إذ إن هذا التيار التتري المخرب كان ينذر باقترام المشرق إلى المغرب، ولو اجتاحت التتار مصر لاجتاحوا المغرب والأندلس واندفعوا إلى أوروبا محطمين في طريقهم أركان الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء، كما فعلوا في بغداد وغيرها من المدن الزاهرة.

ولكن مصر استطاعت في عين جالوت أن تنقذ الإسلام والمدينة بأسرها، وكان الجيش المصري أول جيش صمد في وجه التتار وأبطل الاعتقاد السائد في تلك الأوقات بأن التتار قوم لا يغلبون .

وليس عجبًا بعد ذلك أن تنبه مصر فخارًا وإن تنغنى على مر الزمن بهذا النصر المبين الذي وصفه أحد الشعراء المعاصرين للمعركة بهذه الأبيات:

هلك الكفر في الشام جميعًا	واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر	وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم	فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائمًا مثل واجبات فروضه،

★ ★ ★

هذا شيء مما ذكروه عن هذه الفتوى الخالدة..
ولكن كيف نَقَّذَهَا الملك المظفَّر قُطْز... مع ما هو معلوم عن
بطش أمراء المماليك... وسطوة بأسهم؟!
قال صاحب كتاب «وا إسلاماه»..
علي أحمد باكثير:

★ ★ ★

لما قدم بيبرس وجاعته المغاضبون إلى دمشق أكرمهم الملك الناصر،
وأغدق عليهم الأموال وخلع عليهم على قدر مراتبهم، وما استقر بهم المقام
عنده حتى جعلوا يحرضونه على قتال المعز وانتزاع مصر من يده. فظل الناصر
يدافعهم عن ذلك، لا يجيبهم إلى ما طلبوا ولا يؤسهم من اجابته، حتى تجدد
الصلح الأول بينه وبين الملك المعز منصوصاً فيه على أن لا يؤوي الملك
الناصر أحداً من المماليك البحرية. فما كان منهم إلا أن غادروا دمشق ولحقوا
بالمملك المغيث في الكرك فأقاموا عنده يحثونه على غزو مصر، ويعرضون عليه
مساعدته في ذلك. فتردد الملك المغيث برهة حتى بلغه موت الملك المعز
فتشجع وسير عسكره مع بيبرس في ستائة فارس. فجهز الأمير سيف الدين
قطز عسكراً لقتالهم، فالتقى الجمعان بالصاحية فانكسر عسكر المغيث وانهمز
بيبرس إلى الكرك.

شق على بيبرس أن يغلب في هذه المعركة، وكان قد منى نفسه بالتقدم
إلى مصر وأخذها من يد المعز، والانتقام لرئيسه أقطاي منه ومن أصحابه ولا
سيما صديقه قطز الذي أقسم هو ليقتلنه بيده. ولما رجع من هزيمته إلى الملك
المغيث بالكرك آنس منه وحشة لأن المغيث اعتقد أنه غرر به وبعسكره إذ
حرضه على غزو مصر، فرأى أن يعود إلى الملك الناصر لعله يجد عنده من

العزم على غزو مصر في هذه المرة بعد مقتل المعز ما لم يجد عنده من قبل . فبعث إلى الناصر يستأمنه ويستحلفه ، فأمنه الناصر وحلف له ، فرجع بيبرس إليه ، وعاد الناصر إلى برة وإكرامه .

وكان خطر التتار في ذلك الحين قد عاد يتهدد بلاد الإسلام بأشد ما كان في أيام جنكيزخان . فقد انحدر منهم جيش كبير بقيادة طاغيتهم الجديد هولأكو فعصفوا بالدولة الإسماعيلية في فارس ثم زحفوا على بغداد فقتلوا الخليفة أشنع قتلة ثم مضوا يسفكون الدماء وينتهكون الأعراض وينهبون الدور ويخربون الجوامع والمساجد ، وعمدوا إلى ما فيها من خزائن الكتب العظيمة فألقوها في نهر دجلة حتى جعلوا منها جسراً مرت عليه خيولهم واستمروا على ذلك أربعين يوماً وأمر هولأكو بعقد القتلى بعد ذلك فبلغت عدتهم زهاء مليوني نفس .

سرت أنباء هذه الفاجعة التي حلت بعاصمة المسلمين الكبرى ، فاهتز لها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه . وامتنحن الله بها قلوب ملوكه وأمرائه ليعلم من يثبت منهم على دينه فينتدب لجهاد أولئك البغاة المشركين ، ومن يرتد منهم على عقبيه جزعاً من الموت وخوفاً على ما في يده من زينة العاجلة ومتاع الحياة الفرور ، فيوالي أولئك البغاة ويمالئهم على دينه وأمته ووطنه . فهذا الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد خشي التتار فأعانهم على اخوانه المسلمين المجاهدين بأربل . وهذا الملك الناصر صاحب دمشق ، سليل هازم الصليبيين وسميه ، قد أنفذ ابنه الملك العزيز بهدايا إلى طاغية التتار ليسأله في نجدة يأخذ بها مصر من المماليك .

ولكن في مصر - مصر التي حمت الإسلام يوم فارسكور ، وهزمت الصليبيين ، وسجنت لويس التاسع في دار ابن لقمان وردته إلى بلاده بخفي حنين - رجلاً كأنما أعده جبار السماء للقاء جبار الأرض ومن أصلح لجهاد التتار من الذي كان كل همه في الحياة أن يعيش حتى ينتقم منهم لأسرته

المجيدة - وهذا حظ نفسه - وحتى ينتصف منه للإسلام - وهذا حظ دينه وملته؟

فلم يكد نائب السلطنة المصرية يسمع بما حل ببغداد من نكبة التتار، ويتحفز هولاء للانقضااض على سائر بلاد الإسلام، حتى ثارت شجونه، وتمثلت له ذكريات خاله جلال الدين وجده خوارزم شاه، وما كان جهادهما لهم في عهد طاغيتهم الأكبر جنكيزخان، وكيف انتهى ملكهما على أيديهم وتشتت شمل أسرتهما فصاروا في الناس أحاديث. وأيقن أن دوره العظيم قد جاء لينتصف حفيد خوارزم شاه من حفيد جنكيز خان، وأن رؤيا النبي ﷺ قد بدأت تتحقق. أليس هو اليوم حاكم مصر، ومدير دولتها ومصرف أمورها، وليس لسلطانها الصغير الا الاسم؟

وقد سرى الخوف من التتار إلى مصر لكثرة اللاجئين إليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام. وأخذ هؤلاء يحدثون الناس بفظائع التتار وأفاعيلهم المنكرة، من أشياء تقشعر لها الأبدان، وتقف الشعور، وتستك المسماع، وتنخلع القلوب جزعًا وهلعًا، فما يشك الناس بمصر أن التتار آتون إليهم لا محالة، وأن دورهم سيحين يومًا ما. وقد شاع فيهم اعتقاد قوي بأن التتار قوم لا يغلبون، ولا يقوم لهم جيش، ولا تقي منهم حصون. فانتشر بينهم الذعر، وعزم فريق منهم على الرحيل عن مصر إلى الحجاز أو اليمن. وعرضوا أملاكهم لبيعوها بأبخس الأثمان، فكان على نائب السلطنة أن يبذل جهودًا عظيمة لطمأنة الناس وتسكين خواطرهم، وافهامهم أن التتار ليسوا إلا بشرًا مثلهم. بل هم بما أعزهم الله به من الإسلام أقوى من أولئك الوثنيين، وأجدر أن يشتوا للباس، وأن يبيعوا نفوسهم غالية في سبيل الله ودينه. وكان الأمير سيف الدين قطز في خلال ذلك يختلف سرًا إلى بيت شيخ الإسلام ابن عبد السلام ويستشيره في أمور كثيرة، فإذا سأله الشيخ عما أنجز من الآمال استعدادًا لقتال التتار، شكا إليه قطز ما يلقاه من المصاعب، لمكان الملك

الصبي، والتفاف بطانة السوء حوله وحول أمه، يفسدون ما بينه وبين قطز فيتصدى لخلافه فيما يرى القيام به لازماً في هذا الموقف. وكان الملك المنصور قد كثرت مفسده وشغل عن شؤون الملك باللعب ومناقرة الديكة، وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وكرهها الناس. فأخذ ابن عبد السلام من ذلك الحين يشجع قطز على خلع الملك والاستقلال بالسلطنة دونه. بل جعل يوجب ذلك عليه إذ ليس في البلاد أصلح منه لجمع كلمة المسلمين، حتى يتأهبوا لدفع غائلة التتار عن بلادهم.

وقد كان عزيزاً على قطز المعزي أن يخلع ابن المعز أستاذه وولي نعمته، وتردد طويلاً في ذلك، وود لو استطاع أن يمضي في عمله مع بقاء المنصور في السلطنة. ولكنه رأى استحالة ذلك في مثل هذا الموقف العصيب الذي يحتاج إلى اجتماع الكلمة وسرعة البت في الأمور. فكان عليه أن يختار بين الوفاء لاستاذه الذهاب، والوفاء لمصر الباقية. وفي الأول تعريض سلامة مصر وسلامة سلطانها نفسه لخطر التتار. وفي الثاني الرجاء في حمايتها وحماية سائر بلاد الإسلام من هذا الخطر الداهم. فصح عزمه على خلع المنصور.

واتفق إذ ذاك أن بعث الملك الناصر صاحب دمشق رسولا إلى سلطان مصر الملك المنصور يستنجد بعسكر مصر لصد التتار عن بلاده، بعد أن يئس من إجابة هولاكو طلبه، إذ كتب إليه هولاكو يأمره بالخضوع له وتسليم البلاد إليه. فاغتم قطز هذه الفرصة، وعقد مجلساً بقلعة الجبل عند الملك المنصور، دعا إليه الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة وأهل الحل والعقد، وحضره سفير الملك الناصر. فتذكروا أمر التتار وما أوجب الله على المسلمين من جهادهم، ودفع شرهم عن البلاد، وحفظ بيضة الإسلام منهم. فشعر الحاضرون شعوراً واضحاً بضعف السلطان، وعدم صلاحيته للحكم في مثل هذه الظروف الحرجة. وأن لا بد من سلطان قوي حازم يضطلع بهذا الأمر الكبير، حتى لا يختلف الناس وتذهب ريجهم.

وكان الشيخ ابن عبد السلام فيمن حضر ذلك المجلس من العلماء ، فجهر بهذا الرأي في غير تعريض ، واقترح أن يلي الحكم الأمير سيف الدين قطز لصلاحه وقوته ، حتى تتفق كلمة المسلمين . فدهش أهل المجلس من شجاعة الشيخ ابن عبد السلام وصراحته . وأشفق عليه أصحابه ومحبه أن يصيبه سوء من قبل السلطان والأمراء الذين يعز عليهم أن يخضعوا لقطز ، ويستأثر دونهم بالسلطة . وحصل اضطراب في المجلس . وجهر الأمراء المماليك المعزية منهم والصالحية برفض الاقتراح ، وعدوه افتئاتاً على حق الملك المنصور . وكان أشدهم في ذلك الأميران علم الدين سنجر الغنمي وسيف الدين بهادر وغيرهما من مماليك المعز ، وكاد يحصل ما لا يحمد في المجلس لولا أن فضه الأمير قطز ، فانصرف الحاضرون وهم يتذكرون ما جرى في المجلس ، فمنهم من يميل إلى الأمير قطز وهم سواد الناس ، ومنهم من يميل إلى الملك المنصور وجلهم من الأمراء وأتباعهم . وخشي الأمير قطز على الشيخ ابن عبد السلام أن يجني عليه الأمراء ، فرتب رجالاً أشداء لحراسته حتى أبلغوه مأمنه ، وظلوا بعد ذلك يحرسونه أينما ذهب .

وانتهز الأمير قطز فرصة خروج كبار الأمراء ذات يوم للصيد ، فقبض على المنصور وأخيه قاقان وأمهما واعتقلهم في برج بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر ، وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المظفر .

ولما رجع الأمراء من الصيد وبلغهم ما فعله نائب السلطنة ركبوا إلى قلعة الجبل وأنكروا ما كان من قبض قطز على المنصور وتوثبه على الملك . فاستقبلهم السلطان الجديد استقبالا حسناً وألان لهم الحديث ، واعتذر لهم بحركة التتار إلى جهة الشام فمصر ، والتخوف مع هذا من الناصر صاحب دمشق أن ينضم إلى التتار ويستنجد بهم للاغارة على مصر ، وقال لهم : « إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا في السلطنة من شئتم . وإذا

كان فيكم من يرى نفسه أقوى مني على الاضطلاع بهذا الأمر فليتقدم إلى لأحله محلي فيعفيني من هذه التبعة العظيمة ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله .

فسكت الأمراء جميعاً ونظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا .

وورد الخبر إلى مصر بأن الملك الناصر لما اسبغاً جواب سلطان مصر أخذ يفاوض التتار مرة أخرى ليساعده على غزو مصر . فشق هذا على الملك المظفر ودعا السفير الشامي فقال له : « أما يستحي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام ، ثم يستنجد به علينا ؟ إذا لم يكن عنده إسلام فلتكن عنده مروءة ! » .

فجعل السفير يهدئ من غضب الملك المظفر ويقول له : « لعله استبغاً جوابكم فخشي أن تكونوا ضده » . فقال له الملك المظفر وهو يتميز من الغيظ : « فهب أننا كنا ضده لما بيننا من سالف الخلاف والتنافس ، أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام فيعينهم علينا ، ويمهد لهم السبيل لغزو بلادنا والقضاء على ما بقي فيها من دين وإيمان ؟ والله لئن لم يكف عن خيانه للدين لأسيرن إليه فأحطمته قبل التتار ! » .

أما بيبرس فقد كان في غزة ، لما بلغه قبض خصمه الأمير قطز على الملك المنصور ، وإعلان نفسه سلطاناً على مصر ، ففكر في مصالحة عدوه وصديقه القديم ، فبعث إليه يعترف له بالسلطنة ، ويعظم شأنه ويصف له ما يكابده هو من ذل الغربة وعذاب التشرد ، ويتوسل إليه بحق الصداقة القديمة أن يقبل عثرته ويقبل خدمته ، ويأذن له بالرجوع إلى مصر ، ليشد أزره في عزمه على قتال التتار .

فلما قرأ الملك المظفر كتابه ، أدركته الرأفة فبكى وقال : « الحمد لله قد عاد صديقي القديم الي ، وكتب إليه جواباً رقيقاً يسأله القدوم عليه ويعده بالوعود الجميلة .

ففارق بيبرس غزة، وسار في جاعة من أصحابه عائداً إلى مصر، فلما قارب القاهرة ركب الملك المظفر للقائه، فعانقه واستقبله استقبالا حسنا، وأنزله بدار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب وأعمالها. وأخذ الملك المظفر بعد ذلك يقربه إليه ويستشيريه في أموره، ويبالغ في اكرامه ومجاملته خشية من بدواته. ولم ينس ما يضمرة له كبير أتباع أقطاي من الخصومة والحقد، فاجتهد أن يستل سخيمته من صدره ليتخذ عضداً له في جهاد أعداء الاسلام، لما يتصف به بيبرس من الشجاعة والبأس، وكثيراً ما نصحه بعض بطانته بالقبض على بيبرس حتى يأمن جانبه فلا ينتفض عليه في وقت الخطر، فكان يعرض عنهم ويقول لهم: «دعوني وصديقي بيبرس، ليس لي أن أحرم المسلمين فضل بأسه وشجاعته».

وكان بيبرس في بدء اقامته بمصر يظهر الاخلاص للملك المظفر والاستعداد لخدمته ومناصرته، ولكنه سرعان ما نسي جيل المظفر واحسانه إليه، وعندما كثر اجتماعه بزملائه من المماليك الصالحية الذين رأوا الأمر قد خرج من أيديهم منذ مقتل أقطاي، وغلبهم عليك المماليك المعزية، فأوغروا صدره على الملك المظفر وحسنوا له الانتفاض عليه لاسترجاع سالف سلطانهم، وذكروه بثأر رئيسهم فارس الدين أقطاي، فصادف هذا هوى في نفس بيبرس، ولكنه أوصاهم بالكتمان وارجاء الأمر إلى الحين المناسب، ريثما يدبرون مكيده للقبض على الملك المظفر وحلول بيبرس محله.

وكان الملك المظفر إذ ذاك يفكر في تدبير المال اللازم لتقوية الجيش المصري، وتكثير عدده وتجهيزه بالأسلحة والعدد وآلات القتال، وجمع الذخائر والأقوات والأرزاق الكافية لاعاشته وتموينه - إذ ليس ببيت المال ما يكفي للقيام بهذا الأمر العظيم، فخطر بباله أن يفرض ضريبة على الامة وأملاكها لجمع المال اللازم: فعقد مجلساً حضره العلماء والقضاء والأمراء والوزراء والأعيان، وفي مقدمتهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام. فاستفتى الملك المظفر

العلماء في جواز فرض الأموال على العامة لانفاقها في العساكر، فتهيب العلماء في الافتاء. وخافوا ان هم أفتوا بالجواز أن يغضبوا العامة عليهم، وان أفتوا بالمنع أن يبهوا بغضب السلطان، فظلوا يتدافعون الافتاء حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة فسكت سائر العلماء وانفض المجلس على ذلك.

وكانت الفتيا صريحة في وجوب أخذ أموال الأمراء وأملاكهم حتى يساوها العامة في ملابسهم ونفقاتهم، فحينئذ يجوز الأخذ من أموال العامة، أما قبل ذلك فلا يجوز. فحار الملك المظفر في الأمر لأنه ان سهل عليه الأخذ من أموال العامة فليس من اليسير عليه أن يأخذ من أموال الأمراء دون أن يحدث ذلك شغباً فيهم قد يوقد في البلاد فتنة يصعب اطفاء نارها. فبعث إلى الشيخ ابن عبد السلام، وشرح له صعوبة الأخذ من أموال الأمراء، وتلطف معه ليفتيه بجواز الأخذ من أموال العامة إذا صعب الأخذ من أموال الأمراء. فلم يرض ابن عبد السلام وقال له: «لا أرجع في فتواي لرأي ملك أو سلطان. وذكره بالله وبالعهد الذي قطعه على نفسه أن يقوم بالعدل وينظر لمصلحة المسلمين، وأغلظ له في ذلك حتى لم يشك الحاضرون أن السلطان سيقبض عليه، فما كان من الملك المظفر إلا أن اغرورقت عيناه بالدموع، وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلاً: «بارك الله لنا ولمصر فيك، إن الإسلام ليفتخر بعالم مثلك، لا يخاف في الحق لومة لائم».

وبعث الملك المظفر إلى الأمير بيبرس فاستشاره في هذا الأمر الخطير، فخوفه بيبرس في أول الأمر من عاقبة الأخذ من أموال الأمراء، وأكد له أنهم سينتقضون عليه ولا يطيعونه. وكان غرضه بذلك أن يحمل الملك المظفر على نقض ما أفتى به ابن عبد السلام، ليفضب هذا العالم لدينه فيثير الناس على المظفر. ولكنه لما بلغه أن المظفر رضي عن الشيخ لتشدده في التمسك بفتياه، وأثنى عليه لذلك، رجع بيبرس إلى المظفر وقال له: «قد رجعت عن رأيي الأول، وأرى الآن أن تمضي ما أفتى به الشيخ ابن عبد السلام،

وساكون أول من ينزل عن أملاكه لبيت المال». وكان بيبرس يريد بهذا أن يثور الأمراء على الملك المظفر ويخلعوه ويولوا بيبرس مكانه. وقد اجتمع بهم سرا وحرصهم على ذلك، وأنذروهم بأن قطزاً سيجردهم من أملاكهم وأموالهم ويساويهم بالعامّة، وأن في ذلك اخلاًّ بشرفهم واسقاطاً لحقوقهم ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وأخذ أولئك الأمراء يستعدون لذلك اليوم الذي يفتحهم فيه المظفر بالنزول عن ممتلكاتهم لبيت المال، وتشاوروا طويلاً فيما يقابلونه به عندما يحاول التنفيذ. وكانوا موقنين بأنه سيأخذهم بالشدة، فتهيأوا لمقابلتها بمثلها ولو أفضى بهم ذلك إلى قتله.

وانتهى شيء من خبرهم إلى الملك المظفر فدعا الأمير بيبرس إليه وخلا به وقال له: «اتق الله يا بيبرس في دينك ووطنك، إننا لسنا في وقت يكون لنا فيه أن نتنافس على الملك، فأمامنا تبعات جسام نحو الأمة والملة. وقد ترى كيف يغير هؤلاء التثار المتوحشون على أطراف الشام وهم قادمون إلينا. فإذا لم نهض لصددهم فسيكون مصيرنا مصر بغداد. وقد تعين علينا الجهاد في سبيل الله، فلنمض له ولنجمع عليه، ولا تفرقنا المطامع والأهواء ولا الاحن والعداوات».

فحاول بيبرس أن يتنصل مما عزي إليه، فبدره السلطان قائلاً: «لا تنكر ذلك بالقول يا بيبرس، ولكن انكره بفعلك. واعلم أنني لو أردت قتلك لما أعجزني ذلك، ولكني أضن برجل مثلك أن يقتل في غير سبيل الله، وأريد أن أستبقيك ليوم مع أعدائنا مشهود، تكون لك فيه البطولة والفضل».

قال بيبرس وقد ظهر الغضب في وجهه: «أتهددني يا سيف الدين؟ فوالله إني لأقوى منك ناصراً وأكثر عدداً».

قال السلطان: «وإني والله لا أهاب عدوك، ولا أخشى ناصرك. ولو امتلأ الوادي بشيعتك من منبعه إلى مصبه لرجوت الله أن ينصرني عليك

ويكفيني شرك ولو أفردت وحدي، فإن حسبي الله به حولي وقوتي وهو نعم الوكيل!».

فأطرق بيبرس ملياً، فمضى السلطان يقول: «إنك جئت إليّ - وقد تقاذفتك بلاد الله الواسعة، فضاقت عليك بما رحبت - تستقيلني فأقلتك وقبلت عذرك وأدنيتك من مجلسي واتخذتك صفياء لي لا أقطع أمراً دونك، وأقطعك من مال البلاد لتقوم بخدمتها، فقل لي ماذا تنقم مني فأنصفك من نفسي؟».

فرفع بيبرس رأسه وقال، وقد سكت عنه الغضب: «إني ما أنقم منك إلا سوء ظنك بي».

- «إنك أنت الذي أفسدت رأيي فيك، واني لمستعد لأعود لحسن ظني بك إذا قمت بواجبك نحو دينك وأمتك».

- ماذا تريد مني أن أصنع لترجع عن سوء رأيك في؟

- أبسط يدك فعاهدني أن تكون معي على هؤلاء المؤتمرين من شيعتك، الذين طالما شبعوا من أموال الأمة، ثم بخلوا عليها بالقليل حين تعرضت سلامتها للخطر.

- أعاهدك بشر في وديني أنني أقاتل معك أعداء الإسلام التتار حتى ننتصر عليهم أو أقتل دونك. أما الأمراء الذين ذكرت فشأنك وشأنهم لا أعينك عليهم ولا أعينهم عليك.

فمد السلطان يده فصافحه قائلاً: «حسبي هذا منك أن تقاتل معي التتار وأن تكون بصدد الأمراء كفافاً، لا علي ولا لي»، وحلفه على ذلك فحلف له بيبرس.

ولم يم الملك المظفر ليلته تلك، فقد قضاهما ساهراً يفكر في طريقة يحمل بها الأمراء على تسليم ما عندهم من ذهب وفضة. وفي الصباح دعا وزيره يعقوب بن الرافع وتشاور معه طويلاً، ثم اتفقا على أمر نوى التصميم عليه.

ودعي الأمراء المماليك إلى مجلس القلعة، فلما حضروا جميعاً دخل عليهم المظفر فقاموا له وحياتهم جميعاً، ثم بسط لهم القضية التي دعاهم من أجلها وكان مما قاله لهم: «إن الأمراء هم جنود الدولة، جاءوا إلى هذه البلاد من أسواق الرقيق لا يملكون شيئاً، فغنوا من أموال الأمة، وامتلأت خزائهم بالذهب والفضة حتى أن فيهم لمن يجهز بناته بالجواهر والآل، ويتخذ الاناء الذي يستنجي به في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر. كل ذلك والأمة صابرة عليهم راضية بهم لأنهم يقومون لها بمهمة الدفاع عن بلادها، وتوفير أسباب الأمن لها. وها هو ذا العدو على الأبواب قد أقبل يريد القضاء عليها وعلى دينها وشرفها وعرضها ومالها. وليس في بيت المال ما يكفي لتجهيز الجيش اللازم لرد العدو. فكان علينا أن نأخذ من أموال الأمة لبيت المال إذ لا سبيل لنا غير ذلك. ولكن الشرع الشريف أفتانا بأنه لا يجوز لنا ذلك حتى ننزل نحن - معشر الأمراء - عما احتجنا من أموال الأمة، ونرد لبيت المال ما كنزنا من ذهب وفضة وجواهر وغيرها مما يفضل عن حاجتنا، فإذا أحصينا ذلك ولم يكف كان لنا حينئذ أن نأخذ من أموال العامة. وإني ما دعوتكم الآن إلا لتساعدوني على تنفيذ حكم الشرع في وفيكم ثم في الأمة حتى نبرأ إلى الله من مظالمنا ونخرج للجهاد في سبيله وقد رضي عنا ورضينا عنه، فینصرنا على عدونا ويثبت أقدامنا يوم اللقاء».

كان الأمراء قد عرفوا ما دعاهم الملك المظفر من أجله قبل حضورهم فعزموا على ببيرس أن يتولى عنهم محاجة السلطان، ولكن ببيرس اعتذر لهم بضعف حجته وعدم طلاقة لسانه وقال لهم: «إن الملك المظفر قوي البيان فاختراروا منكم رجلاً أقوى مني بمحاجته، وإني لا أخالفكم في أمر، تجتمعون عليه». فقبلوا عذره واختاروا غيره ليتولى عنهم الكلام.

فلما انتهى الملك المظفر من حديثه انتدب له لسان القوم فقال له: «أتريد أن تجردنا من أموالنا يا خوند؟».

قال السلطان: «كلا... بل أريد أن تتجردوا عما يفيض عن حاجتكم بما أخذتموه من مال الأمة».

- أأردت أن تقول أن أموالنا ليست لنا؟

- نعم إنها ليست لكم وإنما هي للأمة، وإلا فأخبروني من أين جاءتكم...؟ فهل ورثتموها عن آبائكم أو كسبتموها بالتجارة أو أي طريق من طرق الكسب المشروعة؟

- حرام عليك يا خوند أن تتركنا نموت جوعاً لتعيش أنت وحدك سلطاناً على مصر ويخلو لك الجو.

- إنكم لن تموتوا جوعاً، فأنتم جنود الأمة وعليها اعاشتكم من صلب مالها، وما هو ذا سلطانها بينكم «يشير إلى نفسه» يتعهد لكم باعاشتكم وإعاشة أبنائكم وأهليكم بما يكفل شرفكم ويصون حرماكم، يقتطع ذلك لكم بالمعروف من بيت مال الأمة. وسأكون أول من ينزل لبيت المال عما يملك من ذهب وفضة. وهذه حلى سلطانتكم - وأشار إلى صندوق كان قد وضعه قدامه - قد نزلت عنها لبيت مال الأمة. وأقسم لك بالله أني لن آخذ من مال البلاد إلا ما يكفي، ولن يزيد نصيبي على نصيب أي فرد منكم. أما قولك يا هذا انني أريد أن يخلو لي الجو فأنتم والله عدتي وقوتي، وكيف يعيش السلطان بغير عدة وقوة؟

فانقطع متكلم القوم ولم يجر جواباً، فنظروا إليه مفضبين وصاحوا به: «تكلم! انطق!» فقال لهم: «والله لا أدري ماذا أقول له. لقد أوقعني بيبرس في هذه الورطة وخلص هو منها سالماً». ونظروا يتلمسون بيبرس فلم يجدوه بينهم فقالوا للسلطان: «أمهلنا حتى نرى رأينا فيما ذكرت». فأجابهم السلطان: «لا أمهلكم أكثر من هذا اليوم فتشاوروا فيما بينكم الآن إن شئتم، ولن تخرجوا من هنا إلا على شيء».

وكان بيبرس قد سبقهم إلى القلعة، واتفق مع الملك المظفر أن يجلس وراء

الباب الذي دخل منه السلطان بحيث يسمع حديثهم، وعليه جماعة من حرس السلطان، فلما قال القوم: «نريد بيبرس لنرى رأيه». قال لهم السلطان: «إن الأمير بيبرس قد اتفق معي على ما أردت، وحلف لي بذلك. وهو الآن موجود خلف هذا الباب يسمع حديثكم».

فصاحوا جميعاً: «لقد باعنا بيبرس» وطلبوا دخوله إليهم، فناداه السلطان، فدخل بيبرس القاعة فرمقوه بعيون محمرة وصاحوا به: «بعتنا للسلطان يا بيبرس!»، فأجابهم بيبرس قائلاً: «كلا والله ما بعتمكم للسلطان، وإني غير مسئول عنكم تعرفون شأنكم معه. وإنما عاهدت السلطان أن أقاتل معه التتار، وتعهدت له بأنني لا أعينكم عليه ولا أعينه عليكم، وهذا التعهد لا يربط غيري. أما أنتم فأحرار تفعلون ما شئتم».

فصاح القوم جميعاً: «لا نطيع السلطان، لا ننزل له عن أموالنا وأملاكنا» ونظروا إلى أبواب قاعة العواميد فوجدوها قد غلقت عليهم فاستقروا في مجالسهم. وعند ذلك نهض السلطان من مجلسه وقال لهم: «سأمهلكم ساعة تراجعون فيها وحدكم لتنزلوا عما عندكم من أموال الأمة راضين، قبل أن تنزلوا عنه صاغرين!»، وأخذ بيد صديقه بيبرس فغادر به القاعة من الباب الخاص.

وكان الملك المظفر قد دبر فرقة من رجاله الأشداء الأمناء لكبس بيوت الأمراء المماليك وكسر خزائنهم وحمل ما فيها من الذهب والفضة والجواهر إلى بيت المال، وخصص كلا منهم لبيت من بيوتهم، وأمرهم أن ينتظروا اشارته بذلك. فلما مضت الساعة ولم يتفقوا على شيء أشار إلى رجاله فانطلقوا ينفذون تدبيره.

وما راعهم إلا السلطان قد دخل إليهم يقول لهم: «انصرفوا إلى بيوتكم فقد نفذ الله فيكم ما أراد سبحانه». ونظروا فإذا أحد أبواب القاعة قد فتح، فجعلوا يخرجون منه واجين، وإذا عصبة من رجال السلطان قد وقفوا

خارج الباب فقبضوا على رؤساء القوم وتركوا الباقين .
وأحصى ما جاء من عند الأمراء فوجد أنه لا يكفي لتقوية الجيش
وتموينه، فعند ذلك أمر الملك المظفر باحصاء الأموال وأخذ زكاتها من
أربابها، وبأخذ كراء شهرين من الأملاك والعقارات المستأجرة، وبفرض
دينار على رأس كل قادر من سكان القطر المصري . فاجتمع من ذلك في بيت
المال نحو ستمائة ألف دينار .

ولما انتهى الملك المظفر من ذلك عهد إلى وزيره يعقوب بن عبد الرفيع
وأتابكه أقطاي المستعرب أن يباشرا تقوية الجيش المصري بالأسلحة والعدد
وآلات القتال، وتكثير عدده بتجنيد الشباب الأقوياء من أهل مصر واستقدام
العربان والبدو وتجنيدهم وتفريق الأموال فيهم . وأمرها بإنشاء المصانع الكبيرة
لصنع الأسلحة والمجانيق وغيرها من العدد الحربية في جميع أرجاء البلاد،
وبشراء الجياد العربية العتيقة والبغال القوية والإبل الهجان .

وأوعز للشيخ عز الدين بن عبد السلام فأنشأ ديواناً كبيراً للدعوة إلى
الجهاد في سبيل الله، يضم إليه من يختارهم من خطباء الجوامع فيلقنهم ما
ينبغي لهم أن يخطبوا الناس به على المنابر ليدعوهم إلى الجهاد ويبينوا لهم
فضائله، ويفصلوا لهم ما أنزل التتار ببغداد وغيرها من الخراب والدمار، وما
اقترفوه فيها من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض والحرقات
وتهديم الجوامع والمساجد وقتل الأطفال الرضع والشيوخ والعجائز وبقر بطون
الحوامل . ويبعث من ذلك الديوان الوعاظ يطوفون بالقرى يدعون أهلها إلى
الجهاد، ويوقدون في قلوبهم نار الحماسة لله والوطن . وكان الشيخ ابن عبد
السلام لا يميز أحداً من هؤلاء الخطباء والوعاظ بالانطلاق لعملهم حتى يحفظ
سورتي الأنفال والتوبة من القرآن عن ظهر قلب . فكان من جراء ذلك أن
صارت المنابر والجوامع والأندية ومجالس القرى تعج بآيات القتال من القرآن
حتى كاد الرجال والنساء والأطفال يستظهرونها حفظاً .

وكانت الأخبار ترد باطراد تقدم التتار في بلاد الجزيرة، يقصدون الشام ومصر. كل ذلك والملك المظفر رابط الجأش ساكن الأعصاب لا يضع من وقته لحظة في غير الاستعداد. وفي خلال ذلك جاءت رسل التتار إلى مصر، وكانوا بضعة عشر رجلاً يرأسهم خمسة من كبارهم، يحسنون اللسان العربي، ومعهم صبي مراهق. وكان فيهم رجال مخصوصون للتجسس، ليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات المدينة والثغر الضعيفة فيها. وقد جاءوا بكتاب من هولاكو إلى الملك المظفر، فأمر باستقبالهم استقبالا حسنا، ورتب جماعة من عسكره ليقوموا بشؤونهم وحاجاتهم ويصحبوهم إلى كل موضع يحبون الذهاب إليه. وقد عجبوا لهذه الحرية التي أعطيت لهم إلا واحداً من رؤسائهم الخمسة أمر الملك المظفر أول ما قدموا فعزل عن أصحابه، واعتقل في برج من أبراج القلعة فلم يسأل الباقون عنه لأنهاكهم في تعرف قوى الدفاع للدولة. والاطلاع على حصون المدينة وأسوارها وأبوابها، حتى إذا قضا من ذلك ما أحبوا أمر بهم الملك المظفر فاعتقلوا في برج آخر. أما الصبي التري، فكان يتسلل إلى القصور السلطانية في غفلة الحراس، حتى عثر عليه يوماً عند الحرم قد أحاطت به جوارى القصر، يتعجب من خلقته وشكله، وهو يخاطبهن بكلمات عربية مكسرة. فقبض عليه، وسيق إلى الملك المظفر، فأمر باعتقاله وحده.

واستشار السلطان الأمراء فيما يجيب التتار به. فأشار معظمهم أن يرسلوا إلى هولاكو جواباً لطيفاً يتقون به شره، ويخطبون به وده، ويتفقون معه على مال يؤدونه جزية إليه كل سنة لئلا يهجم على بلادهم فيهلك الحرث والنسل. وقالوا إنه لا فائدة من مقاومة التتار، وإن اللين معهم أنفع من الشدة. فغضب الملك المظفر غضباً شديداً، وأحرر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه وجعل يقول بصوت أجش: «إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ

وَهُمْ صَاغِرُونَ^(١) وأنتم تريدون منا أن نعكس الآية ونقول: «حتى تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون؟» ثم قام إلى كبير الجماعة فاخطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه، وهو يقول: «إن السيف الذي يجبن حامله على القتال لخليق أن يكسر هكذا ويلقى في وجه صاحبه».

وأمر بإحضار الرسل فأحضروا بين يديه، فقال لرجاله: «اصنعوا بهم ما أمرتكم به». فخرجوا بهم، ونودي بأمرهم في الناس، فخرج الرجال والنساء والصبيان لمشاهدتهم في موكب عظيم، وقد أركبوا على جمال شدوا إلى أكتافها بالحبال ووجوههم إلى أذيالها، ما عدا الرسول المفرد المعزول وحده. فقد قيد وحل على محفة لي شاهد ما يفعل بأصحابه، وما خلا الصبي التتري، فقد أمر السلطان باستبقائه ليجعله في جملة مماليكه. وخرج الموكب بالطبول من القلعة، وسارت جموع الناس حولهم يصيحون ويضحكون ويصفقون بأيديهم لهواً ومرحاً، حتى وصلوا سوق الخيل تحت قلعة الجبل فقتلوا أحد الرسل ولما بلغوا ظاهر باب زويلة قتلوا الثاني، وقتلوا الثالث بظاهر باب النصر، والرابع بالريدانية، ثم أنزل الباقون فقتلوا دفعة واحدة، وعلقت رؤوس الجميع على باب زويلة.

وأمر السلطان فأقيم عصر ذلك اليوم استعراض عظيم للجيش المصري في ميدان الريدانية حيث نصب للملك سرادق في مرتفع جلس فيه على كرسيه يحيط به كبار الأمراء والوزراء، فأقبلت فرسان الجيش فرقة بعد فرقة يتقدمها أميرها حاملاً لواءه وهم جميعاً شاكو السلاح، فكلما مرت فرقة أشار أميرها بالتحية، فقام الملك المظفر وأوماً بيده ردّاً على تحيته، ثم مرت فرق المشاة وهم شاكو السلاح حتى غص بهم الميدان، وأقبلت وراءهم فرقة المجانيق محمولة على عجلات تجرها البغال القوية ثم مرت فرق المهجانة على ذلهم وعليهم

(١) سورة التوبة، آية ٢٩.

العائم الصفراء . ثم مر كبار الأمراء فامتطوا جيادهم وتباروا سبعة أشواط في الميدان ، ولما انتهى الشوط السابع ترجلوا وقصدوا السراشق فصافحهم الملك وأجازهم .

ونفض الملك المظفر بعد ذلك ونزل من السراشق وامتطى جواده الأبيض تحرسه كوكبة من الفرسان ، وتحرك ركابه إلى قلعة الجبل يخترق الجاهير المحتشدة وهي تهتف له بالدعاء : « يعيش السلطان ! يديم الله أيامه ! يطول عمر المظفر ! » حتى إذا ما حاذى السلطان باب القلعة أمر الصبي التري فأحضره لديه ، وأمر بالرسول التري فأطلق بين يديه وقال له : « أخبر مولاك اللعين بما شاهدته من بعض قوتنا ، وقل له ان رجال مصر ليسوا كمن شاهدهم من الرجال قبلنا ، وقل لمولاك إننا استبقينا هذا الصبي عندنا لنملكه عليكم في بلادكم عندما نكسرهم ونمزقكم كل ممزق » .

ثم أمر وزيره يعقوب بن عبد الرقيق فسلم الرسول التري جوابًا مختومًا لهولاكو ، وأمر جماعة من رجاله ليحرسوه ويوصلوه إلى الحدود . وهكذا قطع الملك المظفر أمل أولئك الأمراء المشاغبين في مسألة هولاكو ووضعهم أمام الأمر الواقع .

لم يكتف المظفر بأعداد الجيش المصري وإكمال عدده ومؤنه للملاقاة التار ، بل رأى أن يقيم دونهم جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وأمرائها . وكان يعلم تخاذلهم وتواكلهم وتقاعسهم عن قتال التار وميلهم إلى التسليم لهولاكو والخضوع له ، فكتب إلى كل واحد منهم رسالة يشرح لهم فيها أنه جاد في العزم على قتال التار وقد أعد للتار جنودًا لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الإسلام منهم ، ويطهرها من رجسهم ، وأنه يعتبر بلاد الشام حصون مصر الأمامية ، وأن وقوعها في أيدي التار يعرض سلامة مصر للخطر . ويؤكد لهم فيها أنه لا مطمع له في ملك الشام وسيترك بلاد الشام للموكها وأمرائها المسلمين . وإنما غايته أن يساعدهم على حفظها من السقوط في

أيدي الكفرة الفجرة، ويقول فيها : انه وإن اعترف أن بلاد الشام للوكها إلا أنه لن يسمح لأحد منهم أن يستسلم للتتار، بله أن يظاهروهم على اخوانه المسلمين. وإن مثله ومثلهم ومثل التتار كمثل من اشتعلت النار في بيت جاره الأدنى فعليه أن يسعى لاطفائها وليس لجاره أن يقول له : « لا شأن لك بداري ». ويصرح لهم فيها أنه سيعاقب من يمالئ الأعداء منهم بقتله وتوريث بلاده لمن هو أحق بها منه ممن قاتل التتار من ملوك الشام. وأنه إذا لم يستطع أحدهم الوقوف في وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه، فعليه أن يلحق بالديار المصرية حيث يجد منها التكرمة والحفاوة حتى يحين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الجميع. ومن لم يفعل ذلك وتأخر لغير عذر قاهر فإنه يفقد بلاده وملكه عندما يتم اجلاء التتار عنها بسيف المصريين. وما اكتفى السلطان كذلك بهذه الرسائل حتى سير إلى بلاد الشام جماعة من الشاميين المقيمين بمصر ليحدثوا أهل بلادهم بما أعده الملك المظفر من الجيوش الإسلامية العظيمة لرد غارات التتار وإجلالهم عن بلاد المسلمين.

ولما اشتدت هجمات التتار على بلاد الشام لحق بمصر كثير من ملوكها الذين آثروا الانضمام إلى الملك المظفر ليقاتلوا التتار معه، فأكرم السلطان وفادتهم، وجعلهم في بطانته يستشيرهم في كبار الأمور ويشركهم معه في تبعات الجهاد في سبيل الإسلام. وأمر كلا منهم على من قدم معه من مماليكه وجنوده إلى مصر، وضم إليه عددًا من الجنود المصريين، فكانوا تحت قيادته. ولحق آخرون ممن كتب الله عليهم الذل في الدنيا والخزي في الآخرة بهولاكو، حتى كان فيهم من أعانه وقاتل المسلمين معه .



وهكذا كان العزّ بن عبد السلام هو الذي أفتى!!!
وهو الذي أعلن ما عجز العلماء عن إعلانه!!!
وهو الذي أعلن أخطر قرار... يعرض حياته للقتل...
قرار أن يتولى الأمير قُطُز مَلِكًا على مصر... ويخلع هذا الملك
الطفل العايب عن العرش!!!
فهل فهمت الآن شيئًا عن مدى قوة شخصية العزّ بن عبد السلام؟!
وأنه كان المحرك الأول لشئون الدولة؟!
إذا قال سمعوا لقوله... لأنه يعمل لله... ولنُصرة دين الله...
فصوته كان صَوْتًا من السماء!!!

العِزَّ بن عبد السلام...
ومعركة...

« عين جالوت »...!؟

عندما يشتد الظلام... يوشك الفجر على الانشقاق...
وقد بلغ اليأس منتهاه... ويثس الناس أن يقوم للمسلمين قائمة...
بعد اجتياح التتار لعاصمة الخلافة بغداد... وما صنعوا بأهلها من
الإبادة والتذبيح...

ثم تدفقوا إلى الشام فاحتلوا حلب...
وها هي رُسُلهم تحمل إلى حاكم مصر انذاراً... إمّا التسليم التام وإما
الإبادة التامة!!!

فمن يستطيع أن يقف في وجه هؤلاء... وقد اكتسحوا العالم كله
من بلادهم في أقصى الصين إلى العراق في عام واحد؟!!!
وليست المصيبة في قوة التتار التي لا تُقهر ولكن المصيبة الأكبر في
تمزق ملوك المسلمين واختلافاتهم... حتى في مصر كانت بقايا المماليك
البحرية تتربص بالعرش... وكان على العرش صبي يلعب هو «نور
الدين علي»... ولولا حكمة نائبه الأمير قُطُز لكانت مهزلة المؤامرات
والدسائس والانقلابات!!!

أما الجماهير ففي حيرة المنتظر لِنَادي عليه للإعدام!!!
ظلمات بعضها فوق بعض...

فلما اشتدت الظلمات ... اشتدت الحاجة إلى انفجار الفجر ...
وكان العزّ في قلب الأحداث ... يُفكّر ويُدبّر ... ويُشير
ويستشار ...

فأشار على قُطز أن يتولى ... وينزع هذا الغلام بعيداً ...
وانقلب إلى الجبهة الداخلية ... يعلن التعبئة العامة في جميع طبقات
الشعب ...

أخرجوا إلى التار ...
دافعوا عن أعراضكم وإلا انتهكوها ...
دافعوا عن أموالكم وإلا انتهبوها ...
دافعوا عن أوطانكم وإلا احتلوها ...
إنّ التار لا يُبقون على شيء ... فماذا تنتظرون؟!
أنتظرون التذبيح كالأخراف؟!
أم تنتظرون أن يفعلوا بنسائكم ما يفعل كل عتُلّ زنيم؟!
ودوّت صرخة العزّ بن عبد السلام في أعماق قلوب الجماهير ...
وكلّمّا ألحّ على أبواب قلوبهم دقّاً ... كلما سقطت أقفال كانت على
تلك القلوب ...

فأبصر الناس الحقيقة ... بعد أن كانوا عمّياً لا يبصرون ... من
هول ما يسمعون عن فظائع التار!!!
وبينما كان السلطان الملك المظفر قُطز ... يحشد القوات المصرية
الضاربة ... بجميع ألويتها وأسلحتها الضاربة ...
كان العزّ بن عبد السلام ... يحشد الجماهير بجميع طاقاتها المقدسة ...
واشتعلت مصر ناراً ... يريد كل مصري أن يستبق إلى التار!!!
وبادر البطل العظيم ... قُطز إلى اعلان الحرب على التار ...
لفوره ...

فأمر بذبح رُسُل التتار ...
فدُجِّبوا ... وطيف برؤوسهم في شوارع القاهرة!!!
فرُعِب هنالك المرجفون ...
وازداد المخلصون رغبة في إحدى الحسينين ... إما النصر ... وإما
الشهادة ...
وخرج العظيم ... المخلص ... قاهر التتار ... السلطان قُطِر ...
على رأس الجيش الرسمي ...
ومن ورائه الجيش الشعبي ... الذي حشده البطل العظيم العز بن عبد
السلام ...
وكان اللقاء في عين جالوت ...
وكان النداء المقدس ... وإسلاماه!!!
والتحم الفريقان ...
فريق الحق ... على رأسه قُطِر ...
وفريق البرابرة التتار وعلى رأسه كتبغانوين!!!
وألقى البطل قُطِر عن رأسه الخوذة ...
وترجَّل عن فرسه وصاح: وإسلاماه!!!
وقاتل مُلقياً نفسه على الموت ... راغباً في شرف الشهادة ...
وانطلق قائد عام القوات المسلحة ... الأسد الضاري ... ببيرس
البندقداري ... يقطف من التتار الرؤوس ...
وكان يزأر وينقض بسيفه البتَّار فلا يقوم له منهم أحد!!!
ونزل النصر!!!
وقُتِل أعظم قائد عند التتار ... كتبغانوين ...
وتمت إبادة القوات التتارية عن آخرها!!!
فكانت معركة فاصلة ... أدارت وجه التاريخ كله ...

وأعادت إلى النفوس الهالعة طمأنينتها ...
ولولا انتصار عين جالوت... لاقتحم التتار مصر... ومنها إلى
المغرب... وقضوا بذلك على جميع دول الإسلام!!!
مَنْ كان وراء هذه المعركة... وَمَنْ كان بطلها؟!
يقول التاريخ: قُطِرَ...
هذا حق... ولكن حقيقة هذا الحق... أَنَّ بطل هذا المعركة
الفاصلة هو العزّ بن عبد السلام...
فهو الذي أشار أن يتسلطن قُطِرَ...
وهو الذي وقف معه... ولولا موقفه هذا ما استطاع قُطِرَ أن يجمع
بيديه القويتين خيوط الأمور كلها...
وهو الذي أفتى أن يؤخذ من جميع أمراء الممالك ما يكتزون حتى
إذا تساوا والجواهر... أخذ من الجميع ما يحتاج إليه الجيش...
وهذا العدل في توزيع المغارم أدى إلى تلاحم قوى الشعب في
المعركة...

وهو الذي أشعل نار الجهاد المقدسة في جميع النفوس...
وَلَوْحَ لهم بنعيم الجنّات... فاستبقوا إليها سراعاً...
والآن: مَنْ بطل عين جالوت؟!
يقول التاريخ: قُطِرَ!!!

ويقول ما وراء التاريخ: بل العزّ بن عبد السلام!!!
لماذا؟!

لأن النصر من عند الله يؤتاه من يشاء...
وكان العزّ بن عبد السلام من رجال الله...
فصرخ العزّ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(١)!!!

(١) سورة طه، آية ٨٤.

فاستجاب له ربه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(١)!!!
ذلك أَنَّ البطل قُطِرَ كان يسترشد بتوجيهات العزّ...
والجيش الذي يقا تل معه ... كان يستضيء بتوجيهات العزّ...
ثم انصهر الجميع في موجة واحدة كان هديرها: وا إسلاماه!!!

(١) سورة غافر، آية ٥١.

مصرع السلطان المنتصر قُطُز ...
وسلطنة ...

الملك الظاهر بيبرس ...!؟

مقتل قُطْزُ؟!

« ولما قرر السلطان الملك المظفر قُطْزُ أمور الشام...
« سار من دمشق إلى جهة الديار المصرية...
« وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه قبله... من قتلها الفارس
أقطاي واستبدادهما بالملك...
« وإنما انحازوا إليه لما تعذّر عليهم المقام بالشام... وللتناصر على
صيانة الإسلام... لا لأنهم أخلصوا له الولاء... أو رضوا له
بالاستيلاء...
« فاتفق الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ومن معهم على
قتله!!!
« وحمل عليه بيبرس البندقداري... وضربه بالسيف... واجتمعوا
عليه ورموه عن فرسه... ثم قتلوه!!!
« وكان شجاعاً... بطلاً... كثير الخير... محباً للإسلام وأهله...
« وقُتل يوم السبت السادس عشر من ذي القعدة في السنة الثامنة
والخمسین بعد الستائة!!!

سلطنة الملك الظاهر؟!

« وهو الأسد الضاري بيبرس البندقداري ...
« فلما وصل بيبرس مع الجماعة الذين قتلوه سأله أقطاي المستعرب
(نائب السلطنة بالديار المصرية) ...
« وقال : من قتله منكم ؟ ...
« فقال بيبرس : أنا قتله ...
« قال أقطاي : اجلس في مرتبة السلطنة مكانه !!!
« فجلس ... واستدعيت العساكر للتحليف ...
« فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قُطز !!!
« وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة ... أعني سنة ثمان
« وخمسين وستائة ...
« واستقر بيبرس في السلطنة ...
« وتلقب بالملك الظاهر ...
« وكانت مصر والقاهرة قد زُيّنا لقُدوم الملك المظفر قُطز ...
« فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس البندقداري » !!!

إقامة خليفة للمسلمين؟!

« السنة التاسعة والخمسين بعد الستائة ...
« وفيها ... نصب السلطان الملك الظاهر الخليفة للمسلمين ...
« وقد كان الإمام أبو العباس أحمد هذا معتقلاً ببغداد ... ثم
أطلق ... وكان مع جماعة الأعراب بالعراق ...

« ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ...
« فقدم عليه الديار المصرية مع جماعة من العرب فيهم عشرة من
الأمراء ...
« وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس ... وبينه
وبين العباس أربعة وعشرون أبا ...
« وكان أول من بايعه يوم عقد المجلس ... القاضي تاج الدين عندما
ثبت نسبه عنده ...
« ثم السلطان الملك الظاهر ...
« ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ...
« ثم الأمراء وأكابر الدولة ...
« وكان منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصفاً ... لأن المستعصم
بالله قُتل في أوائل سنة ست وخسين وستائة ... وبويع هذا في يوم
الاثنين الثالث عشر من رجب من سنة تسع وخسين وستائة ... !!!

وفاة... .

سلطان العلماء... .

العزّ بن عبد السلام...؟! .

في السنة الستين بعد الستائة ...
« استهلت هذه السنة ... وسلطان البلاد المصرية والشامية: الملك
الظاهر بيبرس البندقداري ...
« ذكر من توفي فيها من الأعيان ...

ابن عبد السلام!؟

« الشيخ الإمام ...
« العالم العلامة ...
« عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم الحسن بن
محمد بن المذهب أبو محمد السلمي ... الدمشقي ... الشافعي ...
« شيخ المذهب ...
« ومفيد أهله ...
« وصاحب المصنفات الحسان ... منها: التفسير ... واختصار
النهاية ... والقواعد الكبرى والصغرى ... وكتاب الصلاة ... والفوائد
الموصلية ... وغير ذلك ...

متى وُلِدَ؟!!

- « وُلِدَ سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسة ...
- « وسمع كثيرًا ...
- « واشتغل على الشيخ فخر الدين بن عساكر ... وغيره ...
- « وبرع في المذهب ...
- « ودرّس بعدة مدارس بدمشق ... وولي خطابتها ...

لماذا انتقل إلى مصر؟!!

- « ثم انتقل عنها إلى الديار المصرية ... بسبب إنكاره على الصالح
- إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج ... وغير ذلك ...
- « ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي ...
- « فأخرجها من بلدة ...
- « فسار أبو عمرو بن الحاجب إلى الناصر داود صاحب الكرك ...
- فأكرمه ...
- « وسار عز الدين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب
- مصر ...
- « فأكرمه ...
- « وولاه قضاء مصر ... وخطابة الجامع العتيق ...
- « ثم انتزعها منه ... وأقره على تدريس الصالحية ...
- « فلما حضره الموت أوصى بها للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز ...

متى كانت وفاته؟!

« وكانت وفاته في العاشر من جمادى الأولى... من هذه السنة
(السنة الستين بعد الستائة)...
« وقد نيف على الثمانين...
« ودفن من الغد بسفح جبل المقطم...
« وحضر جنازته الملك الظاهر... وخلق من الأئمة!!! »

★ ★ ★

وقالوا:

« وقد قرر السبكي أنه عمر ثلاثاً وثمانين سنة...
« وقد تلقى شعب مصر وشعب الشام نبأ وفاة الشيخ بالأسى والحزن
العميق...
« وودعه شعب مصر بإكبار وإجلال يليق به...
« وقد سار في جنازته سلطان مصر والشام... الظاهر بيبرس...
« وحمل نعشه... وصلى عليه... وحضر دفنه...
« نقل السبكي عن شرف الدين... ابن الشيخ عز الدين عند ذكر
وفاته:

« فحزن بيبرس عليه كثيراً... حتى قال:
- لا إله إلا الله... ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي!...
« وشجع امراءه... وخاصته... وأجناده لتشييع جنازته...
« وحمل نعشه... وحضر دفنه... »

دمشق تصلي عليه ... صلاة الغائب؟!!

« وعندما علم أهل دمشق بوفاة الشيخ عز الدين حزنوا وأخذوا
يترحمون عليه ... ويدعون له ... ويقيمون له العزاء ...
« فصلي عليه في الجامع الأموي ... وجوامع دمشق الأخرى ...
« وعملوا عزاءه « بجامع التوبة » ...
« يقول أبو شامة:
« وعمل عزاءه بجامع العقبة ... وهو اسمه القديم ... يوم الاثنين
٢٥ جادى الأول ...
« ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة:
« - الصلاة على الفقيه الإمام شيخ الإسلام عز الدين بن عبد
السلام!!! »

★ ★ ★

« وقالوا:
« إنه الآن ليطرق أبواب الثالثة والثمانين ... وآن للشيخ أن
يستريح ...
« وعاده السلطان الظاهر بيبرس في مرضه ... ورآه يشرف على
التلف ... فاستأذنه في أن يعين أبناءه مكانه في مناصبه ...
« فقال له الشيخ: « ما فيهم من يصلح ... والمدرسة الصالحية للقاضي
تاج الدين!!! »
« وبلغ الثالثة والثمانين فطلب إلى أبنائه أن يسندوه إلى المدرسة
الصالحية التي تعود أن يدرس فيها ..

«وكان شديد الضعف من المرض... فحاولوا أن يشنوه ولكنه صمم!!!»

«وساندوه إلى المدرسة... فألقى الدرس...»

«وكان درسه الأخير... فقد مات في المدرسة وهو يفسر الآية الكريمة ﴿الله نورُ السماوات والأرض﴾^(١)...»

«فاضت روحه...»

«وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها...»

«وأمر السلطان الأمراء أن يحملوا نعش الشيخ...»

«واشترك معهم السلطان نفسه في حمل النعش...»

«وأقيمت له في دمشق جنازة ضخمة وصلوا عليه صلاة الغائب!!!»

«وحين استقر جثمان الشيخ آخر الدهر تحت سفح المقطم... وعاد

السلطان الظاهر بيبرس إلى قصر ملكه تنفس الصعداء وقال:

«الآن استقر أمري في الملك... لأن هذا الشيخ لو كان يقول

للناس: أخرجوا عليه... لانتزعوا الملك مني»!!!

«لقد صدق الظاهر بيبرس!!!»

«فقد كان الشيخ سلطاناً فوق السلاطين!!!»

«كان سلطان العلماء»!!!

★ ★ ★

«وجاء في «النجوم الزاهرة»: «

«السنة الثانية من ولاية الملك الظاهر بيبرس على مصر... وهي سنة

ستين وستائة:

(١) سورة النور، آية ٣٥.

« وفيها تُوفي الشيخ الإمام العلامة ... شيخ الإسلام ... عر الدين ...
الشافعي ... المعروف بابن عبد السلام ...
« مولده ... سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسة ...
« قال الذهبي: وتفقه على الإمام فخر الدين بن عساكر ...
« وبرع في المذهب ... وبلغ رتبة الاجتهاد ...
« وقصده الطلبة من الآفاق ... وتخرج به أئمة ...
« وله التصانيف المفيدة ... والفتاوى السديدة ...
« وكان إماماً ناسكاً عابداً ...
« وتولى قضاء مصر القديمة مدة ...
« ودرّس بعدة بلاد ...
« ومات في عاشر جمادى الأولى ... !!! »

نماذج قليلة من ...

فتاوى سلطان العلماء ...

العزّ بن عبد السلام...؟!!

كتم العلم

مسألة: أي علم أراد الرسول عليه السلام بقوله: « من كتم علماً يعلمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » ؟
الجواب: المراد بذلك العلم الذي يجب تعلمه من علوم، الشرع، ولا يُحمل ذلك على تعليم الحرف والصنائع، إلا ما كان تعليمه فرض كفاية: كتعليم الرمي وغيره من أسباب القتال

ما حكم تجليد الذمي للمصحف وكتب الدين؟

مسألة: هل يجوز تسليم المصحف الكريم إلى ذمي يجلده أم لا؟ وهل يعصى المسلم بتسليمه إليه ويتوجب الإنكار عليه أم لا؟ وهل يجوز ترك كتب التفسير والحديث النبوي بأيديهم أم لا؟
الجواب: لا تُدفع المصاحف، ولا التفاسير، ولا كتب الحديث إلى كافر لا يرجى إسلامه، ويُنكرُ على فاعله.. والله أعلم.

★ ★ ★

الشيعه وحب علي رضي الله عنه

مسألة: قول جماعة من الشيعة وغيرهم: [حب عليّ - كرم الله وجهه - ممحي للسيئات والمعاصي، وإذا أجبناه لا بأس علينا، مستقيم مجلب للخير، مع انتهاكهم المحارم، وكيلهم على الحلال والحرام، وانهاكهم على الملاذ المنهي عنها، قائلين بحب الله ورسوله وأهل بيته، وقال عليه السلام: «المرء مع من أحب»]

الجواب: حُبُّ عليّ رضي الله عنه من الإيمان؛ فمن أحبه وأطاع ربه، كان له ثواب حبه، وأجر طاعته ربه، وكان عند الله من السعداء. ومن أحبه، وعصى ربه، كان له حبه، وعليه وبال معصية ربه، وكان عند الله من الأشقياء.

★ ★ ★

ظاهر الشرع وحقيقته .. وحب الله تعالى

مسألة: هل يجوز أن يقول المكلف: إن الشرع قشر ظاهر، علم الحقيقة له، أم لا يجوز؟ وهل يجوز للإنسان أن يقول: أنا عاشق الله تعالى، وإن الله تعالى عاشق، مستنداً إلى ما ذكر في بعض الكتب المنزلة: «إذا نظرت إلى قلب عبدي فرأيت الغالب عليه ذكري عشقني وعشقتة؟» وهل يتمشى قول من يقول: لا يجوز أن يسمى إلا بما سمي به نفسه، وأما العشق والخلّة فلا يوصف الرب بها؟ وأي فرق بين العشق والمحبة؟

الجواب: لا يجوز التعبير على الشريعة بأنها قشر من كثرة ما فيها من المنافع والخير، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشراً وأن العلم الملقب بعلم الحقيقة جزء ومن أجزاء علم الشريعة؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غي شقي قليل الأدب!.. ولو قيل لأحدهم! إن كلام شيخك قشور لأنكر ذلك غاية الإنكار. ويطلق لفظ القشور على الشريعة. وليست الشريعة الا كتاب الله وسنة رسوله؛ فيُعزَّر هذا الجاهل تعزيراً يليق بمثل هذا الذنب.

وكذلك لا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى أنه يَعْشَقُ وَيُعْشَقُ؛ لأن العشق فسادٌ في الطبع مخيِّلٌ لما لا وجود له، قال الأطباء: هو مرض سوداوي وسواس يجلبه صاحبه إلى نفسه بالفكر في حسن الصور والشمال. فمن أطلق هذا على محبته لله عَزَّ، وإطلاقه على محبة الله إياه أقبح وأعظم؛ فيعزَّر تعزيراً أعظم من تعزير من أطلق هذا اللفظ على محبته لربه؛ إذ لا يوصف الإله إلا بأوصاف الكمال ونعوت الجلال التي ورد استعمالها في الشرع.

فقال بعضهم: لا يعبر عن ذاته ولا عن صفاته إلا بما عبر به عنها. وقال آخرون: بل يجوز ذلك إذا لم يثبت المنع في كتاب ولا سنة. ومثال ذلك أن يقول: الله يعرف ويذري - مكان قول: الله يعلم.

والفرق بين العشق والمحبة: أن العشق فساد يخيل أن أوصاف المعشوق فوق ما هي، ولا يتصور مثل هذا في حق الإله الذي يرى الأشياء ويعلمها على ما هي عليه. وكذلك لا يطلق على حب العبد للرب لاستعارة أنه يخيل للعاشق فوق كمال المعشوق، والله لا يفوقه أحد على كماله؛ فضلاً أن نتخيل أنه فوق كماله.. والله أعلم.

★ ★ ★

هل الإيمان يزيد وينقص؟

مسألة: هل الإيمان شيء يزيد وينقص لقوله تعالى: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾^(٢)، وقوله ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾^(٣)؟

الجواب: الإيمان ضربان.

أحدهما: حقيقي، وهو تصديق القلب بما أحب الرب التصديق به، وهو نوعان: أحدهما: يختلف متعلقه كالإيمان بوجود الله تعالى، ثم بوحدانيته، ثم بكل صفة من صفاته، ثم بكل آية من آيات كتابه؛ فهذا يزيد وينقص بزيادة متعلقه ونقصانه. الثاني: الإيمان يتعلق بمتحد وحقيقة منفردة، كالإيمان بوجود الله تعالى، فهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان بأن يكون إيمان فرد بوجوده أكثر من إيمان فرد بوجوده، وكذلك الإيمان بالوحدانية، ولا يتصور فيه زيادة ولا نقصان؛ لأنها حقيقة واحدة. والواحد لا يكون أكثر من نفسه، وكذلك العلم بالمفردات لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان. ويتصور إطلاق الزيادة والنقصان على هذا باعتبار تواليه وتكرره، لا باعتبار تكثيره في نفسه. وعلى ذلك يحمل قوله تعالى: ﴿فاعلم أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٤)، ومعناه كرر ذلك وكثر من تجديده ولا تغفل عنه. وأما قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾^(٥)، فيحتمل أن يكون من هذا القبيل، ويحتمل أن يكون زدني علماً بمعلومات لا أعلمها الآن. وهذا هو الظاهر، وأما وقوله: ﴿وَإِذَا قُلِّيتْ

(١) سورة المدثر، آية ٣١.

(٢) سورة التوبة، آية ١٢٤.

(٣) سورة الفتح، آية ٤.

(٤) سورة محمد، آية ١٩.

(٥) سورة طه، آية ١١٤.

عليهم آياتُهُ زادَتْهُمْ إيمانًا ﴿٢١﴾، فإن معناه زادتهم إيمانًا بما أخبروا به غير ما كانوا خبروا به قبل ذلك، فيكون باعتبار عدد المتعلق.

الضرب الثاني: الإيمان المجازي، وهو عبارة عن فعل كل طاعة وترك كل معصية، لأن فعل الطاعات واجتناب المخالفات مسبيان عن الإيمان الحقيقي، والإيمان الحقيقي محله القلوب، والإيمان المجازي محله القلوب والأركان، قال عليه السلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»، فجعل كلمة الإيمان، وهو قول وإمطة الأذى عن الطريق - وهي فعلٌ - إيمانًا مجازًا لكونه مسببًا عن إيمان الجنان، ولا شك أن هذا الإيمان يزيد بزيادة الطاعات، وينقص بنقصانها.. والله أعلم..



الحاجة إلى الدعاء

مسألة: هل يعصى من يقول: لا حاجة بنا إلى الدعاء، لأنه لا يرد ما قدر وقضى، أم لا؟

الجواب: من زعم أنا لا نحتاج إلى الدعاء، فقد كذب وعصى، ويلزم أن يقول: لا حاجة بنا إلى الطاعة والإيمان، لأن ما قضاه الله من الثواب والعقاب لا بد منه، وما يدري الأحق أن الله قد رتب مصالح الدنيا والآخرة على الأسباب بناء على ما سبق به القضاء لا بغيره لزمه أن لا يأكل إذا جاع، ولا

(١) سورة الأنفال، آية ٢.

يشرب إذا عطش، ولا يلبس إذا برد، ولا يتداوى إذا مرض، وأن يلقى
الكفار بغير سلاح، ويقول في ذلك كله ما قضاه الله، فإنه لا يرد. وهذا ما
لا يقوله مسلم ولا عاقل.

وأما إجراء هذا الجنس على الله بإنكار الشرع، وما ركزه الله في الطبع.
ولقد قال بعض مشايخ الضلال منهم: لا يجوز التداوي؛ لأنه يشرك، واعتاد
على الأسباب؛ فكان جوابه لا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس، ولا يركب،
ولا يدفع عن نفسه من أراد قتله، ولا عن أهله من قصدتهم بالزنى
والفواحش، فبهت الذي فجر، والله لا يهديه وأمثاله إلى الحق والصواب..
والله أعلم.

★ ★ ★

الصلاة بجانب من يظن أن لباسه نجس - الإمامة بالأجر

العارفون والعالمون - العلم والعمل

□ مسألة: الرجل يصلي في المسجد، فيصلي إلى جانبه الجزار،
والدباغ، ما حكم ذلك؟ فقال: ينبغي للمصلي أن لا يلتصق بمن يغلب
على الظن نجاسة ثيابه، فوقع في نفس السائل أن الناس قليل فيهم من
يسلم من وقوع النجاسة عليه ويقل منهم من يحسن إزالتها فصارت كثوب
الجزار، فضاقت صدره بالتصاق الناس إليه وتعجبه أن يصلي خلف الصف
وحده؛ فهل هذا من باب الاحتياط، فيحمد، أم من باب التنطع والغلو
فيذم؟

• وما يقول في الأطبحة المعمولة في الأسواق، فالعادة أن المهراس يأتي باللحم، فيلقيه في القدر من غير غسيل، وكذلك الشواء أو لحم النقانق، مع أنه يعلم في العادة أن اللحم لا يسلم من النجاسة عند الذبح والمعافة؛ فما حكم الأكل من هذه الأشياء على هذا الوصف؟

• وما يقول في إمام المسجد يستخلف فيه ببعض راتبه، ويتناول هو الباقي، فهل له الاستخلاف وأكل هذا المال أم لا؟ وإن لم يجز، فهل يكون الراتب للمستخلف حتى إذا أخذ القدر المصطلح عليه وهب للمستخلف بقيته ينفعه ذلك أم لا؟

• وما يقول في قول الإمام أبي حامد في كتاب (الإحياء) لما ذكر معرفة الله سبحانه والعلم به قال: «الرتبة العليا في ذلك الأنبياء، ثم الأولياء العارفون، ثم العلماء الراسخون، ثم الصالحون»، فقدم الأولياء على العلماء، وقال الأستاذ القشيري في أول رسالته: «أما بعد، فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكفاية من عباده بعد رسله وأنبيائه»؛ فهل على هذا النحو قول أبي حامد؟ وهل هذا المذهب صحيح أم لا؟ فقد قال بعض الناس: لا يفضل الولي على العالم؛ لأن تفضيل الشخص على الآخر إنما هو رفع درجته عليه لكثرة ثوابه المرتب على عمله، فلا فضل إلا بتفاوت الأعمال، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل؛ لأنه متعدد، والعمل قاصر، والمتعدي خير من القاصر؛ فثوابه أكثر؛ فصاحبه أفضل. قال هذا القائل: وأما تخصيص الله سبحانه وتعالى من يشاء بشيء من المنح والمواهب، فليس ذلك يرفع درجة له بمجرد، ولا يفضل بذلك على غيره، وإنما فضل النبي غيره بكثرة ثوابه المرتب على أعماله الشاقة التي كلف القيام بها، ولا تجرد عن التكليف لم يفضل بذلك غيره.. فما حكم هذا الكلام؟

الجواب: للنجاسة أحوال:

إحداهن: أن تكون متيقنة، فيجب اجتنابها، إلا ما عفا الشرع عنه.
الثانية: أن تكون مظنونة بسبب يعتمد الشرع عليه، كخبر الصادق، فهذه كالمتيقنة.

الثالثة: أن تكون مظنونة بغلبة المخامرة والملابسة، كثياب الدباغ والقصاب، والمدمن على شرب الخمر؛ فقد اختلف العلماء في وجوب الاجتناب، فإذا لم يوجب ذلك كان اجتنابه من أكد رتب الورع.
الرابعة: أن تكون النجاسة موهومة، ولوهمها حالان:

إحداهما: أن يكون توهمها في غاية التعمد في العادة، فهذا لا يتورع عن مثله؛ لأنه مكرر حضور القلب في العبادة شغلاً بالتوسوس في النجاسة عن ذكر الله في الصلاة، وما غرض الشيطان إلا ذلك؛ ولأن من كثرت عليه الوسوس كثرت عليه الطاعات والعبادات، وربما كرهها أو ترك أكثرها.. هذا من جملة أغراض الشيطان؛ فإنه إذا يئس أن يطاع في الفسوق والعصيان أتى الإنسان من قبل الورع والاحتياط للعبادات ليثقلها عليه ويبغضها إليه وليشغله عن ذكر المعهود بإنصات الفكر إلى النجاسات، وليقطع عنه روح الرجاء في عبادته إذا خطر بباله أنها باطلة كفوات شرطها لم تسكن نفسه إلى روح رجائها.

الحالة الثانية: أن يكون وهم النجاسة دون الغلبة المذكورة، وفوق الوهم البعيد، فالورع هنا هو الحرام، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك، بشرط أن لا يتعدى ورع السلف، فقد كانوا يصلون في نعالهم، ويمشون في الطين ويصلون، ولم تكن في المسجد بُسْطٌ ولا حصر، وكان يطؤها البرّ والفاجر، ومن يتحرز من النجاسات، ومن لا يتحرز. ولم يزل المسلمون يطوفون، ويقبلون الحجر الأسود، ويصلون في المقام، وفي المسجد الحرام، مع كثرة من يرده من العامة الذين لا يعرفون النجاسات.

ومن الغرائب أن بعض قضاة الشاميين أتى المطاف، فأمر أن يغسل بماء

زمزم، وأن يغسل الحجر الأسود، ظناً منه أن ذلك ورع، ولم يذكر المسكين أن ذلك بدعة في الإسلام، لم يسبق إليها، ولم يوافق عليها.

ومن الغرائب أيضاً أنه كان لنا صاحب لا يأكل الثمار، حتى يغسلها لتجوز أن يمر بها طائر فيبول عليها. وما نظر المسكين إلى رسول الله ﷺ كان يأكل الرطب، مع تجويز ذلك، وأنه لا خير في ورع لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحد يقتدى به في الدين، ولم يزل أهل الإسلام يأكلون الخنطة والشعير وسائر الحبوب، مع العلم أنها تدرس بالبقر، وأنها لا تخلو من أن تبول عليها، ولم يتورع عن ذلك إلا قوم متأخرون لا يقتدى بمثلهم في الدين.

والضابط في هذا أنه متى عرض تجويز النجاسة، فليعرض على هذه الاحتمالات، ثم تجري على كل احتمال حكمة الذي ذكرناه، وفي وجوب الاجتناب وغيره من الاحتمال القريب دون الاحتمال البعيد الغريب. وعلى ذلك درج السلف والخلف الذين يقتدى بمثلهم، ولا حجة في فضل الموسوس، لأن الوسواس لا يقع إلا لجور في الطبع، أو جهل بالشرع، وقد لبس رسول الله ﷺ جبة شامية، وأكل من طعام الكفار، وجوز استعمال فضول السباع.

على الجملة، فدين الله يسير، ومن فتح على نفسه أبواب التجويز البعيد، قد خالف سيد الورعين ﷺ تسليماً. وعلى هذا لا يُصلى إلى جنب من تتحقق نجاسة ثيابه بحيث يمس فيه ما يشترط تطهره، وكذلك من غلبت عليه مخامرة النجاسة كالدباغين، ولا يعامل من يتوهم نجاسة ثوبه أو بدنه، والصلاة في الصف إلى جنبه لحيازة فضيلة الصف أولى؛ ولأن المنفرد عن الصف قد اختلف العلماء في صحة صلاته، فلا يفوت فضيلة الصف، وفضيلة الخروج من الخلاف تورع مستند إلى أوهام؛ إذ لا يضيع المتحقق بالمتوهم.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل الخلاء، فرأى الذباب يقع على النجاسة، ثم يقع على ثيابه، فاتخذ ثوباً يلبسه إذا دخل الخلاء ثم يخلعه إذا خرج، ثم ندم على ذلك، وألقى الثوب وبكى؛ خوفاً من

الابتداع في الدين. وقال: إن من كان من قبلنا كانوا يعرفون ذلك ولا يتحرزون منه.

ولا يحرم أكل النقانق والشواء والهرايس بمجرد ما ذكر؛ فإن دم الذكاة لا يتحقق له انصباب عن محل الذكاة إلى سائر الجسد، ومحل الذكاة واجب الغسل، ولم تجر العادة بأنه لا يغسل. وكذلك الغالب أن نجاسة الدم لا يتعدى مكان الذكاة؛ لأن العروق تمجّه مجاً قوياً، فلا ينعكس على المذكي إلا نادراً. ولا بأس بالتورع عند غلبة الظن وخروج الأمر عن الغالب في ذلك. وما زال المسلمون يتعاطون ذلك من غير نكير على المذابح والأكل والطابخ. ومن علم خلاف ما هو الغالب، فليفعل بمقتضى حكم من علم بذلك. وقد بينته.

وأما ولاية الإمام، فلا يجوز لمن جعل له على الإمامة أن يتناوله، إلا أن يقوم بالإمامة على مقتضى الشرط أو العادة فيمن يعد ملازماً للمسجد، ولا يستنيب إلا لعذر جرت العادة بالاستنابة فيه كالمرضى والمحبوس ونحوهما، وإن استناب بغير إذن الناظر لم يستحق شيئاً، لأنه لم يوله ناظر، ولا نائب عن ناظر، وإن أذن له الناظر في الاستنابة جاز له أن يستنيب، ولاحق له فيما يجب لمن قام بالإمامة، وإن أذن له النائب في أخذ بعض ذلك لم يحل للنائب، ولا المأذون له في الاستنابة، وليس القائم بالإمامة نائباً عن المستنيب، بل هو مستقل بالإمامة، وليس نائباً فيها عن أحد، فإن تواطأ الناظر ووكيله والقائم بالإمامة على أن يأخذ الإمام البعض والوكيل البعض لم يجز ذلك، وفي صحة تولية الإمام في هذه الصورة نظر مبني على أن المعلوم كالمشروط أم لا، وإن شرط بذلك في نفس التولية بطلت، وإن قام بالإمامة لم يستحق شيئاً بالتولية الصحيحة، ولا تواطؤ على ذلك فلا بأس بما يتبرع به الإمام على الوكيل. وهذا في غاية النذور، وقد خرج أكثر الفقهاء عن الصواب في هذه المسألة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنفاً.

□ وأما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله، فقول الأستاذ^(١) وأبي حامد فيه متفق عليه، ولا يشك عاقل أن العارفين بالله بما يجب لله من أوصاف الجلال، ونعوت الكمال، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان، أفضل من العارفين بالأحكام، بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول؛ لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وبشمراته؛ فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها؛ لأن ثماره أفضل الثمرات فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالاً عليه، وينشأ عن تلك الحال ملازمة أخلاق سيئة، ومجانبة أخلاق دنيئة. فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء. ومن عرف شدة النعمة أثمرت معرفته شدة الخوف، وأثمر خوفه الكف عن الإثم والفسوق والعصيان، مع البكاء، والأحزان، والورع، وحسن الانقياد، والإذعان. ومن عرف أن جميع النعمة منه أحبه، وأثمرت المحبة آثارها المعرفة. وكذلك من عرف تفردَه بالنعف والضر لم يعتمد إلا عليه، ولم يفوض إلا إليه. ومن عرفه بالعظمة والجلال هابه وعامله معاملة الهائبين المعظمين من الانقياد والتذلل وغيرها.

فهذه بعض ثمار المعرفة للصفات. ولا شك أن معرفة الأحكام لا تورث شيئاً من هذه الأحوال، ولا من هذه الأقوال والأعمال، ويدل على ذلك الفسوق، فإن الفسوق فاشٍ في كثير من علماء الأحكام، بل أكثرهم مجانبون الطاعة والاستقامة، بل قد اشتغل كثير منهم بأقوال الفلاسفة في النبوات والإلهيات. فمنهم من خرج عن الدين، ومنهم من شك؛ فتارة يترجع عنده الصحة، وتارة يترجع عنده البطلان؛ فهم في ريبهم يترددون.

والفرق بين المتكلمين من الأصوليين وبين العارفين: أن المتكلم يغيب عن علومه بالذات والصفات في أكثر الأوقات، فلا تدوم له تلك الأحوال، ولو

(١) أي القشيري صاحب (الرسالة القشيرية).

دامت لكان من العارفين؛ لأنه شاركهم في دوام العرفان الموجب للأحوال الموجبة للاستقامة.. وكيف يساوي بين العارفين وبين الفقهاء، والعارفون أقبل الخلق وأتقاهم لله والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾^(١)، فمدحهم تعالى في كتابه المبين أكرم مدح للعالمين.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢)، فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله دون العارفين بأحكامه. ولا يجوز حل ذلك على علماء الأحكام، لأن الغالب عليهم عدم الخشية، وخبر الله تعالى صدق؛ فلا يحمل إلا على من عرفه وخشيه، وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنه وهو ترجان القرآن.

ثم إنا نقول: العلماء بالأحكام أقسام:

أحدها: من تعلم لغير الله، وعلم لله، فهذا ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولا أدري هل تقوى حسناته يأساءته أم لا؟

الثاني: من تعلم لغير الله، وعلم لغير الله؛ فعلم هذا وتعليمه وبال عليه.

الثالث: من تعلم لله وعلم لغير الله؛ فهذا كالأول وأشد إثمًا منه.

الرابع: من تعلم لله، وعلم لله، وهو ضربان:

أحدهما: أن لا يعمل بعلمه فهذا شقي لا يفضل على أحدٍ من أولياء الله، وإن عمل بعلمه فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه، فهذا من السعداء. وإن كان من أهل الأحوال العارفين بالله، فهذا من أفضل العارفين ادخار، وفضل عليهم بمعرفة الأحكام، وتعلم أهل الإسلام.

وأما قول من يقول: «العمل المتعدي خير من العمل القاصر»؛ فإنه جاهل بأحكام الله تعالى، بل للعمل القاصر احوال:

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) سورة فاطر، آية ٢٨.

إحداهن: أن يكون أفضل من المتعدي: كالتوحيد، والإسلام، والإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ وكذلك الدعائم الخمس إلا الزكاة، وكذلك التسبيح عقب الصلوات؛ فإن النبي ﷺ قدمه على التصديق بفضول الأموال وهو متعد، وقال: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً»، فقال: «خير أعمالكم الصلاة». وسئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله» قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور». فهذه كلها أعمال قاصرة وردت الشريعة بتفضيلها.

القسم الثاني: ما تكون متعدية كبر الوالدين إذ سئل النبي ﷺ، وليست الصلاة بأفضل من كل عمل متعد؛ فلو رأى المصلي غريقاً يقدر على إنقاذه، أو مؤمناً يُقتل ظلماً، أو امرأة يزنى بها، أو صبيّاً يؤتى منه الفاحشة، وقدر على التخليص والانقياد، لزمه ذلك مع ضيق الوقت؛ لأن رتبته عند الله أفضل من رتبة الصلاة، والصلاة إذا قيل ببطلانها أمكن تداركها.

فهذان القسمان مبنيان على رجحان مصالح الأعمال، فإن كانت مصلحة القاصر أرجح من مصلحة المتعدي، فالقاصر أفضل من المتعدي، وإن كانت مصلحة المتعدي أرجح قدمت على القاصر، فتارة نقف على الرجحان، فيقدم الراجح، وتارة ينص الشرع على تفضيل أحد العاملين، فيقدمه وإن لم يقف على رجحانه. وتارة لا يقف على الرجحان، ولا يجد نصاً يدل على التفضيل، فليس لنا أن نجعل القاصر أفضل من المتعدي، ولا أن نجعل المتعدي أفضل من القاصر، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية فإذا لم يظهر شيء من الأدلة الشرعية لم يجوز أن نقول على ﷺ ما لا نعلم أو نظنه بدلالة شرعية.

«فائدة: إذا استوى الناس في المعارف بحيث لا يفضل بعض بعضاً في ذلك، فلا فضل لبعضهم على بعض إلا بتوالي العرفان واستمراره، لأن توالي ذلك شرف قد فات البعض وقاربه للبعض. وكذلك لا تدوم الأحوال

الناشئة عن هذه المعارف إلا بدوام المعارف ولا تدوم الطاعات الناشئة عن الأحوال إلا بدوام الأحوال. فإذا دام صلاح القلب بدوام المعارف والأحوال دام صلاح الجسد بحسن الأقوال واستقامة الأعمال. وإذا غلبت الغفلة على القلب غلبت الأحوال الناشئة عن المعارف، ففسد القلب بذلك، وفسدت بفساده الأقوال والأعمال. والمعارف رتب في الفضل والشرف بترتيب فضل الأحوال الناشئة عنها على رتبها في الفضل والكمال، وكذلك ما يترتب عليها من الأقوال والأعمال. والحال الناشئة عن معرفة الجلال والكمال ينشأ عنها أفضل الأعمال، وهو التعظيم والإجلال، وملاحظة شدة الانتقام ينشأ عنها الخوف، وملاحظة سعة الرحمة ينشأ عنها الطمع والرجاء، وملاحظة التوحيد بالنفع والضرر ينشأ عنها التوكل على الله في جميع الأحوال. والهائب أفضل من المحب، والمحب أفضل من المتوكل، والمتوكل أفضل من الخائف، والخائف أفضل من الراجي.

فهذه من أوصاف العارفين بالله تعالى. ومما يدل على فضلهم على الفقهاء ما يجريه الله عليهم من الكرامات الخارقة للعادات، ولا يجزي شيء من ذلك على يد الفقهاء إلا أن يسلكوا طريق العارفين ويتصفوا بأوصافهم. وما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره.

ولا يصح قول من قال: إن رسول الله ﷺ إنما فضل بأعماله الشاقة، لأن رسول الله ﷺ فضل بتكليم الله تعالى إياه تارة على لسان جبريل، وتارة من غير واسطة. وذلك فضل بالمعارف والأحوال، ولقد قال: «إني لأرجو أن أكون أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية». وكذلك لما احتقر بعضهم قيام رسول الله ﷺ إلى قيامه، وصلاته إلى صلاته، أنكر ذلك ﷺ، فذكر أن تفضيله عليهم إنما كان بمعرفته الله تعالى. وهذا أكبر جهات تفضيل رسول الله ﷺ، ولا مشقة عليه فيها، وكيف لا يكون كذلك والله تعالى يقول

لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾^(١). ومثل هذه المقالة لا تصدر إلا من جلف جاف، وكيف يفضل رسول الله ﷺ بأعماله الشاقة، مع أنه لا نسبة لأعماله وصبره وتأذيه بقومه بأعمال قوم نوح وصبره وتأذيه مع قومه؟ وما أسرع الناس إلى أن يقولوا ما ليس لهم به علم، ولو أنهم سألوه إذ جهلوا لكان خيراً لهم... والله أعلم.

★ ★ ★

تقليد قارئ في قراءته

مسألة: إمام بمسجد يقرأ قراءة حسنة، فسمعه إنسان فقراً مثله محاكياً له، ولم يقصد بذلك سوى أن فلاناً يقرأ هكذا؛ فهل هذه غيبة أم لا؟
الجواب: ليس ذلك بغيبة له... والله أعلم.

★ ★ ★

النيابة في الخطابة

مسألة: رجل له خطابة جامع ببلد، وهو مقيم ببلد آخر، وله نائب مستمر، فهل يجب على متولي الإجماع صرفه بذلك، أم لا؟

(١) سورة الأعراف، آية ١٤٤.

الجواب: نعم يصرفه، ويسترد منه ما أخذه، ولم يقم بشرطه.. والله أعلم...

★ ★ ★

هل يسقط الحج عن الحاج حقوق الله وحقوق عباده؟!

مسألة: هل يسقط عن الحاج حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين؟
فأجاب الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام: أن ذلك لا يسقط. فقال
المعارض: أما حقوق الآدميين فلا تسقط، وأما حقوق الله تعالى فالله
يغفرها، فإن هذا سد باب رحمة الله تعالى عن العباد، وذلك يؤدي أن
لا يحج أحد، وقد أخبر النبي ﷺ فقال: «من حج هذا البيت فلم
يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»، وذكر حديث يوم
عرفة، وتجاوز الله تعالى فيه عن الذنوب العظام، وإن الله تعالى يسامح
عباده في حقوقه بخلاف حقوق العباد. وقال: بدليل أنه أسقط عن
العبد الجمعة لكونه في خدمة سيده، وبدليل الحديث المروي: «إن الظلم
ثلاثة: ظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يتركه الله عز وجل، وظلم لا
يعبأ الله تعالى به، فأما الذي لا يغفره الله تعالى فهو الشرك، وأما الظلم
الذي لا يتركه الله تعالى فمظالم العباد، وأما الظلم الذي لا يعبأ الله به
شيئاً فظلم العبد بينه وبين ربه عز وجل».

الجواب: هذا المعارض جاهل، لا يفرق بين حقوق الله عز وجل المقربة
إليه الموجبة لثوابه، وبين معاصي الله تعالى المبعدة منه الموجبة لعقابه؛ فإن
حقوق الله تعالى هي الإيمان، والإسلام، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة،

وصوم رمضان، وحج البيت، والصدقات، والكفارات، وأنواع العبادات، قال ﷺ: «حق الله تعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن يدخلهم الجنة» والذنوب هي مخالفة الله تعالى ومعصيته، والحج يُسقط ذنوب المخالفة، ولا يُسقط حقوق الله تعالى، كالصلاة، والزكاة، والحج، والعمرة وصوم شهر رمضان، فما أجهل من جعل طاعة الله تعالى وإجابته ذنباً تغفر، وإنما المغفور المخالفة لا غير الحقوق؛ فمن ترك الصلاة أو الزكاة أو غيرها من الحقوق، فالحج يكفر عنه إثم التأخير، لأنه هو الذنب. وأما إسقاطه لما استقر في الذمة من صلاة وزكاة ونذر وحج، فهذا خلاف إجماع المسلمين. وحسبك بجهل من يخالف إجماع المسلمين، ثم يزعم أن ذكر ما أجمعوا عليه سدّ لباب رحمة الله تعالى عن عباده، منفر عن الحج. ولو عرف هذا الغي أن ذكر ما أجمع المسلمون عليه ليس بمنفر، بل هو سبب موجب للمحافظة على حقوق الله تعالى، وللخوف، والوجل الوازع عن معصية الله تعالى؛ لما زعم أنه منفر. ولو أفنى أحد من أهل الفتيا بأن الحج يُسقط شيئاً من حقوق الله تعالى لاجترأ العصاة على أن يتركوا كل حق من حقوق الله تعالى، ثم يحجوا إسقاطاً لجميع حقوق الله تعالى، فالذي يوجب الحج الذي اجتنب فيه الرفث والفسوق، وإنما هو إسقاط المعاصي والمخالفات، وليست حقوق الله تعالى معصية، ولا مخالفة، حتى تندرج في الحديث، فيخرج من هذا وجوب تعزير هذا الجاهل المحق لحديث رسول الله ﷺ عن صريحه ما أجزاء ذلك حتى قال من زعم أن الحقوق لا تسقط بالحج كان ميثماً للناس من الرحمة، ويلزمه أن يكون المسلمون قد سدوا باب الرحمة لإجماعهم على أن الحج لا يسقط حدود الله تعالى. فمن آخر الكفارة أو النذر أو الصلاة أو الزكاة أو الصوم عن أوقاتها التي أوجبها الله تعالى فيها، كان عاصياً بمجرد التأخير، فتلك المعصية هي التي يكفرها الحج المبرور، وأما إسقاط تلك الحقوق بالحج، فهذا شيء لم ينقله أحد من أهل

الإسلام، وأضر ما على المسلمين جاهل مثل هذا يقول شيئاً لم يَقُلْه أحد من أهل الإسلام، يفتي بأن ما أجمع المسلمون عليه سدّ لباب رحمة الله تعالى، ويحسبون أنهم على شيء، إلا إنهم هم الكاذبون.

وكفاه غباءً وجهلاً أنه لا يفرق بين الحق الذي هو طاعة وسبب قرينة عند الله تعالى وبين المعصية التي هي مخالفة وسبب بُعد من الله تعالى.

وأما ما ذكره من الحديثين الآخرين، فليس بثابت يعتمد على مثله، وإن كان البخاري رحمه الله قد ذكر أحدهما في تاريخه، وفيه طعن ولم يصححه رحمه الله، والله يحول بين المسلمين وبين جاهل يضلهم ويغويهم ويظن أنه يرشدهم ويهديهم.. والله سبحانه أعلم..



الوكالة - أمر الأطباء المريض بالفطر - التقليد في العقائد - القول بالجهة - وهبة الأعمال للوالدين

مسألة: في رجل له أب في حانوت فيها بضائع للبيع، فوكل الولد في البيع عنه، وأذن له أن يأكل منها ما شاء ويهب ويتصدق ويحايي ما شاء، فهل يصح الإذن بهذه الصفة أم لا؟

• وما يقول في الرجل يصوم تطوعاً، فيقول له اثنان من أهل الطب: إن الصوم يضر ببصره، أو يسهر فيقولون: السهر يضرّ بك - هل يحرم عليه السهر والصوم أم لا؟

وما يقول في العامي - هل يجوز له التقليد في مسائل الاعتقادات أصولها وفروعها، أم يجب عليه النظر في الأدلة؟ وإذا جاز له التقليد: هل يلزمه أن يجزم بأن الحق مع مقلده أم يكفيه غلبة الظن؟.

• وما يقول في قول أبي زيد المالكي: «وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته، وأنه في كل مكان بعلمه»، هل يفهم من هذا القول بالجهة أم لا؟ وهل يكفر معتقدها أم لا؟

• وما يقول في العامي: هل يجب عليه من الفروع أن يقلد الأفضل، أم له أن يقلد من شاء من الأئمة في أي مسألة مثلاً الشافعي، وفي أخرى المالكي، وفي أخرى أبا حنيفة، وهل يستوي الحكم بذلك في اتباع الرخص وغيرها؟

• وما يقول فيمن يعمل عملاً من أعمال البر من صلاة أو قراءة أو صوم أو جهاد، ثم يهب ذلك لوالديه أو غيرها - هل ينتفع الموهوب له بذلك أم لا؟

• وما يقول في أمر قد غلب عليه الناس، وهو مسابقة المأمومين الإمام يكون في المسجد العشرون مثلاً، فينبع الإمام منهم ثلاثة أو أربعة، فهل يجب على من حضرهم أن ينهاتهم عن ذلك أم لا؟ وهل يسقط هذا السبب استحباب حضور الجماعة أم لا؟ وما يقول في الرجل يجد إمامين: شافعيًا ومالكيًا، فأيهما أولى أن يتبعه منها؟

• وما يقول في الرجل يكون في أعضاء وضوئه زيت أو دهن، فهل يكفيه عند الوضوء غسل ذلك بالماء وحده، أو عليه أن يزيله بأشنان أو غيره ثم يتوضأ؟ وكذلك الثوب يكون فيه دم البراغيث، فيغتسل بالماء وحده مرارًا، فلا يبقى أثره؛ فهل يطهر بذلك أم لا؟

• وما يقول فيمن يسعى بحاجته، فيجد رجلًا مع امرأة يجادتها، وربما يكونان في مواضع غير مسلوكة - هل يجب عليه الإنكار عليها أم لا؟

• وما يقول في امرأة تستعمل أدوية بالشرب وغيره لمتنع من الحمل هل لها ذلك أم لا؟

• وما يقول فيمن يُعطي ثوبه النجس لامرأته تطهره ويأمرها بإيراد الماء عليه، ثم يبقى في نفسه شيء لتساهل النساء في أمر النجاسة، هل يجب عليه مباشرة غسلها أم لا؟

• وما يقول في الرجل يكون جالساً في بيته متخففاً في اللباس، فيخرج إلى السوق لحاجته، فإن خرج على حالته خاف الشهرة، وإن غير لباسه خاف التصنع؛ فما الذي ينبغي له فعله؟

• وما يقول في الرجل يتجنب الشبهات في مطعمه إذا حضره مشتبه وأمره أبواه أو أحدهما بأكله - هل يجب عليه الأكل منه أم لا؟

الجواب: إذا فوض إلى مستنبيه ذلك جاز له أن يفعل ما شاء ما لم يخرج عن العرف المعتاد في ذلك. وإذا عرف المريض أنه يتضرر في جسمه ضرراً ظاهراً لم يجوز له أن يضر نفسه، وقد اختلف في ذلك.

ويكتفى من العامة بالتصميم على الاعتقاد المستقيم. وإذا حصل الاعتقاد مبنياً على قول بعض العلماء أجزاء ذلك؛ لأن رسول الله ﷺ حكم بإسلام الأعراب والعامة، مع القطع بأنهم لم يقفوا على الأدلة المنصوبة لذلك. وكذلك أجرى علماء السلف على جميع العامة جميع أحكام الإسلام، مع العلم بأنهم لا يعرفون تلك الأدلة.

ولا يجزئ الظن فيما يجب اعتقاده؛ لأن الظان مجوز للنقص على الله تعالى، بخلاف المعتقد، فإنه غير مجوز لنقيض اعتقاده.

وظاهر ما ذكره ابن أبي زيد القول بالجهة، لأنه فرق بين كونه على العرش وبين كونه مع خلقه.

والأصح أن معتقد الجهة لا يكفر، لأن علماء المسلمين لم يخرجوهم من الإسلام، بل حكموا لهم بالإرث من المسلمين، والدفن في مقابرهم، وتحريم دمائهم وأموالهم، وإيجاب الصلاة عليهم.

وكذلك سائر أرباب البدع لم يزل الناس يجرون عليهم أحكام الإسلام،

ولا مبالاة عن كفرهم لمزاحته لما عليه الناس، والأصح أن العامي لا يجب عليه تقليد الأفضل، لأن الناس لم يزالوا يسألون الفاضل والمفضول في زمن الصحابة إلى الآن، مع أن المفضول كان لا يمتنع من الفتيا فيما خالفه فيه الفاضل، ولم يقل الفاضل لا يجوز لأحد تقليد غيري من المفضولين، وله أن يقلد في كل مسألة من شاء من الأئمة، ولا يتغير عليه إذا قلد إمامًا في مسألة أن يقلده في سائر مسائل الخلاف؛ لأن الناس من لدن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب يسألون فيما يسنح لهم العلماء المختلفين من غير تكبر من أحد، وسواء اتبع الرخص في ذلك أو العزائم، لأن من جعل المصيب واحدًا لم يعينه، ومن جعل كل مجتهد مصيبًا فلا إنكار على من قلد في الصواب.

ومن فعل طاعة الله تعالى ثم أهدي ثوابها إلى حيٍّ أو ميتٍ لم ينتقل ثوابها إليه؛ إذ ليس للإنسان إلا ما سعى؛ فإن شرع في الطاعة ناويًا أن يقع على الميت عنه إلا فيما استثناه الشرع، كالصدقة، والحج، والصوم.

ولا يسقط سنة الجماعة بما ذكر من مسابقة الإمام؛ إذ لا يترك الحق لأجل الباطل، فإن تمكن من الإنكار حصل على أجر الجماعة، وعلى ثواب الإنكار، فتضاعف له الأجر، وإن عجز عن الإنكار بلسانه، فلينكر بقلبه ذلك، فيحصل على فضيلة الجماعة، وثواب الإنكار؛ فيكون مقيمًا لطاعتين.

وكذلك الغزو مع البر والفاجر إن قدر على الإنكار أنكر، فيحصل على فضيلة الجهاد، وعلى أجر الكراهة بالقلب، وإذا حضر رجلان مختلفان في أركان الصلاة وشرائطها، فالأولى تقديم من يعتقد كثرة الشرائط والأركان، لأن الاقتداء به أحوط وأبعد عن الخلاف.

وأما ما على أعضاء المحدث من الأدهان، فإن كانت غليظة جامدة تمنع من ملاقة الماء العضو، فلا بد من إزالة ما يمنع الملاقة، وإن لم تكن كذلك صحت الطهارة مع بقائها.

وأما النجاسات التي تبقى آثارها في الثياب، فإذا غسلها بالماء غسل مثلها

طهرت، وإن بقيت آثارها ولا يجب عليه أن تستعمل في ذلك العقاقير والأدوية المزيلة للآثار، وإن كان الرجل مما لا يهتم، لم يجب الإنكار عليه، وإن ظهرت الريبة والتهمة وجب الإنكار.

وليس للمرأة أن تستعمل ما يفسد القوة التي يتأتى بها الحمل. وأما غسل الثوب، فإن توهم أنها لم تغسله الغسل الشرعي، فليغسله. وكذلك إذا شك، وإن غلب على ظنه أنه طهر، جاز أن يُصَلِّي فيه، والورع أن يغسله.

وأما اللباس المذكور، فإن كان مثله موافقاً للسُّنة، فليخرج فيه، ولا يبالي بكلام، وإن كان مخالفاً للسنة كالشهرة في اللباس المنهي عنها، فلا يخرج فيه، ولا يلبسه في بيته. وإذا خرج مبتذلاً، فليجاهد نفسه في ترك التصنع. وأما الطعام، فإن حَقَّتْ الشبهة فيه، وكان تركه للأكل شاقاً على أبويه، فليأكل وإن عظمت الشبهة، فليتجنب ذلك.



مسائل في البيع والشراء والصلاة

مسألة: في سوق جُبِرَ ملاكها على بيعها، وقبض الثمن، وجبر قوم على السكن فيها، وتدعو الحاجة إلى البيع فيها؛ فهل يجوز ذلك أم لا؟ وفيمن يشتري سلعة بظرفها، فتوزن السلع مع الظرف، ثم يُسقط للظرف وزناً يتراضى البائع والمشتري عليه إلا أنه لا يعرف أن وزن الظرف دون ذلك القدر، وكان البائع سامح المشتري بالزيادة، فهل يصح البيع أم لا؟

وفي موضع كان مرحاضاً، ثم ترك استعماله، وصار هذا بيتاً يجلس فيه، إلا أنه بهيئة الأول؛ فما حكم الصلاة والقراءة فيه؟
الجواب: لا بأس بالمعاملة في السوق المذكورة إذا لم يكن المشتري واقعاً فيما وقع الإكراه عليه.

وأما شراء ما في الظرف إذا رآه المتعاقدان أو رأيا أنموذجه، وكان الظرف متناسب الأجر في الدقة والمتانة، فجائز. وإذا لم تشترط المساحة بما بين الوزنين، بل يقع ذلك بحكم التبرع، فلا بأس به، واجتنابه أولى.
وإذا أزيلت آثار النجاسة من باطن المرحاض وظاهره، فلا بأس بالصلاة فيها والقراءة، والأولى في الأمر أن يغير صورته عن صورة المراحيض.. والله أعلم..

★ ★ ★

سؤال المفتي المستفتي عن مذهبه

مسألة: هل ينبغي للمفتي أن يقول للمستفتي: أي شيء مذهبك، إن كنت حنبلياً فالحكم كذا، وإن كنت حنفياً فالحكم كذا، وإن كنت شافعيّاً فالحكم كذا، أو يذكر ما يعتقده المفتي من مذهبه خاصة؟
الجواب: لا ينبغي للمفتي أن يسأل عن مذهب المستفتي، وعلى ذلك درج الصحابة والتابعون المفتون من السلف والخلف، ولا سيما إن كان مذهب المستفتي ضعيفاً فاسداً.

★ ★ ★

الإنشاد والتواجد والرقص والسماع

مسألة: في جماعة من أهل الخير والصلاح، يجتمعون في وقت، فينشد لهم منشد أبياتاً في المحبة وغيرها، فمنهم من يتواجد ويرقص، ومنهم من يصيح ويبكي، ومنهم من يغشاه شبه الغيبة عن أجسامهم، فهل يكره لهم هذا الفعل أم لا؟ وما حكم السماع؟
الجواب: الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء.

وأما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السيئة بما يتعلق بالآخرة، فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسامة القلوب؛ لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة، والسعادة كلها في اتباع الرسول ﷺ واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون.
ولا يحضر السماع من في قلبه هوى خبيث، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب.

والسماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم، وهم أقسام: أحدهم: العارفون بالله تعالى، وتختلف أسماعهم باختلاف أحوالهم، فمن غلب عليه الخوف أثر فيه السماع عند ذكر المخوقات، وظهرت آثاره عليه من الحزن والبكاء، والتغير. والخوف على أقسام: أحدها: خوف العقاب، والثاني: خوف فوات الثواب، والثالث: خوف فوات الحظ من الأنس والقرب من الملك الوهاب. وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين، فمثل هذا لا يتصنع في السماع، ولا يصدر منه إلا ما غلب عليه آثار الخوف؛ لأن الخوف وازع عن التصنع والرياء. وهذا إذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من تأثير النشيد والغناء.

والثاني: من غلب عليه الرجاء، فهذا يؤثر فيه السماع عند ذكر المطمعات

والمرجيات، فإن كان رجاؤه للأنس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين، وإن كان رجاؤه الثواب، فهذا في المرتبة الثانية، وتأثير السماع في الأول أشد من تأثيره على الثاني.

والثالث: ما غلب عليه الحب، وهو قسمان: أحدهما: من أحب الله تعالى لإنعامه عليه وإحسانه إليه، فهذا يؤثر فيه سماع الإنعام والإفضال والإحسان والإكرام، والثاني: من غلب عليه حبُّ الله لشرف ذاته، وكمال صفاته، فهذا يؤثر فيه ذكر شرف الذات، وكمال الصفات، ويشند تأثيره فيه عند ذكر الأفضال والأعجاب، وهو أفضل من الذي قبله؛ لأن سبب حبه أفضل الأسباب.

الرابع: من غلب عليه التعظيم والإجلال، فهذا أفضل من الأقسام الثلاثة، إذ لا حظ في سماعه لنفسه، فإن النفس تتضاءل وتتصاغر للتعظيم والإجلال، فلاحظ لنفسه في هذا السماع، بخلاف من تقدم ذكره من الأقسام، فإنهم واقفون مع ربهم من وجه، ومع أنفسهم من وجه أو من وجوه، وشتان بين ما خلص لله وبين ما شراكته فيه النفوس؛ فإن المحب ملتذ بجمال محبوبه، وهو حظ نفسه، والهائب ليس كذلك.

وتختلف أحوال هؤلاء في المسموع منه، فالسماع من الأولياء أكثر تأثيراً من السماع من الجهلة الأغبياء، والسماع من الأنبياء أشد تأثيراً من السماع من الأولياء، والسماع من رب الأرض والسماء أكثر تأثيراً من السماع من الأنبياء، لأن كلام المهيّب أشد تأثيراً في الهائب من كلام غيره؛ ولهذا لم يشتغل الأنبياء الصديقون وأصحابهم بسماع الملاهي والغناء، واقتصروا على سماع كلام ربهم لشدة تأثيره في أحوالهم.

لقد غلط كثير من الناس في سماع النشيد والغناء بالملاهي، المختلف فيها من جهة أصوات الملاهي وطيب النشيد وطيب نغمات المغني، فيها حظ النفوس فإذا سمع أحدهم شيئاً مما يحرك حاله التذّتت نفسه بأصوات الملاهي ونغمات

الغناء، وذكره النشيد والغناء ما يقتضيه حاله من الحب والخوف والرجاء، فتثور فيه تلك الأحوال، فتلتذ النفس من وجه تأثيره، وتؤثر السماع ما يشتمل عليه الغناء من الحب والخوف والرجاء: فيحصل في الأمرين لذة نفسه، والتعلق بأوصاف ربه، فيظن أن الكل متعلق بالله وهو غالط.

القسم الخامس: من يغلب عليه هوى مباح يهيجه السماع، ويؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق، فيطرب لذلك، فسماع مثل هذا لا بأس به.

السادس: من يغلب عليه هوى محرم، كهوى المرد، ومن لا يحل له من النساء، فهذا يهيجه السماع إلى السعي في الحرام، وما أدى إلى الحرام فهو حرام.

السابع: قال: لا أجد في نفسي شيئاً مما ذكرتموه في الأقسام الستة، فما حكم السماع في حقي؟

قلنا هو مكروه من جهة أن الغالب على العامة إنما هو الأهواء الفاسدة، فربما هاجه السماع على صورة محرم، فيتعلق بها، ويميل إليها، ولا يحرم عليه ذلك؛ لأننا لا نتحقق السبب المحرم وقد يحضر السماع قوم من الفجرة، فيكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطوا عليها، ويرأون الحاضرين بأن سماعهم للأسباب المذكورة في الأقسام الستة. وهذا قد جمع بين المعصية وبين كونه من الأولياء: وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهليهم، ومن يعز عليهم، ويذكره النشيد فراق الأحبة وعدم الأنس بهم، فيبكي أحدهم، ويوهم الحاضرين أن بكاه لأجل رب العالمين، وهذا مرأى بأمير غير محرم... والله أعلم.

فصل: لا يحصل السماع المحمود إلا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السنية، والأفعال المرضية. ولكل صفة من الصفات حال تختص بها، فمن ذكر صفة الرحمة وذكر بها كانت حاله حال الراجين، وسماعه سماع الراجين.

ومن ذكر شدة النعمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين، وسماعه سماع الخائفين.

ومن كانت حاله المحبة، فذكر جمال المحبوب أو ذكرته، كانت حاله حال المحبين، وسماعه سماع المحبين.

ومن كانت حاله حال المعظمين الهائبين، فذكر العظمة، أو ذكر بها كانت حاله حال الهائبين المعظمين.

ومن كانت حاله التوكل، فذكر تفرد الرب سبحانه وتعالى بالضر والنفع والخفض والرفع والتقرب والإبعاد، فذكر ذلك أو ذكر به في السماع، كان حاله حال المتوكلين المفوضين، وسماعه سماعهم.

وقد ينتقل كثير من الناس في السماع بين هذه الأحوال، فينتقل من حال إلى حال على حساب اختلاف التذكير. وقد يغلب الحال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشد، ولا يلتفت إليه لغلبة حاله الأولى عليه... والله أعلم..

شخصية...

العزّ...

ابن عبد السلام..!؟!

ثائر؟!!

لكل شخصية آدمية مفتاح... يفتح مغاليقها..
ومفتاح شخصية العزّ... أنه كان ثائراً..
وهذا يُقَسَّر: لماذا لم يتقيد بمذهبه مذهب الشافعية.. ويجمد عليه..
ويتعصب له كما كانت سمة عصره.. عصر الجمود والتقليد?!
لأنه ثائر.. والثائر يرفض الأمر الواقع... ويرفض الجمود...
ويرغب في تحطيم أصنام التقليد المعبودة.. التي تشلّ العقول!!!
كان إمام مذهب الشافعية.. وشيخ فقهاء الشافعية.. ولكن إذا رأى
الحقّ في مذهب غير مذهبه.. أخذ به ولو كان مخالفاً للمذهب!!!
وطبيعة الشخصية الثائرة.. أنها تهاجم ما يخالفها دائماً... وتستعذب
العذاب في مناضلة مخالفيها..
وقد كان العزّ كذلك.. طيلة حياته.. هاجم الصالح إسماعيل هجوماً
عنيفاً..
زلزل بنيان عرشه.. وكان العزّ سعيداً لهذا الصدام.. مُصِراً
عليه... ولاقى فيه ما لاقى.. ولكن ذلك لم يزدّه إلا إصراراً..
وأعلن خيانة السلطان الصالح إسماعيل.. لأنه اتفق مع الفرقة ونزل
لهم عن الشقيف وصفد!!!

وبينا كان الصالح اسماعيل يتزلزل ويرتعد... كان العزّ يزداد
يقيناً أن الله معه وناصره!!!

وترك للصالح إسماعيل البلاد.. وهاجر عنها إلى مصر.. يلتبس فيها
انتصاراً للحقّ..

ونزل الديار المصرية يحمل في تركيبه طبيعة النائر..
فما سكت عن باطل رآه فيها...

وما هادن مبطلاً ولو كان السلطان نفسه!!

وهذه الصفة... صفة النائر.. هي التي التقطت مشاعر الجماهير أينما
ذهب العزّ من الأرض...

أحبته الجماهير في الشام..

وأحبته في مصر..

بل في بغداد نفسها.. دار الخلافة... كان صوت العزّ مدوياً
مسموعاً...

« كان الأستاذار^(١) ذا حول وطول في عهد الملك الصالح نجم الدين
الأيوبي..

« وكان الشيخ حينذاك.. قاضياً بمصر والوجه القبلي..

« فعلم أن فخر الدين هذا قد بنى طبلخاناه - مكاناً للموسيقى -

فوق سطح أحد المساجد بمصر..

« فحكم بهدم هذا البناء...

« ومضى بنفسه ومعه أولاده وهدمه..

« وعزل نفسه من القضاء..

« بعد أن أفتى بإسقاط فخر الدين الأستاذار... أي أنه أصبح غير

عدل..

(١) أني كبير الأمناء.

« وقد قيل إن السلطان الصالح أرسل بعد ذلك .. رسولا إلى خليفة بغداد .. في أمر ما ... فستل الرسول عمن شافهه في هذا الأمر .. فقال: إنه الأستاذار فخر الدين عثمان ..
« ف قيل له: إن رسالته لا تقبل ... لأن المذكور أسقطه ابن عبد السلام .. فلا تقبل روايته » !!!

وهكذا رفض السلطان الرسالة لأن الذي نطق بها في مصر هذا الأستاذار ...
لماذا؟!

لأن ابن عبد السلام أسقطه!!
حادث دبلوماسي خطير جدا!!!
ومؤشر عظيم على مدى ما وصلت إليه شخصية العزّ في أنحاء العالم الإسلامي كله!!

مفتاح هذه العظمة كلها ... أنه كان ثائرا ..
وشخصية الثائر تستقطب مشاعر الأمة كلها .. عاليا وسافلا ..
حاکمها ومحکومها ..

إنَّ الثائر يُمثِّل شخصية البطل في احساس الناس .. والبطل محبوب دائما ... يتابع خطاه الجميع ..
ومن هنا كان أعظم الشرف لأي سلطان في عصره .. أن يشرفه بالعمل معه في مملكته!!

خرج السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في أبهته .. على رأس رجالات الدولة .. وفقهاء مصر .. وشعب مصر .. يستقبلون البطل حين قدومه الى مصر ..

لماذا؟!

لأنه ينطق باسمهم جميعا!!!

ويثور من أجلهم جميعاً!!!
فهو أحب إليهم من أنفسهم!!!

★ ★ ★

عبقريّ؟!!

ليس كافياً أن يكون الشخص ثائراً... ليكون عظيماً...
فكم من صعاليك عاشوا ثواراً... ولكن ماتوا صغاليك..
ولكن من الحتم لتتحقق العظمة لشخص ما... بعد أن كان ثائراً...
من الحتم أن يكون عبقرياً...
وقد كان العز عبقرياً... وأيّ عبقرى!!! وآية عبقريته أن يترع
على عرش المذهب الشافعي كله في عصره.. أي أنه صار إمام المذهب
على امتداد دولة الأيوبيين كلها.. الممتدة من أقصى الجزيرة العربية
باليمن... إلى أقصى بلاد الشام.. إلى أقصى البلاد المصرية..
جميع بلدان الشام.. وجميع بلدان مصر.. وجميع بلدان الجزيرة..
وجميع بلدان اليمن.. كل أولئك كانوا يتمذهبون بالمذهب الشافعي..
الذي هو المذهب الذي أقامه البطل صلاح الدين الأيوبي... وأمر
بتطبيقه في سائر أنحاء مملكته... وسار على نهجه خلفاؤه من بعده..
هذه الدولة المترامية الأطراف.. كان مذهبها مذهب الإمام
الشافعي...

وكان هناك أعلام كبار من علماء ذلك المذهب العظيم..
إلا أن الجميع أسلموا للإمام الفدّ... وسلّموا له تسليمًا!!!

عن طواعية... لا عن إكراه!!! وعن إكبار... لا عن
اضطرار!!! لأن العزّ بهرهم بعلمه الجديد... وفتاواه الجديدة!!!
وذلك لن يكون صادرًا إلا عن عبقرية فذة.. تطوي في انطلاقها
إلى الآفاق العليا.. هؤلاء العلماء التقليديين!!!
واسمّع شهادة بعضهم في ذلك العملاق العبقرى!!!
« ولما يَم شطر مصر... هاجرًا بلاد الشام... أكرمه حافظها
الكبير.. وزاهاها الشيخ عبد العظيم المنذري... وامتنع عن الفتيا...
تعظيمًا له...

« قائلًا: » كنا نُفتي قبل حضور الشيخ عزّ الدين..
« وأما بعد حضوره... فمنصب الفتيا متعين فيه »!!!
هذه شهادة تعدل ألف شهادة!!!
وقال عنه السبكي في طبقاته:
« شيخ الإسلام والمسلمين...
« وأحد الأئمة الأعلام..
« سلطان العلماء...
« إمام عصره بلا مدافعة...
« القائم بالأمر بالمعروف... والنهي عن المنكر في زمانه..
« المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها...
« العارف بمقاصدها..
« لم ير مثل نفسه..
« ولا رأى من رآه... مثله علمًا وورعًا..
« وقيامًا في الحق.. وشجاعة.. وقوة جنان... وسلطة لسان!!
وقال فيه الذهبي في كتابه العبر: « انتهت إليه معرفة المذهب..
« مع الزهد والورع..

« وبلغ رتبة الاجتهاد ..
« وقدم مصر .. فاقام بها أكثر من عشرين سنة .. ناشرًا للمعلم ..
أمراً بالمعروف .. ناهياً عن المنكر » !!!
وقال فيه ابن كثير في تاريخه:
« انتهت إليه رئاسة المذهب ..
« وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ...
« ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ... بل اتسع نطاقه ..
وأفتى بما أدى إليه اجتهاده » !!
وقال تلميذه ابن دقيق:
« كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء » !!!
وابن دقيق هو الذي أطلق عليه: سلطان العلماء .
وقال عنه جمال الدين بن الحاجب:
« ابن عبد السلام أفقه من الغزالي » !!!
فما معنى هذه الشهادات كلها .. من هؤلاء الأئمة الأعلام العلماء !!؟
معناها أنّ هناك إجماعاً من أكابر العلماء .. على أنّ العزّ كان
عبقرياً !!!
إنّ شهادة واحدة .. من واحد من هؤلاء ... للعزّ بن عبد السلام ..
تعدل ألف دكتوراه تُمنح لعالم في هذا الزمان !!!
فكيف وقد شهد له أساطين علماء عصره .. وما بعد عصره ..
أنه كان أَوْحد زمانه .. عِلْماً ووَرعاً واجتهاداً !!؟
قال عنه السبكي: « إمام عصره بلا مدافعة » !!
وقال الذهبي: « انتهت إليه معرفة المذهب ... » !!!
وقال ابن الحاجب: « ابن عبد السلام أفقه من الغزالي » !!!
ومن هو هذا الغزالي ؟!

هو حُجة الإسلام .. الإمام العظيم أبو حامد الغزالي !!!
فانظر كيف يكون مقام مَنْ هو أفقه من الغزالي !!؟

★ ★ ★

ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ !؟

مِنَ العلماء مَنْ يكون جَلْفًا قَاسِيًا متَكَبِّرًا لا يرى في الوجود إلا
شخصه !!!

ومنهم مَنْ يكون رءوفًا رَحِيمًا منكسرًا لا يرى لنفسه وجودًا !!!
لماذا هذا ؟ !!

لأن الأجلاف كان علمهم علمًا باللسان ... والرحماء كان علمهم
علمًا صادرًا عن القلوب !!

وقد كان ابن عبد السلام يجمع بين حظٍّ من علوم الشريعة .. وحظٍّ
من علوم الحقيقة ...

فجاء علمه مزاجًا رائعًا ... ظاهرة شريعة ... وباطنه حقيقة ..
فقالوا :

« ويقال إنه لبس خلعة التصوف ..
« وكان يستثيره الوجد في مجلس أبي العباس المرسى ... الصوفي
المشهور » ...

وقالوا :

« كان يحضر مجالس علماء الصوفية ...
« ويستمتع من أبي العباس المرسى ..

« وأبي الحسن الشاذلي... » !!
خلاصة المقال أنَّ العِزَّ كان شخصية جامعة بين الشريعة والحقيقة..
في توازن وانسجام!!!
قال فيه ابن كثير:
« كان لطيفاً... ظريفاً... يستشهد بالأشعار » !!!
وهذا اللطف لا يكون إلا من شخصية ذات حظٍّ عظيم.. من علوم
الشريعة وعلوم الحقيقة!!!

★ ★ ★

سرّ الشخصية؟!

إذا أردت أن تعرف سرّ شخصية العزّ بن عبد السلام..
فعليك أن تتصوّر الإسلام في مجموعه ككُلٍّ...
ثم تصوّر أن ذلك تحقّق في شخص ما...
فإنّ هذا الشخص كان هو العزّ بن عبد السلام!!!
وها هنا سؤال خطير: أيعقل أن يكون العِزّ مثلاً لتحقق الإسلام
في آدمي؟!

الجواب: نعم... لأن سجلّ مواقف حياته ناطقة كلها بذلك!!!
وتفصيل هذه القضية الخطيرة.. أن العزّ كان قمة علماء عصره..
باعتراف كبار علماء ذلك الزمان..
فهو قد استوفى أقصى ما يُتصوّر من القوة العلمية..
ولكن لم يقف عند تحصيل القوة العلمية وحدها.. وإنما طبّق ما يعلم

عملياً... فكان أمراً بالمعروف... ناهياً عن المنكر... لجميع مستويات
الأمة من أعلى مستوياتها... السلطان ومن حوله... إلى أدنى
مستوياتها... العامة والجهير...

فاستوفى بذلك أقصى مراتب القوة العملية...
فهو رجل استوفى القوتين... العلمية والعملية...
إذاً هو مثال رائع للشخصية التي تمثل الإسلام تمثيلاً شاملاً كاملاً...
وهذا هو سر الشخصية... وسر خلودها عبر القرون...
فالعزّ عاش في آخر القرن الخامس وبداية القرن السادس... وما
زلنا وقد مضى على وفاته نحو سبعمائة وخمسين عاماً... وما زلنا نترنّم
بأمجاده وعظمته!!!

لماذا؟!... لأنه صورة فذة للإسلام إذا تحقّق في رجل!!!
إنّ رجلاً يبلغ أعلى مراتب القوة العلمية والعملية في عصره...
ويشهد له الملوك والعلماء بذلك... لجدير أن يُوقّر من الأجيال... وهذا
ما كان... وسيكون إلى ما شاء الله!!!

★ ★ ★

بَلِّغ رُتْبَةَ الاجْتِهَاد؟!

إذا قال الذهبي:
« انتهت إليه معرفة المذهب... مع الزهد والورع...
« وبلغ رتبة الاجتهاد...
كان معنى هذا أنّ العزّ استوفى الشروط الواجب توافرها في

الفقيه .. ليلبغ رتبة الاجتهاد ..
ومجمل هذه الشروط أن يجمع بين جميع علوم اللغة .. وعلوم الفقه ..
وعلوم التفسير ... وعلوم الحديث .. وعلوم العقائد .. وعلوم
الشرائع .. ويكون ذا مقدرة على استنباط الأحكام .. والمقارنة بين آراء
المذاهب المعتمدة .. وترجيح حُكم على حُكم ... والأخذ بما يناسب
عصره ..

فإذا قال عنه السبكي في طبقاته:
«سلطان العلماء .. إمام عصره بلا مدافعة .. المطلع على حقائق
الشريعة وغوامضها .. العارف بمقاصدها ..»
علمنا أن السبكي إنما يصف صفات المجتهد حين يصف العزّ بن عبد
السلام!!

وإذا قال فيه ابن كثير:
«انتهت إليه رئاسة المذهب ..
«وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ...
«ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ... بل اتسع نطاقه ..
«وأفتى بما أدى إليه اجتهاده ..»
علمنا أن إمامًا جليلاً كابن كثير .. يشهد للعزّ بن عبد السلام .. أنه
كان مجتهداً ..

قد استوفى شروط الاجتهاد وزيادة!!!
وهذا الاجماع على عظمة العزّ بن عبد السلام .. من أكبر أئمة علماء
العصر .. لا يتأتى إلا إذا ثبت عند هؤلاء العظماء أن العزّ كان
كذلك .. بل وأكبر من ذلك!!!

★ ★ ★

من محاسنه؟!!

قالوا:

« ومن محاسنه أنه كان إذا أفتى برأي مرّة.. ثم تبين له فسادة..
« نادى على نفسه.. في مصر والقاهرة.. « بألا يعمل أحد بفتواه» !!
هذه صفة عليا من صفات العزّ.. ويندر أن يتصف بها من العلماء
إلا القليل..
ولكن العزّ.. على ما كان عليه من بلوغ أعلى مراتب العلم.. يرجع
عن رأيه إذا تبين له فسادة.. ويبعث من ينادي بألا يعمل أحد
بفتواه!!!

★ ★ ★

يا أيُّوب؟!!

« دخل الشيخ على السلطان الصالح أيوب...
« في يوم عيد بالقلعة...
« فشهد العسكر مصطفىين بين يديه...
« ومجلس المملكة حافل...
« والسلطان قد خرج على القوم في زينته...
« وأخذ الأمراء يُقبّلون الأرض بين يديه...
« والتفت الشيخ إليه وناداه:

« يا أيُّوب؟! ... »
« ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك مُلك مصر؟! ... ثم
تبيح الخمر؟! ... »
« فقال: « هل جرى هذا؟! » ... »
« فقال: نعم! ... الحانة الفلانية ... يباع فيها الخمر ... وغيرها من
المنكرات ... وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ... »
« وكان الشيخ يناديه بهذا بأعلى صوته ... والعساكر واقفون ...
فقال السلطان:
« يا سيدي ... هذا ما أنا عملته ... هذا من زمان أبي » ...
فقال الشيخ: « أنت من الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أُمَّةٍ ﴾ ^(١)؟! ... »
فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة!
قيل إن أحد تلاميذ الشيخ سأله عن هذه الحادثة ...
وقال: كيف الحال؟! ...
فقال له الشيخ: يا بُنيّ! ... رأيت في تلك العظمة ... فأردت أن
أهينه ... لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه!!!
فقال: « يا سيدي أما خفته؟! ... »
فقال: « والله يا بُنيّ ... استحضرت هبة الله تعالى ... فصار السلطان
قدامى كالقطة!!! »
وفي هذه الأقصوصة أكثر من إشارة إلى أعماق شخصية العزّ ...
أنَّ العزّ كان لا يلتفت إلى زينة الملوك ... وإنما قلبه معلق بعظمة
الله ... »

(١) سورة الزخرف، آية ٢٢.

فلما استحضر هبة الله ... تضاعل السلطان أمامه كالقطة!!!
وأنّ العزّ يقول الحقّ لا يبالي أسخط السلطان أم أغضبه!!!
يا أيوب؟!

هكذا مجردة!!! لم يقل يا صاحب الجلالة... أو الفخامة... أو يا
أيها السلطان... وإنما يا أيوب!!! نفس عالية ترى الناس صغاراً...
وإنما الكبير هو الله وحده!!!

وأنّ العزّ كان على علم بتربية النفوس... صقّع الملك وهو في أعظم
زينته يوم العيد... وضربه ضربة في صميم كيانه... فأفزعه
وقزّعه... وحطّم كبرياءه وغروره...

« فأردت أن أهينه... لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه »!!!

أرأيت؟!... إنه خير بالنفوس... يعلم كيف يعالجها... فإذا كان
العلاج بإجراء عملية جراحية أجراها... لا يبالي بصراخ المريض!!!
إنّ العزّ لم يخلد ذكره سهّلاً... كلا وإنما لأنه أتى حظاً
عظيماً... من المعارف والعلوم!!!

(١) ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؟!

نعم... وأظنّ أنّ العزّ بن عبد السلام كان منهم!!!
وما له ألا يكون منهم... وقد كان سلطان العلماء؟!
فإن لم يكن هو منهم... أف يكون عوام العلماء منهم؟!

(١) سورة فاطر، آية ٢٨.

نعم ... كان العزّ بن عبد السلام ... يخشى الله ... أشد خشية!!!

وآية ذلك أنه قدّم نفسه قرباناً لله ...

ولسان حاله يقول:

﴿... إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ★

لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)!!!

كان العزّ يحفظ كتاب الله آية آية ...

ويتحقّق ما استطاع بكل آية منه ... آية آية ...

وكان يحفظ آلاف الأحاديث النبوية ... ويتحقّق بكل حديث

منها ... حديثاً حديثاً ...

وفي كتاب الله من الوعيد لمن لم يعمل من العلماء بما أنزل الله ... ما

يشيب له الولدان ...

كيف لا يخشى العزّ ربّه وهو يتلو آناء الليل وأطراف النهار ... مثل

قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا

قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)!!!

أو يطيق العزّ ألا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكّيه؟!!!

من هنا ... من مثل هذه الآيات القوارع التي تتصدع لها الجبال ...

كانت خشية الله تنفجر في أعماق أعماق العزّ بن عبد السلام!!!

فترعرعت شجرة الخوف من الله في بنيانه وتفرّعت ...

فكان كل غصن منها ... هو هذه المواقف العجيبة التي بهرت

السامعين ... على ممر العصور!!

(١) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢ - ١٦٣.

(١) سورة البقرة، آية ١٧٤.

وإنما كان العزّ تتشعشع منه أنوار قوله تعالى:
﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (١)!!!

مَا كَانَ الْعَزَّ بْنَ عَبْدِ السَّلَامِ... طَالِبَ دُنْيَا...
وَكَيْفَ يَطْلُبُ الدُّنْيَا... وَهُوَ يَقْرَأُ قَوْلَهُ تَعَالَى:
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ (٢)!!؟

ليس فقط لا يطلب أجراً على تبليغ رسالة الله... بل ويضحي بنفسه
وما يملك في سبيل احقاق الحق... وإليك شيئاً من بدائع شخصيته في
هذا السبيل...

فتنة الحنابلة (٣) !؟

« حدثت هذه الفتنة في عصر السلطان الأشرف ابن الملك العادل الإيوبي
في دمشق. أشار إلى هذه الفتنة الذهبي فقال: « كان للأشرف ميل إلى
المحدثين والحنابلة، وفي عصره حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب
العقائد وتعصب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة، وجرت خبطة
« كتب عز الدين إلى الأشرف... »

ونجد إشارة أخرى عند الكتبي الذي اقتضب الحادثة كلها بقوله: « ولما
كان بدمشق سمع من الحنابلة أذى كثيراً رحمه الله ».
والسبكي هو الوحيد الذي نقل لنا أخبار هذه الفتنة بتفصيل واسهاب عن

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٩.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٠٩.

(٣) باختصار من كتاب « سلطان العلماء - عز الدين بن عبد السلام »، لمؤلفه محمود الشرقاوي.

ولد الشيخ عز الدين. بيد أنه لم يحدد لنا تاريخ وقوعها. وكل ما نستطيع القول به أنها حدثت قبل سنة ٦٣٥ هـ اذ فيها توفي الأشرف. ولعلها وقعت في نهاية السنة نفسها قبيل وفاة الأشرف. وشعرنا بذلك طريقة الراوي «شرف الدين بن عز الدين» في سردها.

كان السلطان الأشرف... يميل الى الحنابلة والمحدثين وقد أنشأ لهم دار حديث حسنة. وبيان ذلك ان جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن الله سبحانه وتعالى حرفاً وصوتاً، قرروا في ذهن السلطان الأشرف أن الذين هم عليه اعتقاد السلف، وانه اعتقاد أحمد بن حنبل رضي الله عنه وفضلاء أصحابه، واختلط هذا بلحم السلطان ودمه. وصار يعتقد أن مخالف ذلك كافر حلال الدم.

وكان السلطان يحترم الشيخ عز الدين ويعظمه عندما عرف مكانته العلمية، وحرصه على أمور الدين، وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصار السلطان يلهج بذكره، ويؤثر الاجتماع به، والشيخ لا يجيب الى الاجتماع.

وحقد هؤلاء المبتدعة على الشيخ عز الدين لمنزلته لدى الأشرف وخشوا منه على منزلتهم، فوشوا به الى الأشرف وقالوا: «انه أشعري العقيدة، يخطئ من يعتقد الحرف والصوت ويبدعه. ومن جملة اعتقاده انه يقول: يقول الأشعري: «ان الخبز لا يشبع، والماء لا يروي، والنار لا تحرق». فاستهال ذلك السلطان واستعظمه، ونسبهم الى التعصب عليه فكتبوا فتياً في مسألة الكلام وأوصلوها اليه، وهدفهم ان يكتب عليها الشيخ عز الدين بعقيدته الأشعرية، وعندئذ يفضب عليه السلطان وتسقط مكانته عنده فلما سمع الشيخ عز الدين بهذا الخبر وجاءته الفتيا قال:

«هذه الفتيا كتبت امتحاناً لي والله لا كتبت فيها الا ما هو الحق».

وكتب عز الدين بن عبد السلام رسالته الصريحة القوية - التي عرفت «بعقيدة عز الدين أو ملحة الاعتقاد أعلن فيها عقيدة جمهور أهل السنة،

وبين حقيقة وسلامة موقفهم، داحضاً أقوال المبتدعين المخالفين..
والتقط الحنابلة المبتدعون رسالة عز الدين، وهم في فرح وغبطة،
لاعتقادهم أن هذه الرسالة أو الفتيا كفيلة بهلاك الشيخ واستباحة دمه، عندما
يقرأها السلطان الأشرف.

وهكذا كان.. اذ لما اطلع السلطان عليها استشاط غضباً وقال:
«صح عندي ما قالوه عنه. وهذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد في زمانه في
العلم والدين، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار، لا بل من الكفار».
وهكذا نجح الحنابلة في مؤامرتهم وأثاروا الأشرف على الشيخ عز الدين.
ووقف علماء دمشق موقفاً سلبياً من هذه الحادثة مجاملة للسلطان الأشرف. ولم
يجرؤ واحد منهم على الدفاع عن عز الدين اللهم الا شيخ المالكية والحنفية وهما
الشيخ العلامة جمال أبو عمرو بن الحاجب المالكي، والشيخ العلامة جمال الدين
الخضيري.

ويصور لنا ولد الشيخ عز الدين موقف علماء دمشق من هذه القضية،
فيقول.

«وكان ذلك في رمضان عند الافطار، وعنده على سباطه عامة الفقهاء من
جميع الأقطار، فلم يستطع أحد منهم أن يرد عليه. بل قال بعض أعيانهم:
السلطان أولى بالصفح والعفو، ولا سيما في مثل هذا الشهر. وموه آخرون
بكلام موجه، يومهم صحة مذهب الخصم ويظهرون أنهم قد أفتوا بموافقة.

فلما انفضوا تلك الليلة من مجلسه بالقلعة، اشتغل الناس في البلد بما جرى
في تلك الليلة عند السلطان. وأقام الحق سبحانه وتعالى الشيخ العلامة جمال أبا
عمرو بن الحاجب المالكي في هذه القضية. ومضى الى القضاة والعلماء الاعيان
الذين حضروا هذه القضية عند السلطان، وشدد عليهم النكير. وقال:
العجيب! أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل، وما فيكم من نطق بالحق.
وسكتكم، وما انتصرتم لله تعالى وللشريعة المطهرة. ولما تكلم متكلم منكم قال:

«السلطان أولى بالعفو والصفح، ولا سيما في مثل هذا الشهر» وهذا غلط يوهم الذنب. فان العفو والصفح لا يكونان الا عن جرم وذنوب. أما كنتم سلكتم طريق التلطف باعلام السلطان بأن ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق، وان جمهور السلف والخلف على ذلك ولم يخالفهم فيه الا طائفة مخذولة، يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف الى من يستضعفون علمه وعقله. وقد قال الله تعالى :

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولم يزل يعنفهم ويوبخهم الى أن اصطلح معهم على أن يكتب بصورة الحال، ويكتبوا بموافقة ابن عبد السلام، فوافقوه على ذلك وأخذ خطوطهم بموافقته.

ثم طلب عز الدين من السلطان بعد ذلك أن يعقد مناظرة بين الشافعية والحنابلة ويحضرها غيرهما من علماء المسلمين. وكتب اليه يقول :

«ان العلماء الذين حضروا مجلس السلطان وافقوا كتابيا على فتياه، وأنهم لم يمكنهم ذلك بحضرة السلطان في ذلك الوقت لغضبه، وما ظهر من حدته في ذلك المجلس. والذي نعتقد في السلطان أنه اذا ظهر له الحق رجع اليه. وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل، فإنه عزز جماعة من أعيان الحنابلة تعزيراً بليغاً رادعاً. وبدع بهم وأهانهم».

وكانت رسالته هذه، ومطالبته السلطان الأشرف بعقد المناظرة شرارة أخرى، ألهمت السلطان وأخرجته عن طوره. فرد في الحال على الشيخ وكتب بخط يده :

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصل إلي ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام -

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

أصلحه الله - من عقد مجلس وجمع المفتين والفقهاء . وقد وقفنا على خطه وما أفقئ به . وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين قال ﷺ في حقهم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» .

وعقائد الائمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه، ويتبع الحق، ويتخلص من البدع، اللهم ان كنت تدعي الاجتهاد، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى، لتكون صاحب مذهب خامس. وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي تغمده الله برحمته فذلك الحال أنا أعلم به منك، وما كان له سبب الا فتح باب السلامة لأمر ديني.

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانيه العذاب ومع هذا فقد ورد في الحديث: «الفتنة نائمة لعن الله مثيرها». ومن تعرض لاثارتها قاتلناه بما يخلصنا من الله تعالى، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولما وردت هذه الرسالة الى عز الدين قرأها وطواها، وآثر أن يترث بعض الوقت لعل الموقف ينكشف عن جديد فقال للرسول: «قد وصلت، وقرأتها وفهمت ما فيها، فاذهب بسلام». ولكن كان السلطان قد أراد التحدي، اذ قال الرسول: «قد تقدمت الأوامر السلطانية باحضار جوابها» .

وهنا كانت ثورة رجل لا يخشى في الحق لومة لائم، ولم يقبل لحظة أن يدافع عن نفسه وظهره الى الحائط، فبرز الى الميدان متحدياً من تحده، وارتجل رسالة أقوى وأشد صراحة ردًا عليه. بدأها بصوت الحق الهادر:

﴿قَوْرَبَّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وختمها بهتاف المؤمن المجاهد الصابر: «وبعد ذلك نزع انا من جملة

(١) سورة الحجر، الآيتان ٩٢ - ٩٣ .

حزب الله وأنصار دينه وجنده، وكل جندي لا يخاطر بنفسه فليس بجندي. وتحلل ذلك الجهر بعقيدته وما عليه جمهور أهل السنة، محتجًا بالادلة والبراهن.

ويصور لنا ابنه هذا المشهد مرة أخرى، فيقول: «وكان يكتبها وهو مسترسل من غير توقف ولا تردد. فلما انتهى من كتابتها طواها وختمها ودفعها الى الرسول. وكان عنده حال كتابتها رجل من العلماء الفصلاء، ممن يحضر مجلس السلطان، فوقفه على الرقعة التي وردت من السلطان فتغير لونه، واعتقد أن الشيخ يعجز عن الجواب لما شاهد في ورقة السلطان من شديد الخطاب، فلما خط الشيخ مسترسلًا عجلًا، وهو يشاهد ما يكتبه بطل عنه ما كان يحسبه، وقال له ذلك العالم: لو كانت هذه الرسالة التي وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب وعدم الصواب، ولكن هذا تأييد الهي».

كان الموقف دقيقًا خطرًا، فزع منه الناظر المشاهد. وخشي سوء العاقبة، بيد أن الشيخ عز الدين لم يفزع، وأبى الا أن يعلن ما يراه الحق صريحًا قويا، غير مبال بما يخفيه له مواجهته وصموده لتحدي سلطان عنيد ناقم، من مؤكد المحنة والبلاء.

وكانت المحنة والبلاء، فعندما قرئت الرسالة على السلطان، عظم غضبه، وتيقن العدو تلف الشيخ وهلاكه. ووجه الأشرف وزيره العُزّز خليلًا حاملًا اياه حكم الاضطهاد بأن لا يفتي أحدًا، ولا يجتمع بأحد، وأن يلزم بيته.. وأبلغه الوزير هذا الحكم بالاقامة الجبرية أو شبه الحبس بغاية تأدب وحسن ابلاغ، متأسفًا على تجنب الشيخ الاجتماع بالسلطان، لأنه كان يحب الشيخ ويعتقد في رجحان علمه ودينه.

ولم يكن هذا الحكم القاسي مفاجأة له، وكأنه كان ينتظره، بل رآه بشرى له واستقبله ببشر وترحاب.

قال: «يا غرزا ان هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام. أما الفتيا فاني كنت والله متبرما بها وأكرهها. وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا اعتقادي أن الله أوجبها عليّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها، والان فقد عذرتني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلصت ذمتي، والله الحمد والمنة. وأما ترك اجتماعي بالناس ولزومي البيت، فها أنا في بيتي الآن. وانما أنا في بستان، ومن سعادتي لزوم بيتي، وتفرغي لعبادة ربي. والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى. وهذا تسليّة من الحق، وهديّة من الله تعالى الى، أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان. والله، يا غرزا لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة، وصل عليها، فقبلها وقبلها».

وبهذا الموقف الرائع فوت الشيخ عز الدين على السلطان أن يحس باحساس النصر الذي جل خصمه على تجرع ما لا يجب، بل لعله كان يسخر من السلطان ويرمز الى هذا المعنى نفسه حين قال:

«أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان» مما دهش له الأشراف فتساءل:

«قولوا ما أفعل به؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة»!

وبقي الشيخ عز الدين في هذه الاقامة الجبرية، في بستانه البعيد عن العمران برهة من الزمن الى أن قيض الله له رجلاً ليدافع عنه عند السلطان وينتصر له.

يقول ولده: «ثم ان الشيخ جمال الدين الخضيري، شيخ الحنفية في زمانه - وكان قد جمع بين العلم والعمل - ركب حماراً له، وحوله أصحابه، وقصد السلطان. فلما بلغ الملك الأشراف دخول الخضيري الى القلعة أرسل اليه خاصته يتلقونه، وأمرهم أن يدخلوه الى دار الامارة راكباً على حماره، فلما رآه

السلطان، وثب قائماً ومشى اليه». وانزله من حاربه، وأجلسه على تكرمته، واستبشر بوفوده عليه، وكان في رمضان، قرب غروب الشمس. فلما دخل وقت الغروب، واذن المؤذن صلوا صلاة المغرب، وأحضر للسلطان قدح شراب، فتناوله وناوله للشيخ، فقال له الشيخ: «ما جئت الى طعامك وشرابك». فقال له السلطان: «يرسم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه» فقال له: ايش بينك وبين ابن عبد السلام، وهذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده، لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفخر به على سائر الملوك».

قال السلطان: «عندي خطة باعتقاده، في الفتيا، وخطة أيضاً في رقعة في جواب رقعة سيرتها اليه، فيقف الشيخ عليها، ويكون الحكم بيني وبينه». ثم أحضر السلطان الورقتين وقراها الى آخرهما: فقال الشيخ الخضيري: «هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين وكل ما فيها صحيح، ومن خالف ما فيها، وذهب الى ما قاله الخصم من اثبات الحرف والصوت فهو حار».

فقال السلطان: «ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه. والله لأجعلنه أغنى العلماء».

وأرسل الى الشيخ واسترضاه وطلب محالته ومخالته».

ويحدثنا الراوي: «ان الحنابلة كانوا انتصروا على أهل السنة وعلت كلمتهم، بحيث أنهم صاروا اذا خلوا بالأشعرية في المواضع الخالية، يسبونهم ويضربونهم ويذمونهم، فعندما اجتمع الشيخ الخضيري بالسلطان، وتحقق هو ما عليه الجم الغفير من اعتقاد أهل الحق تقدم الى الفريقين بالامساك عن الكلام في مسألة «الكلام» وأن لا يفتي فيها أحد بشيء، سداً لباب الخصام... فانكسرت المبتدعة بعض الانكسار، وفي النفوس ما فيها».

واذا كان النصر الذي تم للشيخ عز الدين في هذه المرحلة نصراً صامتاً

سلبياً، فقد كان انتصاره واضحاً وعلمياً في مراحلهِ الأخيرة حين قبض الله له من ينصره من ذوي السلطان.

فقد كان الملك الكامل (أخو الأشرف) أكبر سلاطين الأسرة وسلطان مصر أشعرياً متعصباً، ومن هنا فقد تتبع تطورات المناقشة المثيرة ووقف على غايتها، وظل على صمته الى أن زار دمشق، فسأل أخاه عما تم فيما جرى بين الشافعية والحنابلة من خصام بسبب مسألة الكلام.

فقال الأشرف: «يا خوند! منعت الطائفتين من الكلام في مسألة الكلام، وانقطع بذلك الخصام».

فقال الكامل: «والله! مليح، ما هذه السياسة والسلطنة؟ تساوي بين الحق والباطل وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكتموا ما أنزل الله عليهم!».

كان الطريق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم، وأن يظهروا دين الله، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعين عشرين نفساً يرتدع بهم غيرهم، وأن تمكن الموحدين من ارشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين».

وهنا تم انتصار الشيخ عز الدين، وانخزل الفريق الآخر وسكت صوتهم، وارتد السلطان من كراهة الشيخ وغضبه عليه الى حبه له، واکرامه اياه. وصرح بنجله وحيائه من الشيخ وقال:

- «لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة» وصار يترضاه ويعمل بفتاويه، وما أفناه، وقرئت عليه «مقاصد الصلاة» - رسالة عز الدين - في يوم ثلاث مرات وكلما دخل عليه أحد من خواصه يقول للقارئ: «اقرأ مقاصد الصلاة لابن عبد السلام حتى يسمعها فلان ينفعه الله بسماعها».

وقد بلغ من عناية السلطان بهذه الرسالة، ارضاء لعز الدين وتلافياً لما فرط في حقه، أنه لما زاره واعظ الزمان والمؤرخ الكبير أبو المظفر سبط بن الجوزي

أعطاه أياها قائلاً :

- « طرز مجلسك الآتي بها » .

وهكذا انتهت الفتنة بعد اضطهاد وعسف وتشكيل ، الى استرضاء ، وتقدير وتعظيم ، بيد أن الشيخ عز الدين لم يستغل عاطفة السلطان هذه في مصالحه الذاتية ، ومآربه الشخصية ، وبقي كما كان بعيداً عن بلاطه الى أن مرض السلطان ، فعاده على طلب منه ، في مرضه ، ووجهه توجيهات مخلصة وقدم نصائح وارشادات ، وكان لهذا تأثير حسن في نفس السلطان ، اذ سمع للشيخ ، وأصدر أوامره بإبطال بعض المنكرات التي أشار اليها الشيخ في الحال .

ومن السهل أن نبين الأثر الذي تركه موقف الشيخ عز الدين من هذه الفتنة ، الصلب ، الصريح ، الصادق ، سواء في نفوس العلماء من معاصريه الذين انكشف معدنهم الزائف وقلوبهم الضعيفة ، وعلمهم الواهن ، الذي وهنت به نفوسهم ، فلم يجسر أحدهم على أن يجهر بما يعتقد وإنما راوغ أو نافق ، فاذا بهم يرون انتصار الحق ، وهكذا يأخذون درساً في الصدق والاخلاص والشجاعة الأدبية ، وسواء في نفوس السلاطين ، فالأشرف قد تغير من كراهية وعداوة لعز الدين الى حب واصغاء اليه ، وكذلك الملك الكامل الذي تأثر به ، فدافع عنه وهكذا من جاء بعدهما من السلاطين والملوك .

★ ★ ★

تحالف الصالح اسماعيل والصليبيين !؟

« توفي الملك الأشرف في سنة ٦٣٥ هـ وخلفه أخوه الملك اسماعيل على سلطنة دمشق . ونشأ بينه وبين ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب خلاف ، لأن اسماعيل حارب والد نجم الدين ، ثم وثب بعد موته على حكم دمشق .

وقد خاف اسماعيل من نجم الدين على حكمه، فتحالف مع الفرنج الصليبيين أعداء الدين والوطن ليساعدوه على نجم الدين، وتنازل لهم في نظير ذلك عن صفد والشقيف، واقتسم معهم صيدا وطبريا وملحقاتها، وجزءاً كبيراً من الساحل الفلسطيني الذي كانت له السيطرة عليه!! وقد أعطاهم هذه الأجزاء دون غيرها لأنها تمثل خط الدفاع الأول في وجه نجم الدين اذا ما فكر في غزو دمشق.

ومضى الصالح اسماعيل في خيانتته الى آخر الشوط، اذ أباح للصليبيين دخول دمشق وشراء السلاح والميرة منها!.

وهنا ثار الرأي العام الاسلامي وذهب المسلمون الى العلماء واستفتوهم في ذلك، فأفتى الشيخ عز الدين بتحريم بيع السلاح للصليبيين. ولم يكتف الشيخ باصدار الفتوى فحسب، بل قام بقطع الدعاء للسلطان من الخطبة، وصار يحث الناس على الجهاد ومقاطعة الصليبيين، مهاجماً السلطان لتعاونه مع أعداء الوطن، وحرص على ترديد هذا الدعاء بعد فراغه من الخطبتين.

« اللهم أبرم لهذه الأمة ابرام رشداً، تعز فيه أولياءك وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي فيه عن معصيتك ».

والناس يضجون بالدعاء.

وكان الصالح اسماعيل غائباً عن دمشق، فكاتبه أعوانه بما حدث، فورد كتابه بعزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن الخطابة واعتقاله هو والشيخ ابن الحاجب المالكي، لأنه رفع صوته في الانكار عليه مع عز الدين، فاعتقلا.

« ثم لما قدم اسماعيل الى دمشق أفرج عنها وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره، وألا يفتي، ولا يجتمع بأحد البتة، فاستأذنه في صلاة الجمعة، وأن يعبر اليه طبيب أو مزين « حلاق » اذا احتاج اليها، وأن يعبر الحمام، فاذن له في ذلك.

ان الشيخ عز الدين في هذا الموقف البطولي الرائع لم يهن ولم يضعف ولم

يتردد بل كان جريئاً في رفع راية الحق أمام سلطان خائن تعاون مع أعداء الوطن والدين من أجل الحفاظ على عرشه.

ولم يكن بالامكان أن يواصل الشيخ عز الدين رسالته وهو في هذه العزلة الجبرية المفروضة عليه فعزم على أن يهاجر من دمشق الى بلاد يستطيع فيها القيام بواجبه العلمي والعملية بحرية وانطلاق، ووقع اختياره على مصر. فخرج من دمشق في أواخر سنة ٦٣٨ هـ وكان معه زميله الشيخ ابن الحاجب الملكي.

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما حدث له في طريقه الى مصر فيقول: «... وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات، فأقام مدة بدمشق، ثم انتزع منها الى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الغور فقطع عليه الطريق، وأخذه، وأقام عنده بنابلس مدة، وجرت له معه خطوب، ثم انتقل الى بيت المقدس حيث أقام مدة.

ثم جاء الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حصص، وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم الى بيت المقدس، يقصدون الديار المصرية، فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله، وقال له:

- «تدفع منديلي الى الشيخ، وتتلطف به غاية التلطف، وتستنزله وتعدده بالعودة الى مناصبه على أحسن حال. فان وافقك فتدخل به عليّ، وان خالفك فاعتقله في خيمة الى جانب خيمتي».

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: - بينك وبين أن تعود الى مناصبك، ما كنت عليه وزيادة، ان تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير.

فقال الشيخ:

- والله يا مسكين! ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد. والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال :

- قد رسم لي أن توافق على ما يطلب منك ، والا اعتقلتك .

فقال الشيخ :

- افعلوا ما بدا لكم ..

فأخذه واعتقله في خيمة الى جانب خيمة السلطان

ويذكر راوي القصة هنا لفظة تدل على تقدير الأعداء للشيخ عز الدين .

قال : « وكان الشيخ يقرأ القرآن ، والسلطان يسمعه ، فقال يوماً لملوك الفرنج :

- تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟

فقالوا :

- نعم .

قال :

- هذا أكبر قسوس المسلمين ، قد حبسته لانكاره على تسليمي لكم حصون

المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق ، وعن مناصبه ، ثم أخرجته ، فجاء الى

القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لاجلكم .

فقالت ملوك الفرنج :

- لو كان هذا قسيسنا لقمنا بين يديه فغسلنا رجله وشربنا ماء غسلها ؟

ولم ينج الشيخ عز الدين من أسر الصالح اسماعيل الا بعد أن جاءت الجيوش

المصرية الى القدس . وانهزم اسماعيل وحلفاؤه في الحرب ، وقتلوا وهربوا .

وبعده واصل الشيخ سيره الى مصر ، فوصل الى القاهرة في سنة ٦٣٩ هـ .

وبدأ هناك مرحلة جديدة من حياته .

★ ★ ★

بيع أمراء الدولة المماليك في المزاد؟!!

« كان هؤلاء المماليك الاتراك ذوي نفوذ وقوة في بلاط الدولة المصرية أيام الصالح نجم الدين أيوب، وقد قال المؤرخون، ان الملك الصالح أسرف في شراء المماليك الاتراك وأسكنهم في قلعة الروضة، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ويجعل منهم امراء يتسلطون على رقاب الناس، ويكثر منهم الأذى والشر، حتى قال في ذلك شاعرهم:

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوبًا بفعلته فالناس كلهم في ضر أيوب
ويرجع تاريخ نفوذ المماليك الاتراك السياسي وقوتهم في الدولة الاسلامية الى أمد بعيد في التاريخ، الى العصر العباسي الأخير، اذ كانوا يديرون دفة الحكم من وراء عرش الخلافة.

وعندما وصل الشيخ عز الدين الى مصر، عهد اليه سلطانها الصالح نجم الدين بمنصب رئاسة القضاء بها، وهؤلاء المماليك في أوج قوتهم، ويلقبون بـ «الامراء» وبعدها تسلم الشيخ عز الدين منصبه، نظر في الأمور القضائية الشرعية نظرة اصلاح. فظهر له أن أولئك المماليك ما زالوا عبيدًا أرقاء من الوجهة الشرعية القضائية، ولم يثبت عنده أنهم نالوا الحرية حسب الاجراءات الشرعية، فحكم عليهم بأنهم من أملاك بيت مال المسلمين، واذا أرادوا الحرية فلا بد من بيعهم، اذ هم ليسوا بأحرار، فلا يجوز لهم من الناحية الشرعية أن يتصرفوا تصرف الاحرار في مجالات الحياة المختلفة، حسب ما هو منضبط في الفقه.

فبدأ الشيخ عز الدين يبطل أنواع العقود التي يعقدونها من بيع وشراء وزواج وطلاق وما اليها، فتعطلت مصالحهم بذلك، ولحقهم أذى كبير، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض!

وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة فاشتد غضباً وثار وهاج، واجتمع القوم وأرسلوا الى الشيخ يستفسرونه ماذا ينوي بهم، فأتى اليهم من الشيخ جواب صريح: «نعقد لكم مجلساً، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي».

ولم يقتنع الامراء بهذا الرأي ورفعوا الأمر الى السلطان، طالبين تدخله، وموقنين أن هذا التدخل سيكون في جانبهم، وأن السلطان سيحمل الشيخ على التنازل عما يعتزم.

وطلب السلطان من الشيخ أن يتركهم وشأنهم. فلم يرجع الشيخ عن حكمه وصمد في موقفه، وأصيب بذلك السلطان في كبريائه وعظمته، وجرت على لسانه كلمة ضد الشيخ عنيفة ملؤها النقمة والسخط، وحاصلها أن الشيخ لا يجوز له أن يحكم هذا الحكم القاسي على امراء دولته ونائب سلطته وهو أمر لا علاقة له به، وهو بذلك يتجاوز صلاحيته.

ومرة أخرى لجأ الشيخ عز الدين الى سلاح قوي، الانسحاب الهادئ من غير ضجة أو اثارة تعطي الخصم فرصة للانتقام، لكن اذا كان الشيخ لا يستطيع أن يقيم حكم الله في مصر على عباد الله كلهم فانه يرفض أن يعيش في بلد لا يقيم شريعة الله سبحانه وتعالى. واذا كان السلطان - حامي الحقوق - يتدخل لابطال الحقوق، فليس عز الدين الذي يرضى باستدلال المنصب وتحكم الجاه، وليس من حق أحد أن يجبره على الإقامة في بلد لا يرتضيه.

وهكذا خرج الشيخ من القاهرة، وحل أمتعته على حمار، وركب عائلته على حمار آخر، وسار مترجلاً خلفهم، قاصداً الشام، فلم يصل الى نحو نصف «بريد» الا وقد لحقه غالب المسلمين لم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه اليه يتخلف لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم. وبلغ ذلك السلطان، وقيل له:

- «متى راح ذهب مُلكك».

فركب السلطان بنفسه، ولحقه، واسترضاه، وطيب خاطره، فرجع واتفق على أن ينادى على الأمراء في المزاد.

وحاول نائب السلطنة مرة أخرى اقناع الشيخ عز الدين بالعدول عن رأيه، بيد أن القاضي العادل لم يتراجع عن حكمه، وعند ذلك فقد نائب السلطنة صوابه من شدة الغيظ وصاح في كبرياء وخيلاء:

- «كيف ينادي علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنه بسيفي هذا».

فركب بنفسه وأخذ معه جماعته، وجاء الى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، وطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد الى أبيه يخبره وهو خائف على والده فقال الشيخ في ثقة راسخة لا يتسرب اليها شك:

- يا ولدي! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله.

وظهر الشيخ على الباب، واستقبل نائب السلطنة، وظهر أثر شخصية عز الدين القوية المهابة، التي تفرض احترامها على الآخرين، لأن صاحبها قد ساوى بين الحياة والموت، ولم يساو بين الحق والباطل، فكسب بذلك قوة لا تعدلها قوة. «وحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال:

- يا سيدي، ايش تعمل؟

قال الشيخ:

- أناادي عليكم وأبيعكم.

فسأل نائب السلطنة:

- فقيم تصرف ثمننا؟

أجاب الشيخ عز الدين:

- في مصالح المسلمين:

قال نائب السلطنة:

- من يقبضه؟

قال الشيخ:

- أنا...

فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، ولم يبعهم الا بالثمن الوافي، وقبضه، وصرفه في وجوه الخير.

★ ★ ★

مع أستاذ الدار^(١)!

« هذا موقف آخر للشيخ عز الدين، جريء وشجاع وحاسم وقفه من وزير السلطان نجم الدين بمصر، وكان خصمه هذا المرة، وزيراً مشهوراً، وأميراً كبيراً هو معين الدين ابن شيخ الشيوخ الذي وزر لنجم الدين، وفتح له دمشق وكان نائبه بها. ولعلنا بعد هذا ندرك ما له من حظوة عند السلطان، وما له من مكانة في الدولة. وقد وقع الصدام بينه وبين عز الدين سنة ٦٤٠ هـ بعد مضي سنة واحدة على قدوم عز الدين الى مصر وتولي رئاسة قضائها.

بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ، فوق أحد المساجد بناء كان بعض جوانبه « طبل خانة » أو قاعة للموسيقى، وقد تجاهل الوزير بهذا العمل تقاليد المسلمين في توقير أماكن العبادة، كما تجاهل أوامر

(١) منصب أستاذ الدار، في ذلك العصر يعادل ما نسميه اليوم « كبير الامناء ».

الدين في احاطة المساجد بجو هادئ كله جلال وهيبة، وابعاد أماكن اللهو والعبث عنها حتى تكون القلوب فيها خالصة لله.

انزعج الشيخ عز الدين أيما انزعاج لهذا العمل، واستعمل حقه كقاضي قضاة، ومضى بنفسه وأولاده فهدم البناء ونقل ما على السطح، ثم أعلن أنه أسقط شهادة الوزير معين الدين وأنه قد عزل نفسه من القضاء.

واسقاط شهادة الوزير معناه حجب الثقة القضائية منه، وهي شيء كبير بالنسبة لوزير مسئول وسرى أثر ذلك عما قريب.

وقبل السلطان استقالة الشيخ استجابة لرغبته، ولكن «عظم ذلك عليه» كما جاء في عدة روايات. اذ كان يعرف مكانة قاضيه، وصدقه، واخلاصه.

وظن الوزير أن هذا الحكم لا يتأثر به هو، في خارج مصر، فاتفق أن يبعث السلطان رسولا من عنده الى الخليفة المستعصم في بغداد، فلما وصل الرسول الى دار الخلافة وأدى الرسالة خرج اليه من سألته:

- هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟

فأجاب:

- لا، ولكن حملنيها عن السلطان، ابن شيخ الشيوخ «أستاذ الدار». فقال الخليفة:

- ان المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته.

فرجع الرسول الى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد الى بغداد: فأداها.

★ ★ ★

ماذا أريد أن أقول؟!

أريد القول أن العزّ مثله كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ...

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ★
﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١)!!!

ولقد قالوا إن الشجرة الطيبة هي قول لا إله إلا الله ... لأنها أصل كل خير ...

وتفريعاً على ما قالوا أقول: ولقد كان العزّ بن عبد السلام يقوم ويقعد ... مُعلناً لا إله إلا الله في كل مكان وفي كل زمان ...
كانت حياته في خدمة هذه الكلمة العظمى ... وما يتفرع عليها من عقائد وسلوكيات وأخلاق ومعاملات ...

عاش ثمانين عاماً أو تزيد يدندن حول لا إله إلا الله ...
ويقف إلى جوار لا إله إلا الله ... كالأسد الضاري ... إذا آنس اعتدأً عليها من قريب أو بعيد ... انقضَّ على المعتدي قبل أن يصل إليها ... فألقاه أشلاءً مبعثرة!!!

نعم ... كانت معارك العزّ بن عبد السلام التي زلزلت عروش السلاطين ... وفزّعت قلوب الأمراء ... كانت كلها انتصاراً للآله إلا الله!!!

فهو كلمة طيبة ... تدافع عن الكلمة الطيبة!!!
وهذا أشرف مقام ... يرقى إليه من شاء أن يترقى!!!

(١) سورة ابراهيم، الآيتان ٢٤ - ٢٥.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟!

سؤال جميل جاء في قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ. وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

والجواب: لا يستويان!!!

لماذا؟... لأن الجاهل في ظلمات لا يُبصر شيئاً... والعالم في نور يُبصر به من الأشياء بنسبة ما جعل الله له من نور!!!

وهناك سؤال يتفرع على هذا السؤال: هل يستوي من كان عالماً عليمًا بلغ القمة من العلم... ومن هو في بدايات التعلم؟!

الجواب: لا يستويان... لأن علم المبتدئ لا شيء بالنسبة الى علم من بلغ القمم!!!

وهنا نطرح سؤالاً: اذا كان العزّ بلغ من العلم ما بلغ... فإذا قوّمناه ففي أي درجة من العلماء يُوضَع؟!
الجواب: في عليّين...

لماذا: لأن عظمة العالم بنسبة عمله بعلمه...
فكم من عالم كان علمه وبالأعلى عليه... لأنه لم يعمل بما عليم...
وإنما هو رجل سلبى... يثرثر بالعلم ولا يعمل بما فيه...
أمّا العزّ بن عبد السلام... فكان آمراً بالمعروف... ناهياً عن المنكر... نائراً على الظالم... يلقي في وجهه بماء يشوي الوجوه... حتى

(١) سورة الزمر، آية ٩.

يضطره أن يتوارى من الناس من سوء ما أُلقي عليه!!!

لقد جابه السلطان نجم الدين أيوب في يوم الزينة بالقلعة... بما
جعله يتلوى ويتلوى ويدفع عن نفسه تهمة التصريح بإحدى حانات
الخمور!!!

موقف كهذا أنفع للأمة كلها... من تأليف مائة كتاب في علوم
الدين!!!

لأن العلم النظري يستطيعه كل من كان ذا استعداد علمي...
منافقاً كان أم كان من المخلصين؟!..

أمّا مواقف البطولة... مواقف التصدي لأكبر رأس في الدولة...
للسلطان المطلق السلطات... فلا يستطيعها إلا من كان يريد وجه
الله... فيندفع في نضاله ضدّ الظالمين... لا يبالي ما يصيبه في سبيل
الله...

وها هنا عظمة العزّ بن عبد السلام!!!

نعم كان الرجل إمام أئمة عصره فقهًا وإفتاءً... ولكن ليس من
هنا انتزع العزّ البطولة... وإنّما من وقوفه في وجه كلّ جبار عنيد...
وكلّ عتُلّ غشيم!!!

كان يتصدى ويتصلّب ولا يتزحزح... فإمّا أقام الحقّ وحطّم
الباطل... وإمّا خرج من البلاد كلّها التي لم يستطع أن يُقيم الحقّ
فيها...

لأنه لا يُطبق أن يرى الحقّ مهانًا ذليلاً!!!

هذا الإحساس النبيل الجليل الجميل... الذي هو الفاصل بين معدن
رجُل ورجُل... ومعدن أمة وأمة... كان هو الصفة المميزة للبطل
العزّ بن عبد السلام!!!

ونحن الآن لا نَقصنا علماء ... فإنَّ الأُمَّة مصابة بداء تُخمة
العلماء !!!

عندنا آلاف من العلماء الكبار والصغار ...
ولكن لا وَزَنَ لهم ... في حياة الأُمَّة ... لماذا ؟!
لأنهم علماء نظريون ... يثرثرون ويتشدقون بالعلم ... وكفى !!!
إمّا العمل بهذا العلم فلا يخطر لهم على بال !!!
لكن العزّ بن عبد السلام ... يأبى أن تمرّ عليه واقعة واحدة فيها
أدنى انحراف عن الحقّ ... إلّا جاهد مرتكبها حتى يُقلعوا أو يغادر
هو بلادًا لم يستطع أن يقيم فيها ما يرضاه الله !!!
فَعَلَّ هذا في صدامه مع السلطان الملك الصالح إسماعيل ... سلطان
دمشق ...

جاهده جهادًا كبيرًا ... فغضب السلطان عليه ... واعتقله زمانًا ...
ثم اضطر الى اطلاق سراحه ... خوفًا من ثورة الجماهير !!!
فماذا فَعَلَ البَطْل ؟!
غادر دمشق ... مسقط رأسه ... وهو في نحو الستين ... الى
القاهرة !!!
إمّا أن ينتصر الحقّ وإمّا أن يهاجر من بلاد يُستضعف فيها أهل
الحقّ !!!

وفَعَلَ هذا في مصر ... وتركها غير آسف عليها ... احتجاجًا على
سلطان لا يُنفَّذ في بلاده حُكْم من أحكام القضاء !!!
فكيف كان ذلك ؟!!

قاضي القضاة؟!

« وقد شغل هذا المنصب عقب قدومه الى مصر أيضاً^(١)...
« وتولى القضاء في ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٣٩ هـ اتر وروده الى
القاهرة... وبعد وفاة قاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة...
« وكان صلباً في حكمه وقضائه...
« وجريئاً في التنفيذ...
« لم يخضع في قضائه الا للحق...
« وكان العدل أساس أحكامه...
« لم يترك فرصة لأهل الهوى لكي يتدخلوا في تغيير مجرى
العدالة... مما اضطره كثيراً أن يجابه الأخطار ويتعرض للأذى...
« وقد جرت له حادثتان - وهو في القضاء - اضطرته الى الاستقالة
كل مرة انتصاراً للحق والعدل...
وأشار الى هذا السبكي فقال:
« ثم عزل نفسه عن الحكم...
« فتلطف السلطان في رده اليه...
« فباشره مدة...
« ثم عزل نفسه مرة ثانية...
« وتلطف مع السلطان في امضاء عزله بنفسه... فأمضاه...
« وأبقى جميع نوابه من الحكام...
« وقد أغفلت المراجع سبب الاستقالة الأولى وإن ذكرت سبب
الثانية التي لم يعد بعدها للقضاء... »

(١) كما شغله حين كان بالشام... قاضياً للقضاة ١١١

« وهي الحادثة المشهورة التي ارتكبها معين الدين حسن ... استاذ
الدار الذي بنى « طبل خانة » للهو والغناء فوق سقف أحد المساجد !
« وأمام هذا الاستهتار المشين ببيوت الله لم يملك الشيخ عز الدين إلا
أن يحكم بهدم البناء ... وإسقاط أهلية الوزير للشهادة ...
« وعزل نفسه عن القضاء ... وهنا قبلها السلطان ...
« أما المرة الأولى - وهي الاستقالة المرفوضة التي أغفلت المراجع
ذكر سببها - فترجح أنها بسبب ما تعرض له القضاء من تدخل السلطان
في الحادثة المعروفة بـ « بيع أمراء الدولة المماليك » ...
« ومحاولة رد حُكم الشيخ عز الدين فيهم ...
« مما حمله على مغادرة القاهرة غاضباً الى الشام ...
« وقد تلتطف السلطان معه في رده عن مغادرة المدينة ... وفي إعادته
لمنصبه وإمضاء حُكمه » !!!

★ ★ ★

عُدْ يا إمام ... واصنع ما بدا لك ؟!

قالوا :

« وأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء ... وقام فجمع أمتعته
ووضعها على حمار ...
ووضع أهله على حمار أخرى ...
وساق الحمير ماشياً !!!
الى أين يا شيخ ؟!

قال: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾^(١)؟!
فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة... ويعتدى فيها على
القضاء؟!...»

★ ★ ★

اقول: هاهنا مكنونات عظمة عزّ الدين... فيم المقام بأرض
يُستضعف فيها أهل الشريعة؟!
شعار ينبغي أن يُكتب بماء الذهب... ويتطلع إليه دائماً علماء
اليوم!!!

هاهو العزّ بن عبد السلام... وحده!!!
وأقول: وحده!!!
عظمة جديدة... بلغها العزّ بن عبد السلام...
مقام الوقوف في الميدان وحده...
يتحدى العالم كله... انتصاراً لدين الله!!!
ألا ما أعظم العزّ بن عبد السلام!!!
قالوا:

«سار الشيخ أميالا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحين
ساخطين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء اذ لم يتخلف عن اللحاق به
«امرأة ولا صبي ولا رجل ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار
وأمثالهم»...
وبدا أن هذه الجموع ستذهب في تحدي السلطان الى أبعد مدى!...

(١) سورة النساء، آية ٩٧.

ولئن هي رجعت بغير الشيخ لتثرون الدنيا على السلطان حتى الذين هم
تحت التراب!!!

وعلم السلطان بما يجري...

وقال له أحد ناصحيه: «تدارك مُلكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ»!!!

فأسرع السلطان الى فرس سريع فامتطاه على عجل...

وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين...

وشهد الناس من حوله وعليه سخطهم...

فنزل عن فرسه...

وتقدم متلفظاً معذراً الى الشيخ عز الدين... وقال له:

«لا تُفارقنا...

«عُدْ يا إمام...

«واصنع ما بدا لك»!!!

وقدم للشيخ فرساً فامتطاه وعاد الشيخ...

عاد الشيخ والناس يهللون من حوله ومن خلفه...»!!!

اقول:

ما كان للشيخ العظيم أن يبلغ ما بلغ من مكانة في قلوب الناس...

إلا إذا كان مخلصاً لله... يعمل لوجهه تعالى!!!

وماذا يملك منه السلطان؟!

وماذا يستطيع الملك معه وقد ترك له مملكته... وخرج ماشياً يسوق

حماراً؟!!

مشهد رهيب عجيب!!!

سلطان يعدو ليلحق برجل بسيط!!!

وخشع السلطان... وتوسّل... واستعطف...

وإن لم يفعل... فهي الثورة العارمة من الجماهير الغاضبة... تقتله

وتدوسه بالأقدام!!!
لقد كان العزّ مثالا رائعا عظيما لعالم يخشى الله...
فخافه الملوك والسلاطين!!!

★ ★ ★

السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ؟!

قالوا: «عول الشيخ على الرحيل من دمشق الى القاهرة...
«وقيل إنَّ ملك دمشق أرسل رسولا خلف الشيخ... يراوده على
العودة...»

«فأدركه وهو بيت المقدس...
«فقال له الرسول:
«بينك وبين أن تعود إلى مناصبك... وما كنت عليه وزيادة... أن
تنكسر للسلطان... وتقبل يده لا غير»!!!
«فقال له الشيخ:

«والله مسكين... ما أرضاه أن يقبل يدي... فضلا عن أن أقبل يده!!!
«يا قوم... أنتم في واد وأنا في واد!!!
«والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك»!!!
«قل: فاعتقله الرسول!!!
وكانت هناك حرب بين جيوش مصر ودمشق...
فانهزمت جيوش دمشق...
فأطلق سراح الشيخ...»

وسار الى مصر في عودة جنودها ...
وهناك تلقاه صديقه سلطان مصر الصالح نجم الدين الأيوبي ...
وولاه التدريس والقضاء ... وعاش بهذه البلاد مرموق المكانة ... مهيب
المنزلة ... معترفاً له بالفضل !!!

★ ★ ★

اقول ... نذكرنا هذا الموقف البطولي من العزّ بن عبد السلام ... موقف
نبيّ الله الكريم ... يوسف عليه السلام ... حين هدّته امرأة العزيز ... إمّا أن
يفعل ما تأمره أو لِيُسْجَنَ ...
فاختار السجن ... وأبى ما تدعوه المرأة إليه بكل ما تملك المرأة الحسنة
من وسائل الإغراء ...

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ
وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاعِرِينَ ★
﴿قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).
امرأة على الغاية من الجمال والدلال والإقبال ...
ذات منصب وجمال ...

أعدت كل شيء ... وقالت: هَبْتَ لَكَ !!!
وشاب أوتي شطر الحُسن ... بلغ ما لا خطر على قلب بشر من
الجمال والرجولة والقوة والفتوة !!!
حسنة راغبة أشد الرغبة ...

تدعو شاباً في أقصى مراتب القوة والجمال !!!

(١) سورة يوسف، الآيتان ٣٢ - ٣٣.

إنها فتنة شديدة جداً!!!

وها هنا تلالأت أنوار النبوة من النبي الكريم...

« قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ... »!!!

ولم تستسلم المرأة... وعاودت مكرها... ووقفت تدعوه الى ما تريد
منه... على ملأ من نساء الطبقة الراقية... ولكن دعوة هذه المرأة
مغلّفة بتهديد ووعيد...

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾!!!

ها هنا أغرق الحسنات في الضحك قائلات له: أطع مولاتك!!!
وقد جعلت كل واحدة منهن معرض جمالها في أفانين الإغراء!!!
وفي صوت هو مزيج من الرغبة فيه... والتهديد له قالت:
﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾!!!
هكذا بدون حياء!!!

إنها تعلن رغبتها على مشهد من جميلات القصور!!!

وتلالأت أنوار النبوة مرة أخرى...

﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ...﴾!!!

وأحاطت به الجميلات... كل واحدة منهن تحاول اغراءه بجهاها...
فنادى يوسف ربّه:

﴿وَالْأُتَىٰ تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾!!!

وخرج يوسف عليه السلام... من أخطر فتنة... طاهراً زكياً...

وآثر أن يكون في السجن على أن يستجيب لما تريد!!!

هذا الموقف الخالد... الذي كان من نبي الله... يوسف عليه

السلام...

سيبقى الى ما شاء الله مثالا رائعا لمن أراد أن يستعصم... وأن يؤثر

مرضاة الله... مهما أودى ومهما كانت التضحيات!!!

واقترضت سُنَّةَ الله في خلقه أن يجعل من المؤمنين والمؤمنات ... أمثلة رائعة ... ليشحذ بها همَّةَ المؤمنين ... على ممر الأجيال ...

وفي الحديث:

« عن النبي ... ﷺ ... قال:

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ...

« الإمام العادل ...

« وشاب نشأ بعبادة الله ...

« ورجل قلبه معلق في المساجد ...

« ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ...

« ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ...

« ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمنه ما تنفق شأله ...

« ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ... !!!

[أخرجه مسلم]

والمختار في هذا السياق هو قوله: « ورجل دعت امرأة ذات منصب

وجمال فقال إني أخاف الله ... !!!

هناك إذا قمم عليا من المؤمنين ستبقى قائمة ما بقيت الحياة ...

تكرر فيها ظواهر الشموخ والاستمساك بالفضائل العليا ... مهما كانت

الدواعي وكانت الفتن !!!

وكما رفع الله ذكر الأنبياء ... وذكر مواقفهم النبيلة السامية ...

فإنه تعالى جعل من المؤمنين والمؤمنات ... السائرين على صراط

الأنبياء عليهم السلام ... جعل منهم أمثلة عليا لتتطلع إليها أعين

السائرين على الصراط المستقيم !!!

ولقد كان العز بن عبد السلام من هؤلاء الأعلام ... الذين يقتدى

بهم في كل موقف كريم ...

فإنك إذا تأملت العَرَض الذي عرضه رسول السلطان عليه:
« بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة...
« أن تنكسر للسلطان... وتَقَبَّل يده لا غير!!!
عرض دبلوماسي يرحب به كثير من أصحاب المناصب المنافقين!!!
مجرد استرضاء مظهري للسلطان أمام الجماهير...
وبعد هذا... يسترد العزّ بن عبد السلام... جميع مناصبه في
دمشق... بل وزيادة!!!
لو عُرِض هذا على كثير من أصحاب مناصب اليوم... لانطلقوا
يُقَبِّلون الأعتاب... ولوجدوا لأنفسهم الفلسفات والمعاذير!!!
ولكن العزّ يرفض ذلك من أساسه...
لأنه أعلن الثورة على السلطان واتهمه بالخيانة العظمى... غَضَبًا لِلَّهِ
وفي الله...
ولو كان يريد الدنيا لأغلق فمه... وترك السلطان يفعل ما شاء...
ولا شأن له هو بالسياسة...
كما يصنع بعض علماء اليوم... يتأقلمون في حياتهم على أنه لا
سياسة في الدين... ولا دين في السياسة!!!
وبذلك ارتضوا أن يتمذهبوا بمذهب التَّسَبُّل والتَّيَسُّس!!!
فهم تنابلة لا يتعبون أنفسهم في شيء...
وهم تُيُوس... مها يعتدي المعتدون... ويظلم الظالمون... ويستبد
المستبدون... فلا شأن لهم... إنهم علماء مساجد فقط... يؤمون
المصلين... ولا شأن لهم بالحياة!!!
كان يمكن للعزّ أن يغلق فمه... كما أغلق آلاف علماء اليوم
أفواههم...
ولكن العزّ كان يفهم الإسلام فهما شموليا كُلِّيًا... لا انفصام بين

شُعبَة من شُعبه وأخرى ...
وإنما بناء متكاملًا ... كاملاً ...
فإذا اتفق السلطان مع الفرنج اتفاقاً يضرّ بالمسلمين ... انقضَّ عليه
العزّ ... يكشف جريمته ... ويُبَيِّن للناس خيانتَه ...
فإذا أرسل اليه السلطان من يساومه في موقفه ... زأر وجأر ...
وأبى وأعرض عنه ... وازداد إصراراً وقال:
« أنتم في واد ... وأنا في واد » !!!
فماذا حدث ؟!
فاعتقله الرسول !!!
أي أدخله السجن !!!
وكان لسان حال العزّ بن عبد السلام:
﴿ ... رَبِّ ... ﴾
﴿ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ... ﴾
﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ... ﴾ !!!
فكما آثر يوسف عليه السلام السجن على ما يدعونه إليه !!!
آثر العزّ بن عبد السلام السجن على ما يدعونه إليه !!!
ومن أعجب العجب ... في موافقات القَدَر ...
أنَّ يوسف عليه السلام حين آثر السجن وكان السجن أحبّ إليه مما
يدعونه إليه من الفتنة ...
كافأه الله ... فأخرجه من السجن ... وأصبح يتبوأ من أرض مصر
حيث يشاء !!!
وكذلك العزّ بن عبد السلام ... حين كان السجن أحبّ إليه مما
يدعونه إليه ... ودخل السجن فعلاً ...
ثم ماذا ؟!

كافاه الله ... وأدخله مصر عزيزاً مكرماً ... قد خرج السلطان نجم
الدين أيوب على رأس الدولة والأمة كلها في استقباله !!!
وولاه التدريس وجعله قاضي القضاة ...
فتبوا العزّ بن عبد السلام من أرض مصر يتبوا منها حيث يشاء !!!
ولا عجب في ذلك ...
فيوسف نبي الله ... يكرمه بما يشاء ...
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) !!!
أي ومثل هذا الجزاء نجزي المحسنين !!!
ومن أنوارها ندرك أن العزّ بن عبد السلام كان - على ما نظنّ -
من المحسنين ...
فلما أثر السجن ورفض أن يستجيب للفتنة ...
أخرجته الله من سجنه ... ودخل مصر آمناً مع جيوشها المنتصرة ...
ورفعه الملك الصالح نجم الدين رفعا عظيما ...
فولاه قاضيا للقضاة ...
وولاه التدريس ... وخطبة الجامع العتيق ... جامع عمرو !!!
فأصبح يتبوا من الأرض حيث يشاء ...
وكان سلطانه فوق سلطان السلطان ...
لأنه سلطان العلماء !!!
ولا عجب في ذلك كله ...
فإن يوسف عليه السلام ... نبي الله ...
والعزّ بن عبد السلام ... ولي الله !!!
والأولياء على قَدَمِ الأنبياء !!!

(١) سورة يوسف، آية ٢٢.

تم

سبحانك اللهم وبحمدك
أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس

صفحة

مقدمة.....	٥
الخطوط العريضة... من حياة... سلطان العلماء؟!.....	٧
عالم... خيرٌ من... مليون عالم؟!.....	٣١
لماذا... لقبوه... سلطان العلماء؟!.....	٣٥
عصرٌ يموجُ... بأفذاذ العلماء... موجاً؟!.....	٤١
نحن اليوم... في أشد الحجة... الى العزّ بن عبد السلام؟!.....	٤٩
عبقريّة... الفقّر؟!.....	٥٥
الطفل عزّ الدين... يعاصر بطولات...	
البطل صلاح الدين؟!.....	٦٥
الطفل عزّ الدين... يسمع عن بطولة... الناصر	
صلاح الدين... في فتح القدس؟!.....	٨٥
مسلسل الأحداث... التي عاصرها... العزّ بن عبد السلام...	
من مولده إلى وفاته؟!.....	٩٩
عزّ الدين... حتى سنّ... الخمسين؟!.....	١٣٥
الشيخ الخضيرى... يتّهم الملك الأشرف... بأنه حمار؟!.....	١٤٧

العزّ يعلن الثورة ... على السلطان ... الصالح إسماعيل ...	
ويدمغه بالخيانة العظمى؟!	١٦٩
السلطان الملك الصالح ... نجم الدين أيوب ... يخرج على رأس	
الكبراء ... لاستقبال البطل في القاهرة؟!	١٨١
البطل يغادر مصر ... والجماهير تحاول منعه ... والسلطان	
يعتذر إليه ... « لا تُفارقنا »؟!	١٨٩
العزّ يعبئ الجماهير ... فتنتزع النصر ...	
في معركة المنصورة؟!	٢٠١
هولاكو ... يدمّر بغداد تدميرًا ... ويقتل الخليفة ...	
ويلغي الخلافة؟!	٢١١
العزّ بن عبد السلام ... يلعب أخطر ... لعبة سياسية؟!	٢١٩
العزّ يفتي فتواه ... والمَلِك المظفر قُطز ...	
يُنَفَّذ فتواه؟!	٢٢٥
العزّ بن عبد السلام ... ومعركة ... « عين جالوت »؟!	٢٥٣
مصرع السلطان المنتصر قُطز ... وسلطنة ...	
الملك الظاهر بيبرس؟!	٢٦١
وفاة ... سلطان العلماء ... العزّ بن عبد السلام؟!	٢٦٧
نماذج قليلة من ... فتاوى سلطان العلماء ...	
العزّ بن عبد السلام؟!	٢٧٥
شخصية ... العزّ ... ابن عبد السلام؟!	٣٠٥
فهرس	٣٥٧

ماذا في هذا الكتاب !!

فيه حياة مَنْ قال عنه السبكي في طبقاته: «شيخ الإسلام والمسلمين... وأحد الأئمة الأعلام... سلطان العلماء... إمام عصره بلا مدافعة... القائم بالأمر بالمعروف... والنهي عن المنكر في زمانه... المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها... العارف بمقاصدها... لم يَرِ مثْل نفسه... ولا رأى مَنْ رآه... مثله علماً ووَرَعاً... وقياماً في الحق... وشجاعة... وقوة جنان... وسلطة لسان»!!!

وقال فيه الذهبي: «انتهت إليه معرفة المذهب... مع الزهد والورع... وبلغ رتبة الاجتهاد... وقدم مصر... فأقام بها أكثر من عشرين سنة... ناشرًا للعلم... أمرًا بالمعروف... ناهيًا عن المنكر»!!! وقال فيه ابن كثير: «انتهت إليه رئاسة المذهب... وقُصد بالفتوى من سائر الآفاق... ثم كان في آخر عمره لا يتعب بالمذهب... بل اتسع نطاقه... وأفنى بما أدى إليه اجتهاده»!!! وقال فيه أبو الحسن الشاذلي: «ما على الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام»!!!